جان جينيه



شعائر الجنازة

ترجمة: أسامة منزلجي

رواية

Author : Jean Genet
Title : Funeral Rites
Translator : Ossama Manzalji
Al- Mada P.C.
First Edition : 2006

اسم المؤلف : جان جينيه
عنوان الكتاب : شعائر الجنازة
المترجم : أسامة منزلجي
الناشر : المدى
الطبعة الأولى : سنة ٢٠٠٦

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

لبنان -بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

العراق - بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون - جانب فندق السفير
تلفون: ٧١٧٠٣٩٥-٧١٧٠٥١٣ فاكس: ٧١٧٥٩٤٣
www.almadapaper.com
almada112@yahoo.com almada119@hotmail.com

جـان جينيـه

شـعـائر الجـنازة

رواية

ترجمة أسـامة منزلجي

إهداء المؤلف

إلى جان ديكارنان

الصُحُف الصادرة خلال فترة تحرير باريس، في شهر آب (أغسطس) من عام ١٩٤٤، تُعطي فكرةً واضحةً عمًّا كانت عليه حقاً أيام البطولة الصبيانيّة تلك، حين كان الجسدُ يفورُ بالثقةِ بالنفسِ وبالإقدام:

" باريس ما زالت حيّةً " " كلُّ الباريسيين نزلوا إلى الشارع "
"الجيش الأميركي يتقدَّم في باريس " " قتالُ الشوارع يستمرُّ "
"البوخ[1] استسلموا " " إلى المتاريس! " " الموت للخوَنة! ".

حين نُقلِّبُ صفحات الأوراق العتيقة نرى من جديد الوجوهَ الصارمةَ المبتسمةَ، مُعفَّرةً بغبارِ الشوارع، مُتعَبَةً، نَمَتْ عليها لحى أربعة أيام أو خمسة. وبعد ذلك بقليل تكشفُ تلك الصحف أمامنا المذابحَ الهتلريّة وخِدَعاً، يصِفُها البعضُ بالساديّة، قام بها رجال شرطة يُجنِّدون جلأديهم من بين صفوف الفرنسيين. والصور ما تزالُ تعرضُ جثثاً مقطّعةَ الأوصال، ومشوَّهةً، وأطلالَ قُرى، كأورادور ومونسوش، أحرقها جنودُ ألمان. ضمنَ هذا الإطار المأساوي وقعتْ حادثتنا: موت جان. د ، وهو السبب الظاهري لتأليف هذا الكتاب.

لدى عودتي من المشرحة، التي قادتني إليها خطيبته (كانت خادمةً في الثامنة عشرة، ويتيمةً منذ سن الثانية عشرة. كانت تقفُ إلى جوار أمها تستجدي في غابة بولونيه، تُقدِّمُ للمارَّةَ، بوجهٍ منطفئ ليس فيه

جميلٌ إلاّ العينين، بضعَ أغانٍ بصوتِ فتاةٍ متسوِّلة. وكان اتِّضاعها من الشدَّة بحيث انها كانت في بعض الأحيان تَقْبَلُ فقط قِطَعاً نقديَّةً صغيرةً تُقدِّمها لها السيدات لدى مرورهنَّ بها. كانت منكوبةً، ومن فرط الاكتئاب كنتَ ترى حولها في كل الفصول نباتات يابسةً وبِركاً مُستنقعيَّةً نقيَّةً. لا أدري من أين التقطها جان، لكنه أحبَّها)، أقولُ: لدى عودتي وحدي من المشرحة كان الظلامُ قد ساد. وأثناء سيري في شارع شوسه-دانتان، أسبحُ على أمواجِ الحُزنِ والأسى وأفكِّرُ في الموت، رفعتُ رأسي فشاهدتُ ملاكاً حَجَريّاً ضخماً، حالكاً كسوادِ الليلِ، يلُوِّحُ مُهدِّداً عند نهاية الشارع. وسرعانَ ما تبيَّنتُ أنه هيكلُ كنيسةِ الثالوث، لكني خلال تلك الثواني القليلة شعرتُ برعبِ حالي، بعجزي البائس في حضورِ ما بدا في الظلام (ليسَ ظلامَ باريس في شهر آب، بقدر ما هو ظلامُ أفكاري المُقبِضَة الكثيفُ) ملاكُ الموت والموتُ نفسه، وكلاهما راسخٌ كصخرة. وقبل قليل ؛ حين كتبتُ كلمة " هتلريّ "، التي تحتوي اسم هتلر، كانت كنيسة الثالوث، الكالحة والعديمة الشكل بحيث تبدو كنسرِ الرايخ، هي ما رأيتُ يقتربُ مني. وخلال برهةٍ قصيرةٍ جداً عشتُ من جديدٍ الثواني القليلة وكأني تحجَّرتُ داخلها، تجذبني تلك الحجارة بشكلٍ مُرعبٍ، وشعرتُ برعبها؛ لكن تحديقي المأسور لم يقوَ على الفرار منه. شعرتُ أنَّ من" الشؤم " أنْ أُحدِّقَ هكذا، بذاك الإصرار والاستغراق، ومع ذلك بقيتُ أُحدِّق. لم تَحِنْ اللحظةُ بعد كي أعرف إنْ كان فوهرر الألمان، عموماً، يُجسِّدُ الموتَ، لكني سأتحدَّثُ عنه، يُلهمني حبي لجان، ولجنوده، علَّني أُدركُ أيَّ دورٍ سرِّي لعبوه في قلبي.

لن أتمكَّنَ أبداً من البقاء على مسافةٍ قريبةٍ كافيةٍ من الظروفِ التي

كتبتُ في ظلّها هذا الكتاب. وعلى الرغم من هدَفه المعلَن أن يحكي عن تألُّق جان. د، فإنَّ له ربما أهدافاً ثانويّةً أخرى أكثرَ غموضاً. وأنْ تكتُبَ يعني أن تنتقي من بين عشرة موادَّ أوليّةٍ معروضةٍ عليك. أتساءلُ لماذا كنتُ راغباً في أن أُثَبِّتَ بكلماتٍ حقيقةً دونَ أخرى تُعادلُها في الأهميّة. لماذا اختياري محدودٌ ولماذا أراني سرعانَ ما أصفُ الجنازةَ الثالثةَ في كلٍ من كُتُبي الثلاثة[1]؟ حتى قبل أن أعرفَ جان كنتُ قد انتقيتُ جنازةَ الطفل غير الشرعي للأمّ غير المتزوّجة التي ستقرأ عنها لاحقاً، بعد أن قُنِّعَتْ بالكلمات، وجُمِّلَتْ، وزُيِّنَتْ بها، وشُوِّهَتْ. من المزعج أن أتناولَ الآن موضوعاً رهيباً وقعتُ عليه منذ فترة بعيدة وأدمُجَه، رغماً عني، في عملٍ يهدُفُ إلى تحليلِ ومضِ الضوء (المُكوَّن أساساً من الحب والألم) الذي سلّطه قلبي المكلوم. إنني أكتبُ هذا الكتابَ بالقربِ من ديرٍ يقعُ في عُمقِ الغابة، بين الصخور والأشواك. وبينما أمشي بمحاذاة السيل المائي أستمتعُ بمعاناة الألم الذي عاناه كلٌّ من إريك، البوخ الوسيم قائد الدبابة، وبابلو، وريتون. سوف أكتبُ بكلّ حرية. لكني أودُّ أن أؤكِّدَ على غرابة القَدَر الذي جعلني أصفُ في بداية رواية " سيدة الزهور " جنازةً كنتُ سأُواكبها بعدها بسنتين وفقاً لطقوسِ القلبِ والعقلِ السرِّيّة. والأوّلُ لم يكن تماماً تصوُّراً مُسبقاً للثاني. وتأتي الحياةُ بتحوُّلاتها، ولكن بالاضطراب نفسه (وإنْ كان اضطراباً ينشأ، ظاهرياً، من نهايةِ صراعٍ - على سبيل المثال، حين تتحركُ الأمواجُ المتراكزةُ في بحيرةٍ مبتعدةً عن النقطةِ التي يسقطُ فيها الحجرُ، حين تبتعدُ أكثرَ فأكثرَ

---

١ - كتبي الثلاثة : الإشارة هنا إلى الروايات الثلاث لجينيه : سيدة الزهور/ شجار بريست/ شعائر الجنازة . المترجم .

وتتلاشى حتى السكون، فلابدَّ أنَّ الماءَ يشعرُ، بعدَ أن يتحقَّقَ هذا السكونُ، بما يُشبه الرعشةَ لا تعودُ تتولَّدُ في مادَّته بل في روحه. ويُدركُ اكتمالَ كونه ماءً). وجنازة جان. د تُعيدُ إلى فمي الصرخَةَ التي غادرَتْه، وعودتها تُسبِّبُ لي قلقاً مبعَثُهُ أني وجدتُ السلام من جديد. ذلك الدفنُ، ذلك الموتُ، سجَنَتْني شعائرُهُ في نُصُبٍ من الغمغمات، من هَمَسَاتٍ تناهتْ إلى سَمعي، ومن مشاعر تُجيشها الجنازةُ. كانت ستجعلني أعي حبي وصداقتي لجان، بعد أن اختفى كلّ ذلك الحب وتلك الصداقة. ومع ذلك فالآن وقد تلاشت تلك الدوامة العظيمة، عاد لي هدوئي. ويبدو أن أحد أقداري قد أُنجِزَ لتوِّه. وبدا أنَّ أُمَّ جان قد فَهِمَتْ ذلك حين قالت لي:

" إنَّ هذا يجعلكَ تبرزُ "

" أبرزُ؟ "

كانت تُرَتِّبُ كُتباً على الطاولة. تردَّدَتْ قليلاً، ودفَعَتْ بعصبيّةٍ مُجلَّداً ارتطَمَ بصورةِ زوجها، ونطَقَتْ، بدون أن تنظرَ إليَّ، جملةً لم أفهم منها سوى آخر كلماتها:

"... الشموع "

لم أنبس بجواب، ربما بدافع الكسَل، وأيضاً، كما بدا لي، لكي أظهَرَ أقلَّ حياةً. والحقيقة أنَّ كل تصرُّف مفرط الدقَّة، مفرط الوضوح، كان يُعيدني إلى الحياة التي حاولَ شَجَني أن ينتزعني منها. شعرتُ بالخجل، في ذلك الوقت، لأني ما أزالُ حياً وجان ميِّتاً، وآلمني كثيراً أن أرتفعَ إلى سطحي الخاص. مع ذلك، ففي عقلي الهزيل، اللامنطقي، الذي كان ينجرف أكثر فأكثر نحو الإبهام، انتظَمَتْ تلك الكلمة، التي

لعلّها كانت تُشيرُ إلى الشموع الموجودة على الطاولة، في الجملة التالية:

" إنّكَ تبرزُ بين الشموع "

لم أعُدْ أذكُر ما تَبِعَ تلك الكلمات. ويُدهشني أني أتذكّر العبارة التالية لأمّ جان، وهي تُحدّق بي:

" فليقُل الناسُ ما يشاءون، المهمّ التربية "

رنوتُ إليها ولمْ أقُلْ شيئاً. كان ذقنها مرتكزاً على تجويف يدها اليمنى.

" جان يشبه جدّته قليلاً من هذه الناحية "

" نعم، كان يمكن أن يغدو شخصيةً بارزةً. لقد كان عالي التهذيب "

تحوّلَ تحديقها عني واستقرّ على السطح الصقيل لطبق الضيافة، الموضوع على الطاولة، الذي كانت، وهي تميلُ برأسها إلى الأمام، تتمرّى فيه وتعيد ترتيب شعرها نحو الخلف إلى مكانه.

" أمي كانت شخصيةً بارزةً جداً، كانت سيدة مجتمع. وأنا التي وَرَثَتْ الصفة الأرستقراطية في العائلة "

الحركةُ التي رتّبَتْ بها الشموع حرّرَتْ تلك الثقة بالنفس. أرادتْ الأم أن تُثبِتَ لي أنها جديرةٌ بابنٍ كهذا وأنّ ابنها جديرٌ بي.

رَفَعَتْ رأسها، ودون أن تنظر إليّ، غادرَتني بصمت. كانت ذاهبةً لتُبلّغَ إريك بوصولي. إنها لم تُحب جان قط، غير أنّ موته المفاجئ عظّمَ مع ذلك ضميرها الأمومي. فبعد تشييعه بأربعة أيام تلقّيتُ رسالةً منها تشكرني فيها - أتُراها كانتْ تشكرني على حزني؟ - وتطلب مني أن أحضَرَ لرؤيتها. كانت الخادمة الصغيرة هي التي فَتَحَتْ الباب لي. لقد آوتْها أم جان على الرغم من اشمئزازها من كونها خادمةً وابنةً متسوّلة. قادتني جوليت إلى غرفة الضيوف ثم ذهَبَتْ. وانتظرتُ. كانتْ أم جان

قد تخلَّتْ عن حِدادها. كانت ترتدي ثوباً أبيض منخفض الياقة، بلا أكمام. بمعنى أنها كانت ترتدي الحِداد على طريقة الملكات. كنت أعرفُ أنها تُخفي جندياً ألمانياً في شقَّتها الصغيرة ذات الغُرَف الثلاث منذ العِصيان المُسلَّح في باريس، لكنَّ شعوراً قريباً جداً من الخوف عَصَرَ حنجرتي وقلبي حين ظهرَ إريك إلى جانبها.

قالت " مسيو جينيه "، وهي تتكلَّفُ الابتسام وتمدُّ يدها البيضاء الرخوة الممتلئة، " هذا صديقي "

كان إريك يبتسم. كان شاحبَ البشرة على الرغم من أثر سُمرةِ التعرُّض للشمس. وعندما حاولَ أن يكون منتبهاً، توتَّر منخراه وابيضًّا. وبدون أن يتَّضحَ لي عن وعي أنه حادّ الطِباع، شعرتُ بنوعٍ من عدم الارتياح الذي ينتاب المرءَ في حضورِ رجلٍ يستعدُّ للعضّ. كان بلا أدنى شك عشيق جلاّد برلين. ومع ذلك، كان وجهه مُقنَّعاً بما يشبه شعوراً بالعار في حضوري، وهذا العار دفعني فيما بعد إلى تخيُّله في وضعٍ سأتحدَّثُ عنه. كان يرتدي ملابس مدنيّة. رأيتُ أولاً عنقَه المخيفَ، البارزَ من قميصٍ أزرق، وذراعيه الملفوفتين بالعضلات في كُمِّيه المطويين إلى أعلى. كانت يده ضخمةً وثابتةً، مع أنَّ أظافره كانت مقضومة. قال:

" أعرفُ عن صداقتك مع جان... "

أدهشني جداً أن أسمعَ صوتاً ناعماً، ويكادُ يكونُ ذليلاً، يحدّثني. جَرْسُهُ يتَّصفُ بخشونةِ الأصوات الروسيّة، غير أنَّه رُقِّقَ بما يشبه اللطافة حين تبيَّنتُ فيه ما يُسمَّى بالنبرات الحادَّة، حاولَ - عن عمدٍ أو عن غير عمد - أنْ يُخفِّفَ اهتزازاتها. كانت ابتسامةُ كلٍ من المرأة والجندي قاسيةً جداً، ربما بسبب يباس وجمود انحناء الشفاه، حتى إني شعرتُ فجأةً

كأني وقعتُ في فخٍ وأنَّ الابتسامتين تراقبانني، وكانتا مخيفتين مثل الفكّ المترصِّد لفخٍ نُصِبَ لذئب. وجلسنا.

" كان جان شديد اللطف... "

" هذا صحيح، مسيو. لا أعرف أحداً... "

" ولكن لا أظنكما ستتابعان التخاطُبَ بلقب مسيو "، قالت الأمُ ضاحكةً، " فأنتَ أولاً وأخيراً صديق. ثم، إنَّ الأمرَ سيطول كثيراً، وسننتهي إلى رسميّاتٍ لا حدود لها "

تبادلنا إريك وأنا النظرات بتردُّد. في أول الأمر سادَ بيننا عدمُ الارتياح. ثم، وبدفْعٍ من قوةٍ ما، بادرْتُ على الفور إلى مدّ يدي وابتسمتُ. وفي مواجهةِ ابتسامتي، فقدَتْ الابتسامتان الأُخريان قسوتهما. جلستُ متصالبَ الساقين وشاعَ جوٌ وديٌّ حقيقي.

سعَلَ إريك سعلتَين جافّتين صغيرتين منسجمتين تماماً مع شحوبه.

" إنه شديد الخجل، كما ترى "

" سوف يتعوَّدُ عليَّ. أنا لستُ غولاً "

لابدَ أنَّ كلمة " غول " قد أيقظها صدى كلمتَيّ " يتعوَّدُ عليَّ ". أيُعقلُ أنه في حياتي الخاصة كنتُ أقبلُ بلا شَجَنٍ أحدَ أولئك الذين حاربهم جان حتى الموت؟ إذ أنَّ الوفاة الهادئة لذلك الشيوعيّ ذي العشرين ربيعاً الذي، في ١٩ من شهر آب عام ١٩٤٤، اصطيدَ عند المتاريس برصاصةٍ من شابٍ خائنٍ فاتنٍ، فتى كان حُسنُهُ وسِنُّهُ هما زينته، تُلطِّخُ حياتي بالعار.

تأمَّلتُ قليلاً في كلمتيّ " يتعوَّدُ عليَّ " وشعرتُ بنوعٍ من كآبةٍ خفيفةٍ جداً لا يمكنُ التعبيرُ عنها إلا بصورةِ كومةٍ من الرمال أو النفايات.

لقد كانت رهافةُ جان تشبه بصورةٍ ما (بما أنها توحي بذلك) الحزنَ الشديد الذي ينبعثُ - مع رائحةٍ خاصةٍ جداً - من ملاطٍ وكسارةِ آجُر مصنوعٍ كما يبدو - مجوفاً كان أَمْ مُصمتاً - من غُضارٍ ناعمٍ جداً. وجهُ الفتى اليافع كان دائماً على استعدادٍ ليتفتَّتَ، وقد فتَّتته كلمتا " يتعوَّدُ عليَّ " للتوّ. وبين أطلالِ أبنيةٍ دُكَّتْ، أدوسُ أحياناً على أنقاضٍ خفَّفَ الترابُ من شدَّةِ احمرارها، وهي من الهشاشةِ، والتحفُّظ، وتفوحُ بالمذلّة حتى ليُخيَّلُ إليَّ أني أطأُ بأسفلِ حذائي وجهَ جان. كنتُ قد قابلتُه قبل ذلكَ بأربعِ سنوات، في آب من عام ١٩٤٠، في ذلك الوقت كان عمره ست عشرة سنة.

حالياً، أنا مرعوبٌ من نفسي لأنها تحتوي - بما أني قد افترسته - الحبيب الأعزّ والأوحد الذي أحبَّني. أنا قبره. التُربةُ لا شيء. ميتة. قضبانٌ وبساتين[٢] تنبثقُ من فمي. فمه. تُضَمِّخُ صدري، المُشرَّع، المُشرَّع واسعاً. برقوقةٌ خضراءُ تُضخِّمُ صمتَه. النحلُ يهربُ من عينيه، من محجريه حيثُ تدفَّقَ بؤبؤاه الصافيان من تحت الجفنين الرخوَين. إنَّ التهامَ صبيٍ قُتِلَ عند المتاريس، افتراسَ بطلٍ صغيرٍ، ليسَ عملاً سهلاً. كلُّنا نحبُّ الشمسَ. فمي مُلطَّخٌ بالدم. وكذا أصابعي. قَطَعتُ اللحمَ قِطَعاً بأسناني. الجثثُ لا تدمي عادةً. جثَّتُه أدمتْ.

ماتَ عند المتاريس في ١٩ آب، عام ١٩٤٤، لكنَّ قضيبه كان لتوِّه قد لطَّخَ فمي بالدم في أيار، وسطَ البساتين. حين كان حيّاً، كان جمالُه يُخيفُني، مثلما فَعَلَتْ طهارةُ لغته وجمالها. في ذلك الوقت، أردتُ له أن يعيشَ في قبره في ضريحٍ مظلمٍ، عميقٍ، المقرُّ الوحيد الجدير بوجوده الهائل. يُضاءُ بنورِ شمعة، ويقطُنُه ناخّاً على ركبتيه أو جاثماً.

ويُستَجوَبُ من خلال شقٍ في البلاطة. أهكذا يعيشُ داخلي، يزفرُ من خلال فمي، وشرجي، وأنفي الروائحَ التي يُجمِّعها تفاعلُ انحلالِه داخلي؟

إني ما أزالُ أُحبّه. إنَّ حبَّ المرأةِ أو الفتاة لا يمكن مقارنته بحبِ رجلٍ لصبيٍّ يافع. إنَّ رِقَّةَ وجهه وأناقة جسمه غطّياني كما الجُذام. هاكَ وصفاً له: شعره أشقر متموِّج، كان يتركه مسترسلاً ؛ عيناه رماديتان، أو زرقاوان، أو ربما خضراوان، لكنهما صافيتان بشكلٍ خارق ؛ انحناء أنفه المُقعَّر رقيقٌ، طفوليٌّ. كان يشمخُ برأسه عالياً من فوق عُنُقٍ يميلُ إلى الطول واللدانة ؛ فمه الصغير، الذي لشَفَته السفلى انحناءٌ واضحٌ، كان دائماً تقريباً مغلَقاً. وكان جسمه نحيلاً ليِّناً، وخطوه سريعاً ومتراخياً.

قلبي مُثقلٌ ومستسلمٌ للغثيان. أتقيَّأُ على قدميَّ الأبيضَين، عند أسفل الجَدَث الذي هو جسدي العاري.

كان إريك قد جلسَ على كرسي وظهرُهُ إلى النافذة المكسوَّة بستارةٍ طويلةٍ، بيضاء مُخرَّمة. الهواء كثيفٌ، مؤلمٌ. واضحٌ أنَّ النوافذ تبقى دائماً مغلقة. ساقا الجندي ممدودتان، بحيثُ أنَّ الواجهةَ الخشبيّة للكرسي الذي وضعَ يده عليه كانت مرئيّة. بنطالُ العمل الأزرق الذي يرتديه ضيِّقٌ جداً على فخذَيه ومؤخّرته. لعلّه كان يخصُّ جان. إريك وسيم. لا أدري ما الذي دفعني فجأةً إلى التفكير في أنَّ جلوسه على كرسيٍّ مقعده من قَشٍ يعصرُ له " عين قابس "[٢]. وتذكّرتُ إحدى الليالي في شارع الشهداء، سرعان ما عدتُ أحياها. كان الشارعُ ما بين جروفِ البيوت الشاهقة يصعدُ أعلى التل نحو سماءٍ عاصفةٍ حثّتْ إيقاع خُطى وإيماءات جماعةٍ من ثلاثة فتية و (bataillonnaire جندي لعوب)، كانوا جميعاً مستمتعين بقصّةٍ يرويها أحدُ الجنود. أثناء مرورهم، كانت سِلالُ مُشتروات نساء حاسرات الرؤوس ترتطمُ ببطّات سيقانهم.

"... وكان ذلك هو كلّ ما أردت. وحشرتُ إصبعي في عينه "

لَفَظَ اللعوبُ كلمةَ oeil (عين) كأنها ail (ثوم). وكان الصبيةُ الثلاثة الذين يسيرون بإيقاعٍ خطى واحد، ورؤوسهم مُنكّسة وأكتافهم منحنية قليلاً وأيديهم المدسوسة في جيوبهم تضغطُ على عضلاتِ أفخاذهم المشدودة، قد أصابهم قليلٌ من الدوار جراّء الصعود. كان لقصّةَ اللعوب حضورٌ حسّيّ. لم يقولوا شيئاً. وفي داخلهم فَقَسَتْ بيضةٌ خرجَتْ منها إثارةٌ مشحونةٌ بجوِ مُضاجعةٍ جنسيّةٍ حَذِرةٍ تجري تحت ناموسية. وسمحَ صمتُهُم للإثارةِ أن تشقّ طريقها وهي ترتعشُ وحتى لبّ نقي عظامهم. لم يكُن يهُمُّ كثيراً نوعُ الحبُّ المُمَارَسُ الذي كان يجري داخلهم للمرة الأولى لكي يُفلِتَ من أفواههم على شكلِ أغنيةٍ، أو قصيدةٍ، أو تجديف. وجعلهم الارتباكُ منكمشين. كان أصغرهم سناً يسيرُ شامخَ الرأس، نقي النظرة، وقد انفرجت شفتاه قليلاً. وكان يقضمُ أظافره. وبسبب ضعفه لم يكن دائماً قادراً على المحافظة على هدوئه وتماسكهِ، لكنه شعرَ بامتنانٍ عميقٍ لأولئك الذين وفّروا له السلامَ بالهيمنة عليه.

أدارَ رأسه قليلاً. كان فمه المفتوح قد صارَ شقّاً مرّتْ منه كل رقّته ومنه دخلَ العالمُ ليتملّكه. ورنا إلى اللعوب بنظرةٍ طيِّعة. فهمَ اللعوبُ الحسّاسُ وتألّمَ من الإثارة نفسها التي سبّبها. وشدَّ رأسَه إلى الخلف بفخرٍ. قدَمُه الصغيرة، التي كانت أكثر ثقة، بزّتْ قدَمَ منتصرٍ. وضحك ضحكة قصيرةً مكبوتة:

"... في عينه، أقول لكم، في عينه مباشرةً! "

أكّدَ على حرف الياء في " عينه " بحيث تركهُ ينسابُ مطوّلاً. ثم سادَ صمت. وأنهى الجملةَ بطريقةٍ مُنمّقةٍ طنّانةٍ حتى إنّ القصة أصبحتْ

سـرداً لمأثرةٍ شـوهدَتْ في أرضِ الآلهـة، قـابس[4]، أو في قـابس الموطن المُترَف، ذي الحرارة الملتهبة، لمرضٍ نبيل... وداسَ بيـيرو على حجر. لم يقُل شيئاً. وبدون أن يُحركِّ قبضتيه في جيبيـه، عادَ الجندي يشمخُ برأسه الصغير المستدير الملتهب، البُنيّ بلون حصاة الوادي، وأضافَ مع ضحكه الأجشّ، وكأنَّ النقطة الموشومة باللون الأزرق على الزاوية الخارجية لجفنه الأيسر مرسومةٌ عليها:

"... قابس! في عين قابس! وبانغو! "

ليس من قـبـيل المُصادفـة أن يبـدأ كـتـابي، المأهول بأشـدّ الجنود إخلاصاً، بأندرِ تعبيرٍ يَصِمُ الجندي المعاقَب، أعقل المخلوقات الذي يخلط بين المحارب واللص، بين الحرب والسرقة. واللعوب أيضاً خلعَ لقبَ "العين البـرونزية " على مـا يـسـمَّى بـ " العنَّاب " و " قـابـس "، و " البـصلة، و"المُتَمَنِّع "، و " tokas"، و " القمـر "، و " سلَّة الخراء ". فـيمـا بعد حين يعـودُ كلٌ إلى بلدته، يحـتـفظون خِفيّـةً بالسرّ المقدَّس للـ Bat-d'Af، كما كـان أمـراء البـابا، أو الإمـبـراطور، أو الملك، قـبل ألف عـام، يُـمـجِّدون بكونهم لصوصاً عـاديين ضمن عصابةٍ بطوليّة. واللعوب مولعٌ بشبـابه، وبالشمس، وبنفخِ الحرَس للأبواق، وبشواذ السجون، وبشجيـرات الصبّار، التي تُسـمَّى أوراقـها أيضـاً " زوجة اللعـوب " ؛ وبالرمال، وبالمسيـر في الصحراء، وبالنخلة الميَّاسة التي تُشبه أناقتُها وحيويتها تماماً أناقةَ وقوةَ قضيبه وصديقه ؛ وبالقبر، وبالمقصلة، وبالعين.

إنَّ التبـجـيلَ الذي أكُنُّه لذاكَ الجزء من الجسم والحنان الغامـر الذي منحتُه للفتـيـان الذين سـمحوا لي بولوجه، وجمـال هبتـهم وعذوبتـهـا، يُلزمني بأن أتكلَّم عن هذا كله باحتـرام. ولا يُدنِّسُ أَحبّ الموتى إليّ أن

أتحدَّثَ، بثوبِ قصيدةٍ ما زالتْ مجهولة النبرةِ، عن السعادة التي وهبني حين كان وجهي يندفنُ في جزَّةٍ مُرطَّبةٍ بعرقي وبلعابي وملتصقةٍ معاً بخصلٍ صغيرةٍ من الشعرِ جفَّتْ بعد ممارسة الحب وبقيتْ جافَّة. أحياناً كانت أسناني تغوصُ فيها بيأسٍ، ويمتلئ بؤبؤا عينيّ بأخيلةٍ تنتظمُ اليومَ على خلفيّة صالة مأتمٍ، حيثُ هيمَنَ ملاكُ انبعاث موتِ جان بكلّ ضراوته، أبيّاً ومحلِّقاً بين السُحُبِ، على أجملِ جنود الرايخ. إذ أحياناً كان الفتى الرائع، الذي حَصَدَته طلقاتُ شهرِ آب التي يُخيفُني نقاؤها وبرودتها، لأنها تجعله أعظمَ مني، كان يُثيرُ عكسَ ما هو عليه حقاً. ورغمَ ذلك إني أضعُ قصتي، إذا كان هذا ما ينبغي أن أطلقهُ على التحلُّل البرَّاق لحبّي وحزني، تحت حمايةِ ذلك الفتى الميت. ستكون كلمتا "وضيع " و " خسيس " بلا معنى إذا جرؤ أحدٌ على أن يصفَ بهما نبرة هذا الكتاب الذي أكتبه بإجلالٍ. لقد أحببتُ عُنفَ قضيبه، وارتعاشَه، وحجمَه، وتجعُّدَ شعره، وعيني الصبي، وقفا رقبته، والكنز المطلق، المُظلم، و " العين البرونزية "، التي لم يَهبها لي إلاّ في وقتٍ متأخِّرٍ جداً، قبل نحو شهرٍ من موته.

في يوم الجنازة، فُتِحَ بابُ الكنيسة في الرابعة من بعد الظهر على ثُقبٍ أسود شَقَقْتُ خلاله طريقي بوقارٍ أو، بالأحرى، حَمَلَتني قوةُ الجنازةِ الفخيمةِ إلى الحَرَم الليليّ وتهيّأتُ لحضورِ قُدّاسٍ هو صورةٌ عُلويّةٌ للقداس الذي يُقامُ عند كل حزنٍ يشعرُ به القضيب الهابط. ولطالما ملأتْ نكهةُ الجنازةِ فمي بعد ممارسة الحب.

لدى ولوجي الكنيسة:

" المكانُ هنا مظلمٌ كثُقبِ شرجٍ زنجي "

إلى ذلك الحدّ كـان مظلماً، ودخلتُ المكانَ بالوقـار الهـادئ نفسه.

وفي الطرف النائي لَمَعَتْ حَدَقَة " عين قابس " ذات اللون التبغي، وفي وسطها كـان سائقُ الدبابة المُرهَق، المُحاط بهـالة، المتوحِّش، الصامت، الشديد شحوب الوجه، الإله الليليّ، إريك زايلر.

على الرغم من ارتعاش الشموع، كان يمكن أن تتبيَّن، من بوابة الكنيسة المُتَّشحة بالسواد، على صدر إريك، وهو واقفٌ فوقَ أعلى مذبحٍ يدعمُ كلَّ أزهارِ حديقةٍ مُعراة، موضعَ الثقب القاتل الذي ستُحدِثه طلقةٌ من أحد الفرنسيين.

تابعتْ عيناي المُحدِّقتان تابوتَ جان. عَبَثَتْ يدي برهةً بعُلبةِ كبريتٍ صغيرةٍ مُستقرَّةٍ في جيب سترتي، هي نفسها علبة الكبريت التي كانت أصابعي تُدلِّكها حين قالت لي أُم جان:

" إريك من برلين. نعم، أعرف هذا. هل أعتبرُ ذلك نقطةً ضدَّه؟ إنَّ الإنسان غير مسؤول. الإنسان لا يختارُ مسقطَ رأسه "

ولمَّا لمْ أدرِ بماذا أُجيبُ، رفعتُ حاجبيَّ وكأني أقولُ " طبعاً ".

ضَغَطَتْ يدُ إريك، التي كان يضعُها بين فخذَيه، على خشب الكرسي. هزَّ كتفيه ونظرَ إليَّ بعينين قلقتين قليلاً. في الواقع كانت تلك هي المرَّة الثانية التي أراهُ فيها، وكنتُ على علمٍ منذ وقتٍ بعيدٍ بأنه عشيقُ أم جان. ولما كانت قوَّته وحيويَّته تُعوِّضان عمَّا كان شديد الهشاشة في جمال جان (على الرغم من صرامته البالغة)، رحتُ منذ ذلك الحين أبذلُ جهوداً جبَّارةً لأعيشَ حياته كفتى صغير من برلين، خاصَّةً حين نهضَ واقفاً ومشى إلى النافذة ليُطلَّ منها على الشارع. وبحركةٍ حذرةٍ بلا داعٍ قرَّبَ أحد طرفيَّ الستارة المخمليَّة الحمراء المزدوجة، من جسمه.

ظلَّ واقفاً هكذا بعض الوقت، ثم استدارَ بدون أن يترك الستارة، بحيث باتَ متدثِّراً تماماً تقريباً داخل تضاعيفها، وتخيَّلتُ صورةَ أحدِ الشبيبة النازية الذين يستعرضون في برلين وعلى أكتافهم أعلامٌ منشورة ملفوفين بتضاعيف قماش أحمر تضربه الريح. ولبرهةٍ قصيرةٍ أصبح إريك أحد أولئك الفتية. نظرَ إليَّ، ثم عاد فاستدار بحركةٍ صغيرةٍ نحو النافذة المغلقة التي يُرى منها الشارع من خلال التخاريم، ثم تركَ الستارة لكي يرفعَ رسغَه وينظرَ إلى الوقت. وأدركَ أنه لم يعُدْ يملك ساعة. كانت أمُ جان واقفةً بهدوءٍ بجانب نُضُد المائدة وهي تبتسم. رأتْ تحديقه - وأنا رأيتُها - ونظرَ ثلاثتنا في وقتٍ واحد باتجاه طاولةٍ صغيرةٍ تقعُ بالقرب من مقعد وُضِعَتْ عليها ساعتا يد جنباً إلى جنب.

احمرَّ وجهي:

" انظرْ، ساعتكَ هناك "

ذهبتْ الأمُ لتأخذ أصغرهما وتُحضرها إلى الجندي. تناولها دون أن يتفوَّه بكلمة ووضعها في جيبه.

لم ترَ المرأة النظرةَ التي ألقاها عليها، وأنا نفسي لم أفهم كنهها. قال:

" انتهى كل شيء "

ظننتُ أنَّ كل شيء قد انتهى بالنسبة إليه، وإليَّ، وإلى أم جان. مع ذلك، قلت:

" لا، أبداً، لم ينتهِ شيء "

كان جواباً بيِّناً، لكني لم أكد أفكِّر بما كنتُ أقولُ، بما أني كنتُ أسترجعُ طفولته، أعايشها بدلاً عنه، بإلهامٍ من صورةِ إريك واقفاً بين تضاعيف الستارة. عادَ إلى الجلوس على مقعده، ثم تململَ، ونهضَ،

وجلسَ للمرة الثالثة. كنتُ أعرفُ أنّه يكره جان، الذي لم تكن قسوته تدعُ مجالاً لأمّه لتمارسَ استهتارها. وهذا لا يعني أنّه كان يُدينها، لكنَّ الفتى الذي جابَ أرجاء باريس كلها، حاملاً حقائبَ ملآى بالمسدسات، والمناشير المناوئة للألمان لم يكن لديه وقتٌ للابتسام. وأدركَ أيضاً أنَّ أقلَّ مُقايضة، أقلّ نكتة، يمكن أن تُضعِف موقفه، الذي أراد أن يُبقيه صلباً. بل إني أشكُّ في أنه كان يشعرُ نحوي بأي حب.

على نُضُد الطاولة كان هناك إطارٌ مزخرفٌ بالأزهار وبأوراقٍ صُنِعَتْ من الأصداف يضمُّ صورةً شخصيةً له. وحين ذهبتُ لرؤيته في المشرحة، كنتُ آمل في أن أرى هيكله العظمي المغسول جيداً، والنظيف، والعاري، والأبيض، المؤلّف من عِظامٍ مكشوطةٍ وجافةٍ تماماً، وجمجمةٍ رائعةٍ شكلاً ومادةً، وخاصّةً من مفاصل أصابع صلبة وقاسية، ممدّداً على سريرٍ من الورد والغلاديولا. وكنتُ قد أحضرتُ حِزَماً من الأزهار، لكنها وُضِعَتْ عند قدمي المسند الذي يدعمُ التابوت. كانت مدسوسةً داخل حزمةٍ من القش وشكّلت، مع وريقات شجر السنديان واللبلاب المُضافة، أكاليلَ سخيفة. لقد حصلتُ على قيمةِ ما دفعتُ من نقود، ولكنَّ الحماسَ الذي كان يمكن أن أنثر به الورد كان مفقوداً. كانت بحق الورود التي أردتُ، لأنَّ تويجاتها من الحساسية بحيث تسجّل كلّ حزنٍ ومن ثم تنقُلها إلى الجثة، التي تدرك كل شيء. وأخيراً، هناك وسادة كبيرة من القش، مزخرفة بوريقات الغار، تميلُ على التابوت. أُخرِجَ جان من البراد. غرفة الاستقبال في المشرحة، التي حُوِّلَت إلى كنيسة مُلحقة بها، كانت مزدحمةً بأناسٍ يتمشّون فيها. تمتمتْ أُم جان، الجالسة إلى جواري بخمارها الكريب، تقول لي:

" في السابق كانت جولييت. الآن حان دوري "

قبل ذلك بأربعة شهور كانت جولييت قد فقدَتْ وليداً جديداً، وقد غضبتْ أم جان حين علمتْ أنه أبوه. لعنتهما، بحماقة، وهاهي الآن نفسها طفلة تبكي موت ولدها.

ثم أضافت " لا يكادُ... "

أكملت الجملة بتنهُّد عظيم، وعلى الرغم من أنَّ أفكاري كانت شاردةً بعيداً فهمتُ أنها قصدَتْ بها، " لا يكاد يستحق الأمر أن أتولّى إعداد الجنازة "

لم يمنعني حزني من أن أرى إلى جانبي الشاب الذي قابلتُ واقفاً بجوار الشجرة التي مات عندها جان. كان يرتدي المعطف الجلدي ذا حافّة الفرو نفسه. كنتُ متأكداً من أنه باولو، شقيق جان الذي يكبره سنّاً قليلاً. لم يقُل شيئاً. لم يكن يبكي. كانت ذراعاه تتدليان إلى جنبيه. وحتى لو لم يكن جان قد تحدَّثَ عنه للاحظتُ رداءة طبعه. إنها تُضفي رصانةً هائلةً إلى إيماءاته. وكان يميل إلى حشر يديه في جيبيه. وقفَ في مكانه دون حراك. كان يعزل نفسه داخل لا مبالاته تجاه الشر والتعاسة.

على الرغم من الحشد الغفير ملتُ إلى الأمام لأتأمَّل الفتى الذي أصبح، بمعجزة مدفعٍ رشاش، ذلك الشيء المُرهَف نفسه، شاباً ميتاً. جثة مراهق نفيسة مُكفَّنة بالقماش. وحين مالَ الحشدُ عليه عند حافّة التابوت، رأى وجهاً نحيلاً، شاحباً، مخضراً قليلاً، هو بلا شك وجه الموت ذاته. لكنه شديد الابتذال في جموده حتى إني تساءلتُ لماذا يكون للموتِ، ونجومِ السينما، والعازفين الجوّالين، والملكات في منافيهنَّ، والملوك المُبعَدين، أجسادٌ، ووجوهٌ، وأيدٍ. إنَّ فتْنَتهم تكمنُ في شيءٍ آخرَ

غير السحر الإنساني، وكان في وسع ساره برنار، بدون أن تُبدي حماس الفلاحات وهنَّ يحاولنَ أن يُلقينَ عليها نظرةً خاطفةً أثناء وقوفها على باب القطار، أن تظهر على هيئة علبة كبريت صغيرة. إننا لم نأتِ لنرى وجهاً بل المرحوم جان. د. كنا نأملُ بحماسٍ مُتَّقدٍ في أن يمارسَ حقَّه في أن يظهر على أي هيئةٍ يريد، دون أن يفاجئنا.

قالت " لم يعُد أحدٌ يهتمُّ بالأسلوب هذه الأيام "

رفَعَتْ أم جان، التي كانت ما تزال على جانبٍ وافرٍ من الجمال، خمارَ حِدادها، الثقيل البرّاق، مثل تعريشة داليا مزدهرة. كانت عيناها جافَّتين، غير أنَّ الدموع تركتْ أثرَ حلزونٍ رقيقٍ لمّاعٍ على وجهها القرمزي الممتلئ من عينيها إلى ذقنها. ونظرَتْ إلى خشب التابوت الصنوبري.

أجابتْ المرأةُ المجاورة لها بحزنٍ عميق: " أوه، لا يمكنك أن تتوقَّعي الجودة في هذه الأيام "

نظرَتُ إلى التابوت الضيِّق وإلى وجه جان الرصاصيِّ، المكسو بلحمٍ غائرٍ وباردٍ، ليستْ برودة الموت، بل صقيع البرّاد. عند الغسق مشيتُ، يصحبني نفخُ بوقٍ مكتومٍ، وأنا شبه عارٍ وأعلمُ أني عارٍ تحت بنطالي وتحت قميصي الخشن الأزرق، المفتوح الياقة، والمرفوع الكُمَّين إلى أعلى ذراعيَّ العاريين، مشيتُ بالصندل على الهضاب الهاجعة، على هيئة جوّالٍ بسيط، أضعُ يداً مضمومةً في جيبي والأخرى تعتمدُ على عصا ليِّنة. ووسط فسحةٍ مكشوفةٍ من الأرض قمتُ بشعائرِ الدفن للقمرِ الساطعِ في كبد السماء.

أحضرَ أحدُ المساعدين غطاء التابوت فشعرتُ بالتمزُّق. وثُبِّتَ. بعد تصلُّب الجسد، أصبحَ تجمُّده خفيّاً، لا ينكسر، بل ويمكن إنكاره، وكان

ذلك أولَ انفصالٍ وحشي. كان كريهاً بسبب سخافةِ لوحِ خشب الصنوبر، الهش ولكن المتين تماماً، لوحٌ منافقٌ، خفيفٌ، ذو مسامٌ يمكن لروحٍ أكثر فسقاً من روح جان أن تلغيه، لوحُ خشب مقطوع من أحد الأشجار التي تغطّي سفوحي، أشجارٌ سوداءُ متغطرسةٌ لكنها خائفة من عينيّ الباردتين، من ثباتِ خطوي تحت الأغصان، لأنها الشاهدة على زياراتي للمرتفعات حيث يستقبلني الحب بلا تباهٍ. لقد أخذوا جان مني.

" إنه خالٍ من الذوق "

آلمني أن أرى الفتى يغيبُ مع انتهاء مراسمَ كانت فخامتها الجنائزية الطنّانة تثيرُ السخرية بقدر ما تفعلُ الحميمية. دار الناس حول التابوت وذهبوا. أخذَ مساعدو الحانوتي التابوت، وتبعَتْ العائلةُ المتّشحةُ بالسواد. جمّلَ أحدهم العربةَ بالأكاليل كما تُخَزّن حزَم القش. كلّ حركة جرحتني. جان بحاجةٍ إلى تعويض. قلبي على استعدادٍ ليقدّمَ له الأبّهةَ التي أنكرها عليه الرجال. لاشك في أنّ منبعَ ذلك الشعور كان أعمق من تحدّي الحساسية الضحلة التي تدلُّ عليها تصرفات الرجال. غير أنّ الصداقة لن تشرق داخلي كما يسطعُ نجمُ الموتى ليلاً في السماء إلاّ وأنا أتبعُ التابوت. اقتربتُ من العربةِ ونفحتُ السائقَ عشرينَ فرنكاً. لم يكن هناكَ ما يمنعُ البوحَ الداخلي لصداقتي لجان. كان القمرُ أشدَّ وقاراً في تلك الليلة وكان يرتفعُ ببطءٍ، وينشرَ السلامَ، لكنه ينشر الأسى أيضاً، على أرضي المهجورة. عند أحد التقاطعات، اضطرّت العربةُ إلى التوقُّف لتسمح لقافلةٍ أميركية بالمرور، وسلكتْ شارعاً آخرَ، وفجأةً رحّبَ بي صمتٌ، محصورٌ بين المنازل، بنبالةٍ حسبتُ لجلالها للوهلة الأولى أنّ الموتَ يقفُ عند نهاية الشارع في استقبالي وأنّ خَدَمَه سيُنزلون القدميّة[5]. وضعتُ يدي اليمنى

على صدري، تحت سترتي. وبيَّنَ نبضُ قلبي أنَّ في داخلي قبيلةً ترقصُ على إيقاع قرعِ الطبول. كنتُ جائعاً إلى جان. انعطَفَتْ العربةُ. لاشك في أنَّ حزني من اتِّهام جان لي جعلني أعي صداقتي، وشيئاً فشيئاً انتابني خوفٌ مريعٌ من أنه ما دام لن يكون للصداقة موضوعٌ خارجيٌّ تنتشرُ عليه فقد تستنزفني باتِّقادها وتسبِّبُ موتي. وفكَّرتُ في أنَّ نارها (كانت حواف جفنيَّ قد بدأتْ تلتهبُ) ستوجَّه ضدي أنا الذي يحتوي صورةَ جان ويحتجزها، وستسمحُ لها أن تندمجَ معي في داخلي.

" مسيو! مسيو! هيه! مسيو، من فضلك ابقَ مع الرجال "

طبعاً، يجب أن أبقى مع الرجال. كان مدير الجنازة يرتدي بنطالاً قصيراً، وجورباً أسود، ومعطفاً متَّشحاً بالسواد، وخُفَّاً أسود، ويحملُ عصا ذات رأس عاجيٍّ منضفر بحبلٍ من الحرير الأسود في نهايته شرّابة فضّية. وكان أحدهم يعزفُ على الأرغن.

كان باولو يسيرُ متخشِّباً أمامي. كان جثةً كبيرةً متراصَّة. زواياها تحتكُّ بالفضاء وبزُرقة السماء. رداءةُ طبعه تجعلُ المرءَ يعتقد أنه نبيل. كنت متأكِّداً من أنه لم يشعر بالحزن لموت أَخيه، حتى أنا لم أشعر بحقدٍ لتلك اللامبالاة التي كادت رقّتي أن تتحطَّمُ على صخرتها.

توقَّفَ الموكبُ برهةً، ورأيتُ جانبَ فم باولو. وتأمَّلتُ حول روحه، التي لا يمكن تعريفها بأفضل من إجراءِ المقارنة التالية: إنها أشبهُ بتجويف بندقية[٦]، أي الجدار الداخلي - وليس الجدار نفسه - للبندقية. إنها الشيءُ الذي لم يعُد له وجود ؛ الفراغ البرّاق، الفولاذي، الجليدي الذي يُحدِّدُ عمودَ الهواء وأنبوبَ الفولاذ، والفراغَ والمعدنَ، والأسوأ: الفراغَ وبرودةَ المعدن. كانت روح باولو بيِّنةً على شفتيه المتباعدتين وعينيه الخاويتين.

تحرَّكَ الموكبُ وتابعَ سيرهُ. وتردَّدَ جسد باولو. لقد كان المفجوعَ الأول على أخيه. وأخو الملك كالملك نفسه، وقاد الموكبَ الجنائزي كحصانٍ ذي سرجٍ مزخرفٍ مشحونٍ بأبَّهةٍ من نار، وفضَّة، ومخمل. كانت خطوته وئيدةً ثقيلةً، كأنه إحدى سيدات فرساي في جلالها وانعدام شعورها.

حين أُصيبَ جان بإسهال، قال لي " لقد أُصبتُ بالخبَبْ ". لماذا تذكَّرتُ هذه الكلمة وأنا أُراقبُ وَقارَ الجزء الخلفي من باولو وسكونه، لماذا كان يجب أن أُسمِّي الرقصةَ التي لا تكادُ يُشارُ إليها بالخبب؟

إنَّ الوردَ يكتسبُ ما تتَّصفُ به أوساطٌ معيَّنةٌ من سرعةِ تهيُّج، وجفاف طبعٍ، وحِدَّةٍ مغناطيسيَّة. وهو الذي كان يؤدِّي القداس الفعلي.

أُدخِلَ التابوتُ إلى نعشهِ من خلال فتحةٍ في أحد طرفَيه. هذا العمل المسرحي المثير، هذا التغييب للتابوت عن الأنظار، أمتعني كثيراً. حركاتٌ بلا معانٍ إضافيَّةٍ، بلا امتداد، حركاتٌ فارغةٌ، كانت تعكسُ التوحُّدَ كانعكاسِ الموتِ على الكراسي المُلبَّسةِ بالسواد، وعلى حركةِ نعشِ التابوت الصغيرِ البارعةِ، وعلى الـ Dies Irae (قدّاس يوم الغضب). لقد كان موتُ جان يتضاعفُ في موتٍ آخرَ، يصبحُ مرئياً، ينطبعُ على المزركشات السوداء والقبيحة كتفاصيل مراسم الدفن. بدَتْ لي حركاتٌ سخيفةٌ، لا موجبَ لها على الإطلاق، كإدانةِ إنسانٍ بريء. وأسفتُ بعمقٍ لأنَّ مواكبَ من فتيةٍ وسيمين، عُراةٍ أو بملابسَ داخليّةٍ، متجهِّمين أو ضاحكين - فقد كان من المهمّ أن يغدو موته مناسبةً للَّهو والضحك - لم ترافق جان من فراشِ موته وحتى قبره. كنتُ سأُفضِّلُ أن أُمعِنَ النظرَ في أفخاذهم وأذرعهم وخلفيات أعناقهم، أن أتخيَّلَ أعضاءهم الجنسية المُلبَّدةَ بالشعر من تحت ملابسهم الداخلية الصوفيَّة الزرقاء.

جلستُ. رأيتُ أناساً يركعون. أردتُ بدوري أن أركعَ، ربما بدافع احترامي لجان، ولكي لا ألفتَ الانتباه إليّ وضعتُ يدي آلياً في جيب سترتي فقابلتْ علبةَ الكبريت الصغيرة. كانت فارغةً، وبدلاً من أن أرميها، أعدتُها بلا قصدٍ إلى جيبي.

" في جيبي علبةُ كبريتٍ صغيرة "

كان من الطبيعي بالنسبة إليّ أن أتذكّرَ في تلك اللحظة المقارنةَ التي أجراها أحدُ رفاقي من السجناء حين أخبرني عن الطرود التي كان يُسمَح للنزلاء بتلقّيها:

" يُسمَحُ لكَ بتلقّي طرد واحد في الأسبوع. سواء أكان تابوتاً أم علبة كبريت، الأمرُ سواء. إنه طرد "

لا شك في ذلك. علبةُ كبريت أم تابوت. الأمر سيان. قلت ذلك لنفسي؟ إني أحملُ تابوتاً صغيراً في جيبي "

بينما أنا واقفٌ أستعدُّ للركوع، لابد أنَّ غمامةً مرّتْ أمام الشمس، فأظلمتْ الكنيسةُ منها. هل كان الكاهنُ يُبخِّرُ النعشَ؟ وحالما ركعتُ على ركبتيّ صارَ الأرغن يعزفُ برقّةٍ أكثر، أو هكذا خُيِّلَ إليّ، وأنا أضعُ رأسي بين يديّ. وسرعان ما جعلَتني وضعيتي تلك على اتصالٍ مع الله.

" ربي، ربي، ربي. لقد ذبتُ بفعل نظرتك. أنا طفلٌ مسكين. احمني من الشيطان والله. دعني أنام في ظلّ أشجارك، وأديرتك، وحدائقك، وخلف أسوارك، ربي، لديّ أحزاني، وأنا أُصلّي يائساً، لكنك تعلمُ أنَّ وضعيّتي مؤلمةٌ، والقشُ تركَ علامتَهُ على ركبتيّ... "

فتحَ الكاهنُ المعبدَ، ومشى كلُّ المنادين بستراتهم المخملية القصيرة ذات شعار النبالة، وحاملي الألوية وحاملي الرماح، والخيّالة، والفرسان،

وفرقة الحماية، وشبيبة هتلر ببناطيلهم القصيرة ساروا في موكبٍ إلى غرفةِ نومِ الفوهرر ومنها إلى داخل مسكنه. كان واقفاً بجانب سريره، ووجهه وجسمه في الظلّ ويده الشاحبةُ تتّكئ على الوسادةِ المشوّشة، يراقبهم من أعماق عزلته. كان وضعه كخصيّ يُقصيه عن الكائنات البشرية. أفراحه ليست أفراحنا. ومن باب الاحترام، نُفّذَ العرضُ وسطَ صمتٍ عميقٍ مُخصّصٍ للمريض. حتى وقْعُ خطواتِ الأبطالِ الصلبين ودمدمةِ المدافعِ والدبابات أخمدها السجّاد الصوفي. أحياناً، كان يُسمَعُ حفيفٌ ضعيفٌ لقماشٍ، هو الصوتُ نفسه الذي يصدرُ في الظلام عن القماش القاسي الجافّ لبذلات الجنود الأميركيين حين يتحرّكون بسرعةٍ على نعلهم المطاطيّة.

"... ربي، سامحني. أنت تراني كما أنا : بسيطاً، عارياً، صغيراً "

كنتُ أُصلّي بعفويّةٍ، بقلبي وبشفتيّ. هذا الموقفُ غرّبني عن جان، الذي كنتُ أُظهِرهُ بصورة المتغطرس. وتشبّثتُ بهذه الذريعة ذات الصبغة العاطفية المُرهفة لأتجنّبَ تغضين بنطالي. جلستُ ورحتُ أُفكّرُ في جان بارتياحٍ أكبر بكثير. وتعالى نجمُ صداقتي وأصبحَ أكبرَ وأشدَّ استدارة في سمائي. كنتُ حَبلاً بشعورٍ كان يمكنُ أن يدفعني، بدون أن يثيرَ دهشتي، إلى أن أضعَ مولوداً غريباً ولكنه قابلٌ للحياة وجميلٌ بلا شك، وكونُ جان هو والده يُثبت ذلك. هذا الشعورُ الجديدُ بالصداقةِ كان يتشكّلُ بطريقةٍ شاذة.

قال الكاهن:

"... لقد مات في ساحة الشرف. ماتَ وهو يقاتلُ الغازي... "

سَرَتْ رعشةٌ في كياني جعلتني أُدركُ أنَّ جسدي كان يستشعرُ

صداقةً نحو الكاهن الذي كان يُتيحُ لجان أن يتركني مع ندامات العالمِ كله. ولمّا كان من المستحيل أن أدفنه وحده، في مقبرةٍ خاصةٍ (كان في وسعي أن أحمل جثّته، ولماذا لا تسمح السلطات العامة بذلك؟ كان يمكنني أن أقطّعه في المطبخ وآكله. وطبعاً، سيكونُ هناك الكثيرُ من البقايا: الأمعاء، الكبد، الرئتان، وعلى الأخصّ العينين ذواتي الجفنين المُهدَّبين بالشعر، كلها كنتُ سأجفّفها ثم أحرقها - كان يمكنني حتى أن أمزُجَ الرمادَ مع طعامي - لكنّ اللحمَ يمكن أن يتمثّل في لحمي)، فليرحل إذن بمراسم تشريفٍ رسميّةٍ، وسوفَ يتنقّلُ إليّ تألُّقها وهكذا يخمدُ بصورةٍ ما يأسي.

تَعِبَتْ أزهارُ النعشِ من إراقةِ رونقها، وتدلّتْ أزهارُ الداليا من فرطِ النُعاس. ولدى مغادرتها صالون مراسم الجنازة كانت قد أُتخِمَتْ. كانت ما تزالُ تتجشأً.

وتابعتُ خُطبة الكاهن:

"... هذه التضحيةُ لم تذهب عبثاً. لقد ماتَ جان الفتى فداءً لفرنسا... "

لو قيلَ لي إني برفضي الهتاف "Vive La France" أُعرِّضُ نفسي للموت، لهتفتُ بها لأنجوَ بجلدي، لكني كنتُ سأهتفُ بها بهدوء. ولو اضطُررتُ إلى أن أهتفَ بها بصوتٍ عالٍ لفعلتُ، ولكن وأنا أضحك، بدون إيمانٍ بها. ولو اضطُررتُ إلى الإيمان بها لفعلتُ، وعندئذٍ كنتُ سأموتُ من فوري لشعوري بالعار. ولا يهمّ إنْ كان هذا مردُّه إلى أني طفلٌ منبوذٌ لا يعرفُ أي شيءٍ عن عائلته أو بلده ؛ فالموقف قائمٌ وصلب. ومع ذلك، فمن الجميل أن أعرفَ أنَّ فرنسا تُفوِّضَ اسمها ليُمثِّلها في

جنازة جان. كنتُ مغموراً بترفِ الأمرِ كله وصعدتْ صداقتي إلى رأسي (كالقول: يصعدُ زهر البليحاء إلى رأسي) والصداقةُ، التي لاحظتُ وجودها بحزني لموت جان، أيضاً تتّصفُ بتهوّرِ الحبِ المفاجئ. قلت صداقة. أحياناً أودُّ لو أنها ترحلُ عني ومع ذلك أجدني أرتجفُ خوفاً من أن تفعل. الفرقُ الوحيدُ بينها وبين الحب أنها لا تعرفُ الغيرة. ومع ذلك أشعرُ بقلقٍ مبهمٍ، بندمٍ واهن. إنني أتعذّب. إنه مَولدُ الذاكرة.

الموكبُ - أين كان يمكن لذلك الطفل المغمور أن يعقدَ صداقاتٍ كثيرةٍ؟ - الموكبُ غادرَ الكنيسة.

علبةُ الكبريت التي في جيبي، التابوتُ الصغيرُ الذي يفرضُ حضورَه أكثرَ فأكثر، استبدَّ بي: " كان يمكن لتابوت جان أن يكونَ صغيراً مثلها"

أحملُ تابوتَه في جيبي. لا حاجةَ إلى أن يكون النعشُ الصغيرُ الحجم حقيقياً. لقد كان تابوتُ الجنازة الرسمية يفرضُ سلطته على ذاكَ الشيء الصغير. كنتُ أعدُّ داخل جيبي، على العلبة التي كانت يدي تُداعبها، مراسمَ جنازةٍ مُصغَّرةٍ مؤثِّرةٍ ومعقولةٍ كالقداديس التي يُقالُ إنها تُقامُ على أرواح الموتى، خلفَ المذبح، في كنيسةٍ نائيةٍ، فوقَ تابوتٍ مزيَّفٍ مُجلَّلٍ بالسواد. كانت عُلبتي مقدَّسة، لا تحتوي فقط على جُسيم جثّة جان بل على جان بأكمله. كانت عظامه بحجمِ عيدان الكبريت، بحجمِ حَصَى منمنمة مسجونة داخلَ صافرات[7] ؛ جثته تشبه إلى حدٍّ ما الدُمى الشمعيّة المكسوّة بالقماش التي يُلقي المشعوذون تعاويذهم بواسطتها ؛ وكاملُ جاذبيّة المراسم متمركزاً داخل جيبي، التي انتقلَ كل شيءٍ إليها. ولكن يجب ملاحظةُ أنَّ الجيبَ لم تكن له أي صِبغة دينيّة، أما قداسة العلبة فلم تمنعني قط من أن أُعاملَ ذلك الشيء بأُلفةٍ، ومن

أنْ أدلّكه بأصابعي، فيما عدا أنَّ بصري تركّزَ مرةً واحدةً، بينما كنتُ أتحدَّثُ إلى إريك، على فتحةِ بنطاله، المستقرَّة على الكرسي مع ثقلِ رُزمةِ الأزياء الفلورنسية التي تحتوي الخصيتين، وحرّرَتْ يدي علبةَ الكبريت وغادرتْ جيبي.

كانت أُم جان قد خرجتْ من الغرفة. أنزلتُ ساقاً عن ساقٍ ثم عدتُ فرفعتُها إلى الوضع المقابل. كنتُ أنظرُ إلى جذع إريك، الذي كان يميلُ قليلاً إلى الأمام.

قلتُ " لابد أنك اشتققتَ إلى برلين "

وببطءٍ شديدٍ، ويتفكّرٍ، وهو يبحثُ عن الكلمات، أجاب:

" ولمَ؟ سأعودُ بعد الحرب "

قدَّمَ لي واحدةً من سجائره الأميركية التي لابد أنَّ خادمته أو عشيقته قد خرجتْ لتشتريها له، بما أنَّه لم يكن يغادرُ الشقَّةَ الصغيرةَ بتاتاً. أعطيته شُعلة. نهضَ واقفاً، ليس باستقامةٍ ولكن بميلٍ قليلٍ إلى الأمام، بحيث أنه اضطرَّ بنهوضه إلى أن يرمي جذعه إلى الخلف. الحركةُ قوَّست جسمَه كله وجعلتْ سلّة حوضه تبرزُ من تحت قماشِ بنطاله. في تلك اللحظة، على الرغم من توحُّده، ووقوعه في الأَسر الحزين، الرقيق بين النساء، كان يتّصِفُ بنبالةِ حيوانٍ كاملٍ يحملُ حمولته بين ساقيه.

" لابد أنَّكَ ضَجِر "

تبادلنا الحديث حولَ أشياءَ تافهةٍ أخرى. كان يمكن أن أكرهه، لكنَّ حزنه جعلني فجأةً أؤمنُ برقّته. كانت تخطُّ وجهَهُ قليلاً تجاعيدُ رفيعةٌ جداً، تليقُ بالشُقرِ ذوي الخمسة والعشرين ربيعاً. بدا فائقَ الوسامةِ، قوياً جداً، وحزنه ذاته عبَّرَ عن فسقِ كاملِ جسدِ هذا الحيوان الجامح الذي كان يبلغ مرحلةَ النُضج.

تكلَّمَ معي بصوتٍ شديدِ الخفوت. لعلَّه خاف أن أفشي أمرَه إلى الشرطة. تساءلتُ إنْ كان يحملُ مسدساً. استجوبتْ عيناي بنطاله القطني الأزرق بنظراتٍ مختلسةٍ، توقَّفتْ عندَ كلِّ حجمٍ مريب. وعلى الرغم من أني تعمَّدتُ أن يكونَ تحديقي خفيفاً، فلابدَّ أنه جثمَ على فتحة بنطاله، ذلك أنَّ إريك رسمَ، إذا حقَّ لي هذا التعبير، ابتسامته المعتادة. احمرَّ وجهي وأشحتُ ببصري، محاولاً أن أحجبَ احمرار وجهي بنفخِ سحابةٍ من الدخان. انتهزَ هو هذه الفرصةَ ليضعَ ساقاً فوق ساقٍ ويقولُ بنبرةٍ عَرَضيَّة:

" جان كان صغيراً جداً... "

لَفَظها " دجآن "، مُخرِجاً الـ " آن " باقتضابٍ شديد.

لم أُجِبْ. قال " ولكن، أنتَ أيضاً تُدعى جان "

" نعم "

كنتُ أُفكِّرُ في سرير لويس الخامس عشر الثقيل، الفسيح، الدافئ، المُجلَّل بالتخريم الفينيسيِّ الإبريِّ الذي عليه كانت أم جان تلتحمُ بإريك ليلاً وأثناء النهار بدون شك، بثوبِ النوم أو عارية. كان السريرُ حياً وسطَ ظُلمةِ غرفةِ النوم، يُطلقُ أشعته، التي وصلتني رغماً عن الجدران. كان من المؤكَّد أنه في يومٍ من الأيام سيعصرني فخذا إريك وفخذا باولو هناك، وهما ذاتهما تلتحمُ بطناهما ببطن الخادمة والأم، في غرفةٍ تُخيِّمُ عليها ذكرى جان.

لدى انتهاء زيارتي الرابعة، رافقني إريك وحده إلى ممر المدخل. كان الوقتُ متأخِّراً، والظلامُ يسود. كان الممرُّ ضيقاً جداً، فضغَطَ جسمَهُ على ظهري، وأحسستُ بأنفاسه عند أسفل عُنقي، ثم اقتربَ أكثر من أُذُني، وتمتمَ:

" أراكَ غداً في التاسعة يا جان "

أمسكَ بيدي وأصرَّ: " في التاسعة، اتفقنا! "

" نعم "

إيماءةُ الدهشة التي كانت قد ندَّتْ عنه لدى إدراكه أنَّ الاسمَين متشابهان جعلَ البنطال يشدُّ ويضيقُ على الردفين ويُبرزهما. وأثارتني حدود العضلات. حاولتُ أن أتخيَّلَ طبيعةَ علاقته بجان، الذي كان يكرهه ويبادله الأولُ الكراهية. لعلَّ قوةَ إريك مَكَّنتهُ من أن يبدو معتدلاً جداً في تنمُّره على الفتى. نظرت إلى عينيه وألَّفْتُ في ذهني الجملةَ التالية:

" شموسٌ كثيرةٌ تقلَّبَتْ تحت يديه، وفي عينيه... "

حين غادرتُ الشقّةَ بعد لقائنا الأول، حاولتُ أن أستعرضَ مسارَ حياته وتسلَّلتُ إلى داخل زيِّه العسكري، وحذائه العسكري، وجلده، بحثاً عن فعاليّة أعظم. تغلغلتُ وأنا ثملٌ برؤيا ضبابيّةً قليلاً لزنجي شاب طويل القامة يظهرُ من خلفِ نافذةِ مقهى في بوليفار دو لا فاييت، يميلُ على صندوق الموسيقى ويصغي إلى إيقاع الجافا والفالسات الشعبية، أقولُ تغلغلتُ في ماضيه، أولاً برفقٍ وبتردُّدٍ، متلمِّساً طريقي، فإذا بحديدِ مقدَّمةِ إحدى فردتيَّ حذائي ترتطمُ عَرَضاً بحاجزِ الرصيف الحجريّ. اهتزَّتْ ربلة ساقي، ومن ثم كامل جسمي. رفعتُ رأسي وأخرجتُ يدي من جيبي، وانتعلتُ الجزمةَ الألمانية.

كان الضبابُ كثيفاً وشديدَ البياضِ حتى كادَ يُضيءُ الحديقةَ. وبوغتت الأشجار. أسرَتْ، وهي ساكنةٌ، منتبهةٌ، شاحبةُ اللون، وعاريةٌ، بشبكةٍ من الشَعْر أو بأنغام القيثارات. منحتني رائحةُ التُربة وأوراقَ الأشجار الميتة سبباً لأعتقدَ أنه لم يَضِعْ كل شيء. سوف يشهدُ النهارُ

ملكوتَ الله. رفرفَتْ بجعةٌ بجناحيها فوق البحيرة. كنتُ في الثامنة عشرة، نازيّاً فتياً يقومُ بأداءِ واجبهِ في الحديقة العامة، حيث كنتُ أجلسُ عند قاعدة إحدى الأشجار. ولما كان مقعد بنطال الركوب القصير (فقد كنتُ أستعدُّ للالتحاق بسلاح المدفعيّة) من الجلد، لم آبه برطوبةِ العشب. وبعيداً عني، خلفي، مرّتْ سيارةٌ من شارعِ النصر مُطفَأةَ الأنوار، مكتومة الضجيج. كانت الساعةُ توشكُ أن تدقَّ الخامسة. وهممتُ بالنهوض. وإذا برجلٍ يتقدَّمُ نحوي. كان يمشي على العُشب، متجاهلاً ممرَّ المشاة. يداه في جيبيه. كان ضخمَ الجثةِ لكنه خفيف الخُطى، لأنَّ شكله لم يكن دقيقاً. بدا أشبه بصفصافةٍ تمشي على قدمين، وكل جدعةٍ فيها خفَّتْ ورقَّتْ بتويجٍ الأغصان الغضَّة. كان يحملُ مسدساً. منعتني قوةٌ ما من النهوض. كان قد اقتربَ كثيراً. كان ضيِّقَ الجبهة، مفلطحَ الأنف والوجه كله، لكن تقاطيعه صارمة، كأنما طُرِقَتْ بمطرقة. كان يتجاوز الخامسة والثلاثين، وله وجهٌ بهيميّ. وحين اقتربَ من الشجرة التي أجلسُ تحتها، رفعَ رأسه.

قلتُ في نفسي " لماذا يسيرُ هذا الرجلُ على عشب المرج؟ "

قال الرجلُ في نفسه، يعنيني، " ما كان ينبغي أن يكون هناك؛ لقد تجاوز الحدود "

كان يدخِّنُ. ولما رآني شدَّ قامته ونفخَ صدرَه بحركةٍ قويةٍ هادئةٍ من كتفيه. وأدركَ أني أحدُ أفراد شبيبة هتلر.

" سوفَ تُصابُ بالبرد "

" لديَّ نوبة حراسة "

" وماذا تحرس؟ "

" لا شيء "

ارتاحَ الرجلُ لهذا الجواب. لم يكن حزيناً، وإنما لا مبالياً أو كان مهتماً بأمورٍ أخرى غير التي بدا مشغولاً بها. كنتُ أراقبه. وعلى الرغم من كونه شديدَ القرب مني، إلا أني لم أتمكّن من رؤيته بوضوح.

" خُذ "

أخرجَ سيجارةً من جيبِ بنطاله وأعطانيها. خلعتُ قفازي، وتناولتُها ونهضتُ لكي أُشعلها من سيجارته. لم أكن أشدَّ قوةً وأنا واقفٌ مني وأنا جالس. كان مجرَّد حجم الرجل جديراً بسحقي. أدركتُ أنَّ تحتَ ثيابه، تحتَ قميصه المفتوح، مجموعةً رائعةً من العضلات. وعلى الرغم من حجمهِ وشكله كان الضبابُ يجعله يبدو أثيرياً، وكانت حدود شكله غير واضحة. وأيضاً كأنما الضبابُ يجعله ينبعثُ بانتظامٍ من جسمه ذي القوة الخارقة، جسدٌ قوي يفيضُ بحياةٍ وهّاجة حتى إن الاحتراق كان يجعلُ ذاك الدخانَ الأبيضَ الراكدَ، الكثيفَ، ولكن الوضّاء، ينزُّ من مسامّه كلها. ووقعتُ في الفخ. لم أجرؤ على النظرِ إليه. كانت ألمانيا، المصعوقةَ الدائخة، لا تكادُ تستطيعُ أن تصحو من النعاس العميق والغنيّ، من الدوارِ والاختناقِ الخصبَين بالمعجزات الجديدة التي أغرقَتها فيها العطورُ والمفاتنُ التي كان ذاك الجرو الغريبُ ذو الشعر المجعَّد، الدكتور ماغنوس هيرشفيلد، يُطلقها ببطءٍ وكثافة.

في مثلّث فتحة القميص، وسطَ كثّة الشعرِ الشبيهةِ بالجُزَّة التي تكسو جسمه كله، رأيتُ ميداليّةً ذهبيةً صغيرةً، مستكينةً، دافئةً، تُعانقُ تلك الجُزَّةَ الصوفيّة، العَبِقَةَ بأريجِ تحت الإبطَين، مثل تمثالٍ جصّيّ ليسوع وسط القش والتبن دائخ من عبق روث الثور والحمار. وارتجفتُ.

" أتشعرُ بالبرد ؟ "

" نعم "

قال الجلاّد وهو يضحكُ إنّ لديه من الحرارة أكثر مما يحتاج، ثم جذبني نحوه، وكأنه ينوي أن يعبثَ، وأحاطني بذراعيه. لم أجرؤ على الإتيان بحركة. رفّتْ قليلاً رموشي الطويلة الخفيفة حين أمسك القاتلُ بي وراح ينظرُ إليّ من مسافةٍ أقرب. كدّرت ارتعاشةٌ صغيرةٌ الجزءَ الأشدَ حساسيةٍ من الوجه عند المراهقين: السطحَ المنتفخَ حول الفم، في المنطقة التي ستتغطى بالشارب: رأى الجلاّدُ الارتعاشَ، فاستثيرَ برفيفِ الفتى الخائف، وحَضَنَه برقّة أشدّ، ورقّقَ ابتسامته وقال:

" ماذا حدث؟ أأنتَ خائف؟ "

كنتُ ألبسُ ساعةَ يدٍ كنتُ قد سرقتُها قبلها بيومٍ من أحد الفتيان الآخرين. فهل كنتُ خائفاً؟ لماذا سألني ذلك السؤال مباشرةً؟

وبدافعٍ من رهافتي أكثر منه بسبب الكبرياء كدتُ أُجيبُ بلا، لكني أردتُ فوراً، وأنا واثقٌ من سيطرتي على الوحش، أن أكونَ خسيساً فقلتُ: نعم.

" ألم تعرفني؟ "

" لماذا ؟ "

دُهشَ لدى سماعه تبدُّلات متردِّدة قليلاً في صوته لم يكن يعي وجودها وأدركَ أيضاً، أحياناً، وتحت ضغطِ قلقٍ أكبر، وجودَ ارتعاشٍ خفيفٍ يسيطرُ على بضع نبرات عاليةٍ كثيراً بالنسبةِ إلى جرسِ صوته المعتاد.

أبقيتُ شفتيَّ منفرجتين. كنتُ ما أزالُ بين أحضان ذاك الشخص الذي لا يعرفُ الاستسلام، صاحب الوجه المبتسم والمسلّح بالسيجار المتوهج والمهيمن على وجهي.

كنتُ قد تعرّفتُ إليه. ولم أجرؤ على التصريح بذلك. وأجبت:

" حان الوقت لأعودَ إلى الثكنة "

" هل خفتَ لأني الجلأد ؟ "

حتى ذلك الحين كان يتكلّم بصوتٍ عميقٍ، يتلاءمُ مع ضبابيّة الأشياء أو ربما لأنه كان يخشى أن يكونَ ثمة خطرٌ مستترٌ خلف الضباب، لكنه حين نطقَ تلك الكلمات ضحكَ بعنفٍ شديد وجلاءٍ حتى إنَّ الأشجارَ المراقبَةَ وقفَتْ في وضعِ انتباه وسطَ السطام وسجّلتْ الضحكة. ولم أجرؤ على التحرُّك. نظرتُ إليه. استنشقتُ الدخانَ، وأخرجتُ السيجارةَ من فمي وقلت:

" لا "

لكنَّ إجابتي بـ " لا " أفشَتْ خوفي.

" لا ، أنتَ تعني ما تقول، لا أظنكَ خائفاً؟ "

وبدلَ أن أكرِّر كلمة لا ، هززتُ رأسي وأسقطتُ، وأنا أربتُ بخفّةٍ مرتين على السيجارة بإبهامي، قطعةً صغيرة من الرماد على حذائه. الطابع العَرَضي لهاتين الإيماءتين منحَ الفتى إحساساً كبيراً بالانفصال، واللامبالاة، حتى إنَّ الجلاد شعرَ بالمذلّةِ، وكأني لم أتنازل حتى برؤيته. شدَّ احتضانه لي، وهو يضحك، متظاهراً بأنه أرادَ أن يُخيفني.

" لا ؟ "

حدَّقَ إلى عينيَّ واخترقهما. ونفخَ الدخانَ في وجهي.

" لا ؟ أنتَ واثق؟ "

" طبعاً واثق، لماذا ؟ ". ولكي أهدِّئ من نفس الجلاد أضفتُ " أنا لم أُسبِّب أي أذى "، وكانت الساعةُ المسروقةُ على رسغي تؤكِّدُ قلقي.

كان الجو بارداً، والرطوبةُ تخترقُ ملابسنا، والضبابُ كثيفاً. كنا كأننا وحدنا ؛ رمزَين بلا ماضٍ ولا مستقبل، مؤلِّفَين ببساطة من دورَينا المحترمَين كعضوٍ في شبيبة هتلر وجلاد، ومُتَّحدَين معاً ليس بسلسلةٍ من الأحداث وإنما بتمثيلِ دورِ المجّانيّةِ الجادّة، مجّانية الحقيقة الشعرية القائلة: " كنا هناك، وسط ضباب العالم "

مشى الجلاّد معي، وهو ما يزالُ يمسك بي من رسغي، بضع خطوات انحدرنا إلى ممرّ ثم انتقلنا إلى مرج آخر لنصلَ إلى مجموعةٍ من الأشجارِ كوّنتْ بقعةً مظلمةً في قلبِ الفجر الشاحب. كان يمكن أن أكرِّر القول إنَّ واجبي يُلزمني بالبقاء عند ممر المُشاة، وإنَّ كلَّ ما أردته هو أن أُدخِّن سيجارة. ولم أقُل شيئاً. لكن صدري ضاقَ من الخوفِ وامتلأ بالأمل. لقد كنتُ أنَّةً طويلةً، صامتة.

" ماذا سيتولَّد عن ممارستنا الحب؟ ماذا يمكن أن يتولَّد عنها ؟ "

حتى ذلك الحين لم أكُن قد تعرَّفتُ إلا على بعض العَبَث غير المثير مع صديقٍ كان فتياً جداً. أما اليوم فكنتُ أنا مَنْ قادَهُ شخصٌ يتجاوز الثلاثين، وقاطع رؤوس، وبإلحاحٍ، إلى الحب، في الساعة التي يتلقّى فيها المرءُ ضربةَ فأسٍ، في عزلةٍ بين مجموعةٍ من الأشجار، قرب بحيرة.

كان الجلاد البرليني يفوق الستة أقدام طولاً. بُنيَتُهُ العضليّة كانت خليقةً بجلاّدٍ يقطعُ الرؤوسَ على كتلةٍ خشبيّةٍ بفأسٍ. شعره البني كان مقصوصاً قصيراً جداً، حتى إنَّ رأسه الكامل الاستدارة كان أشبه برأسٍ مقطوع. كان حزيناً على الرغم من ابتسامته، التي كان مُنتَظَراً أن تُشجِّعني وتروِّضني. كان حزنه عميقاً، منبعُهُ أعمقُ من منبع مهنته، كان، في الحقيقة، كامناً في قوته ذاتها. كان يعيشُ وحيداً في شقةٍ

مريحةٍ مؤثَّثةٍ بأسلوبٍ ينمُّ عن ذوقٍ، تشبه أي شقةٍ بورجوازيةٍ أخرى في برلين. في كل صباح تأتي امرأةٌ عجوزٌ لتقومَ بالتنظيف ثم تغادر على عجَل. كان يأكلُ في المطعم. وفي الأيام التي يكون فيها عدةُ أحكامٍ بالإعدام لم يكن يأتي إلى البيت في المساء، بل يبقى في الملهى الليلي حتى انبلاج الفجر، ثم يتجوَّلُ وقتَ الفجر وسقوط الندى خلال أزقّةِ ومروجِ تيير غارتن. في اليوم الذي سبَقَ مقابلته لإريك واقتياده تحت أغصان شجرة تنوب مرصَّعة بالجواهر، كان قد فصَلَ رأسَ قاتلٍ عن جسده. كان وجهانا يمزّقان شبكةَ عنكبوتٍ طافية.

والآن وأنا جالسٌ قبالة إريك وأرى جمالَ ردفيه والتحرُّق الأنيق لحركاته، لم يكن فقط جلياً بالنسبة إليَّ أنه خاضَ تجربته، وإنما، أيضاً، أنها تناسبه بشكلٍ تامّ حتى إني شعرتُ بما يشبه السكينة، الرضا العميق لأني موجودٌ عند انكشاف حقيقةٍ ما. لكنَّ هجري لجان، أو بالأحرى تقديم هذا المعروف إلى أعدائه، عذَّبَ عقلي برقَّةٍ، وشقَّ الندمُ طريقه فيه وراح يطحنُ، وإنْ برفقٍ متناهٍ، مع بعض التواءاتٍ رقيقة. كنتُ أعرفُ أنه يجب ألاّ أتخلّى عن الفتى الذي لم تجد روحه الراحةَ بعد. كان يجب أن أساعده. لعلَّ بعض الآفات الجنسية التي التقطها من إحدى العاهرات ما تزال عالقةً بي. كنتُ واثقاً من أنَّ الحشرات كانت تتغذّى من جسده، إنْ لم تكن كلها فواحدة على الأقلّ اجتاحتْ فراخُها عانتي بمستعمرةٍ تحفرُ، تتكاثرُ، ثم تموتُ في تضاعيف صَفَن خصيتيّ. وقد سهرتُ على أن تبقى هناك وفي الجوار. وأسعدني أن أعتقدَ أنها احتفظتْ بذكرى غامضة لذلك المكان ذاته على جسد جان، الذي امتصَّتْ دمه. كانت ناسكات دقيقات، سرِّيات واجبُها أن تُبقي في تلك الأحراج ذكرى الضحية الفتية

حيّةً. إنها بحقّ البقايا الحيّة لصديقي. اعتنيتُ بها بين ظفري وجلدي: أتفحّصها عن قرب برهةً، بفضولٍ ورقّةٍ، ومن ثم أُعيدُها إلى عانتي المجعّدة الشعر. لعلّ أخواتها ما يزلن يعشنَ في شعر جان. فالمشرحة تحتفظُ بالجثث زمناً طويلاً. ففيها مُعدَّاتٍ وبرّادات. وعلى الرغم من أنّ جان قُتِلَ في اليوم التاسع عشر، إلا أننا لم نعلم بموته إلا في التاسع والعشرين من آب. ودُفِنَ في الثالث من أيلول. وأُبلِغْتُ ببعض ظروف موتهِ من قِبَل رفاقه في الحزب الشيوعي، الذين أخبروني أيضاً بمكانِ مقتله. وأجبرني القلقُ على التوجُّه إلى هناك. وبعد ظهيرة أول يوم من أيلول توجَّهت إلى بلفيل ومن ثم إلى مينيلمونتان، وكنت قد نسيتُ موقعهما معاً. كانت حرارة الصراع ما تزال بادية على وجوه الناس، ولكن خلال الأيام القليلة التي انصرمَتْ كانوا قد فقدوا حماستهم، وأخذ إيمانهم يتراخى. كان الجوّ حاراً. وعلى الرغم من أني أبقيتُ عينيَّ منخفضتَين، إلا أني استطعتُ أن أرى المحلات المفتوحة، حيثُ السلالُ المجدولة والكراسي، والحُصُر كانت منضفرة في السماء، وكان الناسُ يأكلونَ الفاكهة في الشارع، والعمالُ يدخِّنونَ السجائرَ المصنوعة من تبغ فيرجينيا. لا أحدٌ كان يعرفُ بأمرِ رحلة حجّي. احتقَنَتْ زفرةٌ هائلةٌ في صدري واختنقتْ في حنجرتي وكادتْ تتسبَّبُ في موتي. كنتُ أسيرُ على الجانب المشمس من الشارع، وسألتُ فتاةً:

" أهذه هي الطريقُ المؤدِّيةُ إلى جادةّ مينيلمونتان؟ "

بدَتْ غير مدركة لما أنا فيه من أسى، والنظرةُ المنقبضةُ على وجهي لم تستطع أن تُنبئها عن مُسبِّبها. ومع ذلك لم يظهر عليها أنها صُدِمَتْ لأني لم أُخاطبها بلهجةٍ أكثر تهذيباً. أما أنا، فشعرتُ بأني مؤهَّلٌ لفعلِ

أي شيء. كان الناسُ، حتى أولئك الذين لا يعرفونني، يدينون لي بأعظم احترام، لأني في داخلي كنتُ في حِداد ٍ على جان. ومع أني طالما قبلتُ ارتداءَ ثوب الأراملِ الغارقات في الحِداد، إلا أنَّ اختصارَه إلى منزِلَة الرمز، إلى عُصابةِ الذراع السوداء، وشريطِ الكريب على طيَّةِ صدرِ السترةِ، والعقدةِ السوداء على حافة قبعات العمال، هذه كلها بدت لي في السابق أشياءَ سخيفة. وفجأةً أدركتُ ضرورتها: إنها تنصحُ الناسَ بالاقتراب منك بشيءٍ من المراعاة، لأن يكونوا لبقين معك، لأنكَ مُستأمَنٌ على ذكرى مقدَّسة.

"... إنه تقريباً عند زاوية شارع بلفيل، قبالة رقم ٦٤، أو ٦٦، أو ٦٨. أعرفُ ذلك من أحد المنتمين إلى الحزب. سوف ترى محلاً لبيع المعلَّبات"

لم أكن أعرفُ نكهة اللحم الإنساني، لكني كنت واثقاً من أنَّ كل أنواع السجق وحشوة اللحم سوف يكون لها مذاق لحم جثة. إني أعيشُ في عزلةٍ ويأسٍ مخيفَين، في مجتمعٍ شَرِه يحمي عائلةً من صُنَّاع السجق المجرمين (الأب، والأم، وربما ثلاثة أطفالٍ)، وفارِمي الجثث الذين يطعمون فرنسا كلها بلحمِ جثثِ الفتيان ويختبئون في خلفيةِ دكانٍ في جادّة بارمانتييه. تقدَّمتُ من شارعٍ فرعي إلى اليسار، حيث الأرقام المفردة. ووصلتُ إلى رقم ٢٣. حان وقت العبور. انعطفتُ نحو المجرور الفارغ، نهر الأضواء الخطرة ذاك الذي يفصلُني عن الجحيم، وتهيَّأتُ لمغادرةِ الضفَّة، محمَّلاً، مُثقلاً بأشدِّ الآلام إيلاماً، خائفاً لأني وحيدٌ وسط المارين من أمام مسرحٍ خفيٍّ حيث خَطَفَ الموتُ جان، حيث نُفِّذَتْ الدراما - أو اللغز - والتي لم أعرفُ نتيجتها إلا من خلال إنكارها. لقد كان

ألمي عظيماً حتى إنه سعى إلى الفرار على شكل إيماءات نيرانية: تقبيلُ خصلةِ شعرٍ، البكاءُ على صدرٍ، احتضانُ صورةٍ، معانقةُ عنقٍ، نزعُ عشبٍ، الاستلقاءُ في المكان والاستغراق في النومِ في الظل، في الشمس، أو في المطر، ورأسي على ذراعي المطويّة. أيُّ إيماءة سأقوم بها؟ ماذا بقيَ لي من إشاراتٍ أؤديها؟ أرسلتُ بصري إلى الطرف الآخر للشارع. أولاً رأيتُ قبالتي مباشرة فتاة صغيرةٍ في نحو العاشرة كانت تمشي مسرعةً وتقبضُ على باقةٍ يابسةٍ من القرنفل الأبيض بيدها الصغيرة. نَزَلتْ عن الرصيف، وإذا بسيارةٍ تمرُّ على الطرف الآخر، على مسافةٍ قصيرةٍ أعلى الشارع، ويظهرُ فجأةً بعدها بحّارٌ فرنسيٌّ مَيَّزْتُهُ من باقته البيضاء. مال على أسفل شجرةٍ كان عددٌ من الناسِ واقفين عندها ينظرون. حركةُ البحّار الغريبة، التي تزامنتْ مع مرور الفتاةِ، جعلَتْ قلبي يخفقُ بقوة. وحين وصلتُ إلى منتصف المجرور، بتُّ أرى بشكلٍ أفضل: هناك عند أسفل الشجرة أزهارٌ داخل عُلَبٍ من القصدير. كان البحّارُ قد استقامَ ولم يعُد بحاراً. كان عليَّ أن أبذلَ مجهوداً كي أنظرَ إلى رقم المنزل المقابل: ٥٢. ما زال يحدوني أمل: لعلَّ شخصاً آخرَ قد قُتِلَ هناك، في وقتِ مقتله نفسه. وضعتُ يديَّ في جيبيّ. يجب ألاّ يُظَنَ أنه يمكنني أن أكونَ مُشاركاً في هذه التَقْدمة المبتذلة المخيفة. وعلى الرغم من أنَّ الأزهار بدت نضرةً عن بُعدٍ وشكَّلَت ما يشبه المذبح، ظهرَتْ كلها تقريباً عن قُرب ذابلة. كنتُ في قلب الصين، في اليابان، حيث يُشَرِّفُ الموتى في الشوارع، على الطرقات، على سفوح البراكين، على شواطئ الأنهار والبحر. رأيتُ بقعةً كبيرةً رطبةً وأدركتُ على الفور أنَّ الماءَ يتدفَّقُ من الأزهار. مع ذلك، لم أستطع منع نفسي من التفكير في كل

الدماء التي فقدَها جان. دماءٌ كثيرة. ألمْ تجفّ منذ وفاته؟ فكرةٌ بلهاء. هاك أخرى: إنه بوله. أم لعلّ البحّار تبوّلَ عند الشجرة. بول جان! لا شيء يستدعي الضحك. أيكون قد مات من شدّة الرعب؟ لا، أبداً، أحياناً يفقدُ المرءُ بوله. لا، ليس الأمر كذلك. هناك ثقوبٌ في العُلَب. واجهةُ المحل البيضاء... " ديليكا... آه، يا إلهي! "

نظرتُ أولاً إلى البحّار القوي يبتسم بابتهاج وهو ينشرُ بوله، وشَمَلَتْ عيني المجموعة كلها: الشجرة، الأزهار، الناس. كان البحّار شاباً من الواضح أنه يعمل تحت الأرض. كان وجهه متورّداً: شعرٌ بني، على الرغم من أنّ الشمس غيّرتْ لونه. أنفٌ مستقيم، عينان قاسيتان. ولكي يضع يديه في جيبيه دفعَ طرفيّ معطف جلدي، من قماش ماكيناو، ضلّلتني ياقتهُ الفرو البيضاء - لعلها من جلد الخروف - لأني حسبتُها ياقةً خفيفةً لبحّار. كانت الفتاة الصغيرة ما تزال تجلس القرفصاء أمام الشجرة، وهي تضعُ قرنفلاتها البيضاء في علبة عليها ورقةٌ حمراء وخضراء كُتِبَتْ عليها كلمةُ " بازلاء " بالحروف السوداء. حاولتُ أن أُميِّز وجهها، لكني حتماً لم أكن قد رأيتها من قبل. كانت وحدها. لعلّها تتظاهرُ بأنها تضعُ زهوراً على قبر. كانت قد وجدتْ ذريعةً لتؤدّي في حضور الجميع شعائرَ سرّية لعبادة الطبيعة وعبادة آلهة دائماً تكتشفها الطفولة، لكنها تؤدّى سراً. كنتُ هناك. أية إيماءات يجب أن أؤدي؟ وددتُ لو أتّكئ على ذراع المصارع الضخم القادم من تحت الأرض. هل تَعقِدُ الشجرةُ زيجات، أم لعلها تُسجِّل أفعال الزنا: جذعها مُطوّق بشريطٍ رسميّ ثلاثي الألوان. تحتوي الشجرةُ على روح جان، التي التجأتْ إليها حين ثقَبَتْ طلقاتٌ من مسدس رشاش جسَدَه الرائع. لو

أقتربُ من صاحب معطف الماكيناو، فسوف يجعلُ الغضبُ الشجرةَ البسيطةَ تهزُّ مجموع أوراقها حنقاً. لم أجرؤ على التفكير في أي إنسان غير جان. كنتُ وسطَ ضوءٍ قاسٍ، تُحدِّقُ إليَّ الأشياءُ تحديقاً لا يعرفُ الرحمة. فبما أنها تعرفُ كيف تقرأ كل إشارة، كل فكرة سرِّية، فسوفَ تدينني إذا كانتْ لديَّ أدنى نيّة للإدِّعاء. ومع ذلك كنتُ بحاجةٍ إلى الحب. ماذا أفعل؟ بأية إيماءةٍ أقوم؟ ثمة قدْرٌ رهيبٌ من الألم المكبوت داخلي. لو أفتحُ منفذاً رفيعاً واحداً فسوف يندفعُ الطوفانُ إلى إيماءاتي ولا يمكن التكهُّن بما قد يحدث. صلبانُ لورين، وعقْدُ شرائط ثلاثية الألوان، وبضعة أعلام ورَقيّة مُلصَقَة على جذع الشجرة حول صفيحةٍ من ورق الرسائل المُسطَّر مثبَّتة على اللحاء. على ورقة الرسائل كتب، بيدٍ بدائيةِ الخط، ما يلي: " هنا سقَطَ فتى وطني. أيها الباريسيون النبلاء، ضعوا زهوراً وقِفوا برهةً في صمت ". ربما لم يكن هو؟ لا أعرف بعد. ولكن أي أبله كتبَ كلمة " فتى "؟ فتى. انسحبتُ من مسرح الدراما وابتعدتُ قدر ما استطعتُ. ولكي أبكي هبطتُ إلى عالم الموتى أنفسهم، إلى غُرَفهم السرّية، تقودني أيدٍ خفيّةٍ لكنها ناعمةٌ لعصافير على دَرَج سلَّم كان ينطوي كلما تقدَّمتْ. وفي حقول الموت الأليفة نشرتُ حزني، بعيداً عن الناس: في داخلي. لم يكن من الممكن لأحد أن يفاجئني وأنا أقومُ بإيماءات بلهاء، لقد كنتُ في مكانٍ آخر. كلمة " فتى " كانت مكتوبةً بالحبر الأسود، ولكن بدا لي أن يقيني من موت جان يجب ألاّ يقوم على أساس كلمةٍ يمكن مَحوها.

" وماذا لو محوتها؟ ". أدركتُ على الفور أنهم لن يسمحوا لي. حتى أقلَّهم قسوة في القلب كان سيمنعني من إيقاف سير القَدَر، لأني

بذلك سأحرمهم من شخصٍ ميت، وفوق ذلك كله من ميِّتٍ كان عزيزاً عليهم لأنه ميِّت. وفكَّرتُ في المحاة. التي أحملها في جيبي كانت ممحاةً لقلم رصاص. وما كنت أحتاجُ إليه هو ممحاة أقسى، ومبرغلة أكثر، ممحاة للحبر. لا. سوف يصفعني الناس. يجب ألاّ تُمحى الأجسادُ بممحاة.

سوف يقولون " إنه من البوخ! خنزير! جرذ! خائن! هو الذي قتله! ". سوف يعدمني الرعاع دون محاكمة. الفتاة الصغيرة التي كانت تجلس القرفصاء نهضتْ واقفةً وذهبتْ، ربما إلى بيتها الذي يبعدُ عشرين ياردة. أيمكنُ أن أكونَ نائماً؟ هل بلفيل ومينيلمونتان هما مكانان في باريس حيث يوقِّرُ الناسُ الموتى بوضعِ الأزهار في علبٍ من القصدير القديمة الصدئة توضعُ بدورها عند أسفل شجرةٍ غبراء؟ فتى! لا شك في ذلك، هذا ما قلته لنفسي، هنا... ثم صَمَتُّ. إنَّ لفظَ كلمة " هنا "، حتى وإنْ كان ذهنياً، مع الكلمة التي كانت ستليها، " قُتِلَ "، أضفى على ألمي دقَّةً ماديَّةً فاقَمَته. كانت الكلمات شديدة القسوة. ثم قلتُ لنفسي إنَّ الكلمات هي مجرَّد كلمات؛ ولا يسعها بأي حال من الأحوال أن تُغيِّر الحقائق.

أجبرتُ نفسي على أن أقولَ مراراً وتكراراً، في داخلي، وبإلحاحٍ مستفز كمنشار^" هنا، هنا، هنا، هنا ". كان عقلي قد نشَطَ عند النقطة المهورةِ بكلمة " هنا ". لم أعد حتى أشهد دراما. إذ لم يكن في إمكان أي دراما أن تحدُثَ في منطقةٍ شديدة الضيق بالنسبة إلى أي حضور. "هنا، هنا، هنا، هنا. قُتِلَ، قُتِلَ، قُتِلَ، قَتَلَتْ أعقابُ الأحذية، قَتَلَتْ أعقابُ الأحذية... " وألَّفتُ في ذهني هذا النقشَ على ضريحه " هنا قَتَلَتْ أعقابُ الأحذية ". كان الناس يراقبون. لم يعودوا يرونني، لم يكونوا مدركين مغامرتي. ثمة امرأة عاملة شعثاء الشعر تحملُ حقيبةً

للتبضُّع. ومع تنهُّد أخرجتْ منها حزمةً صغيرةً مشدودة بقوةٍ من تلك الأزهار الصفراء السخيفة التي تُسمَّى القطيفة. نظرتُ إليها. كانت ممتلئةً قليلاً، وتبدو شجاعة. انحنتْ ووضعتْ باقةَ القطيفة في علبةٍ صدئةٍ كان فيها وردٌ أحمر. الجميعُ (خمسة أشخاص آخرين، بمن فيهم المصارع الآتي من تحت الأرض، وكان إلى يساري) راحوا يراقبون أداءها. ثم استقامتْ وقالتْ، وكأنما لنفسها، ولكنها كانت تتوجَّه إلينا جميعاً:

" مساكين. يجب ألاّ نسأل لمنْ نضعها "

هزَّت امرأةٌ عجوز تعتمرُ قبعةً رأسَها. لا أحد غيرها أتى بأي إيماءة أو تلفَّظَ بكلمة. كانت الشجرة تكتسبُ مغزى وجلالاً مذهلَين ازدادا مع مرور كل لحظة. ولو أنَّ تلك الشجرة البسيطة نَمَتْ على أرضي أو فوق المرتفعات التي أذهبُ لأقدِّمَ عليها شكري إلى الحب، لاتَّكأتُ عليها، لحفرتُ عَرَضاً شكلَ قلبٍ على لحائها، لبكيتُ، لجلستُ على الطحالب واستغرقت في النوم في هواءٍ ما يزالُ ممزوجاً بروحِ جان، التي استحالت رماداً بطلقةِ نارٍ من مسدسٍ رشاش. استدرت. على زجاج واجهةِ محلٍ كان هناك ثقبان مدوَّران، أشبه بنجمتين. ولما كان كل شيء، في ذلك الوقت، يشكِّلُ إشارةً تسبِّبُ لي الألم، سرعان ما أصبحَ الزجاجُ مقدَّساً، ومحرَّماً. بدا كأنَّه روحُ جان المتخثِّرة التي احتفظت بشفافيتها الأبدية، على الرغم من أنها خُرِقَتْ، وصانَتْ المشهدَ المُقزِّز للحْمِه الذي ضُرِبَ، وشُرِّحَ، وقُطِّعَ على شكل سجقٍ أو فطيرةِ كبد. كنتُ على وشك أن أستديرَ ظناً مني أنه ربما تخلَّصَتْ الشجرةُ من زينتها السخيفة، وعُلبها القصديرية، والبول المنتشر، وباختصار كل ما لا يراه المرءُ أبداً عند أسفل شجرةٍ ولا يصدر إلا عن أطفالٍ أو أحلام. والحقُّ أنَّ كل شيء كان يمكن

أن يختفي. أحقاً يرتابُ الفلاسفةُ في وجودِ الأشياءِ الموجودة خلفهم؟ كيف يمكن تقصّي سر اختفاء الأشياء؟ أبالاستدارة بسرعة؟ كلا. أسرع؟ أسرع من كل شيء؟ ألقيتُ نظرةً خلفي. كنتُ منتبهاً. حولّتُ عينيَّ ورأسي، استعداداً لـ... لا، لا فائدة. لا يمكن أن تؤخَذَ الأشياءُ على حين غرّة. يجب أن تلتفَ حول نفسك بسرعةِ مروحة. عندئذٍ سترى أن الأشياء قد اختفتْ، وأنت معها. وكففتُ عن الادّعاء. وبشعورٍ بالجاذبية استدرتُ. الشجرةُ موجودة. والسيدة التي كانت مارّة، رسمتُ إشارةَ الصليب. كان ذلك المهرجان المُقام عند قاعدة شجرةٍ تتبوّلُ يدلُّ على ذوقٍ سيئ. أنكرتُ على الجميع الحقَّ في أن يخترعوا مثل تلك التقدمات الفظّة. فليلتزموا بالشعائر التقليدية المؤدَّبة. الشيء الوحيد الذي كان مفقوداً من ذلك المشهد غير اللائق هو طاسٌ خشبيّ مُلبّس بشريطٍ من الكريب لجمع البنسات من أجل الأرملة وأطفالها. وفي يومٍ مشمسٍ يمكنهم أن يبرهنوا، بإيماءةٍ مهذّبةٍ، على أنَّ قلوبهم هي في المكان الصحيح، إذا أرادوا ذلك، على الرغم من أنهم يحتفظون بزهرياتهم النفيسة في بيوتهم، ولديهم الشجاعة ليقدّموا إلى بطلٍ عارٍ أزهاراً سمجة موضوعة في علبٍ من القصدير فاغرةٍ سرقوها من صفائح الزبالة - ولم يزعجوا أنفسهم حتى بطرق الحواف الحادة. في حين أن روح جان كانت تطفو في الهواء، وحول الشجرة، لكنَّ جان كان مُحطَّم القلب لأنه ما يزال يحملُ ذلك الجرح القذر، تلك القرحة الآكلة الرطبة، المزدهرة، التي ما يزال فوحُ عفنها في أنفي. القرحة هي الملومةُ في إبقاء جان على الأرض. فهو لم يكن قادراً على أن ينحلَّ تماماً في المدى اللازوردي.

نظرتُ إلى البحّار الزائف. كان قد وضعَ سيجارةً في فمه، آلياً بلا

شك، لكنه سرعان ما رماها. أظنُّ بدافع الاحترام. هكذا، لم يكن ذاك الرجل الوطني الواقف هناك مُعرِّضاً لشمس آب بمعطفه الجلدي ذي الحافّة الفرو الذي يكشفُ عن قدٍّ ميّاسٍ وصدرٍ عريضٍ، صاف كرايةٍ، لم يكن يمثّل ما أنجزه الموتُ بجان، على الرغم من أني تمنّيتُ للحظة لو أنه كذلك. لم يكن نسخةً محوّلة، مُشوّهةً، وممسوخةً من جان، يُنبَذُ فجأةً ويظهرُ بجلدٍ جديد ؛ فجان، جنديُ العام الثاني ذاك، ما كان ليجرؤ على أن يقومَ بتلك الإيماءة السخيفة من إبداء الاحترام.

لم أكن عندئذٍ قد رأيتُ أخا جان غير الشقيق. كنتُ واثقاً، في الحقيقة، من أنَّ مَنْ رأيتُ في الجنازة كان هو، مع والدته.

وابتعدَ، تابعته برهةً بعيني - ولا يعني هذا أني كنتُ أرتابُ في صلته بجان - وإنما بسبب مشيته الرائعة، وسأتحدَّثُ عنها لاحقاً. وحين دخلَ الغرفةَ التي كنتُ أتسامرُ فيها مع إريك للمرة الأولى، كان الظلامُ يرخي ستائره. قال:

" مرحبا "

قالها وهو يتّخذُ له مجلساً في الزاوية، بالقرب من الطاولة. لم ينظر إلى إريك أو إليّ. وأوّل شيء فعَلَه كان أنْ أخذَ ساعة اليد التي كانت موجودة على الطاولة ولبسها. ولم ينمَّ وجهه عن أي تعبيرٍ خاص.

لعلّي أخطأتُ بافتراضي أنَّ وجودَ ساعَتيْ يد جنباً إلى جنبٍ على طاولةٍ ليليّة يفضحُ وجودَ علاقةٍ حميمةٍ مُشينةٍ بينهما، ولكني طالما حلمتُ بدون جدوى بعلاقات حبٍ حميمةٍ حتى إنَّ أشهى علاقات الحب هذه عبَّرَتْ عنها، ودوَّنتها، أشياءُ بلا حياة حين تكونُ وحيدةً وتغنّي - تغنّي فقط عن الحب - حالما تُقابلُ المعشوقَ، الأغنيةَ، زخارفَ حالاتٍ

سرِّيةٍ من الزينة. أخرجَ باولو مسدساً من جيبه وبدأ يفكُّه. وكونه لم يُبدِ تقريباً أي دهشة كان يعني أن أمَّه لابد أخبرَتْه بوجودي. لابد أنها رأته حين دخل. كان إريك قد كفَّ عن الكلام. لم ينظر إلى باولو. ودخلتْ الأمُ من الباب نفسه الذي دخلَ منه ابنها. قالت لي وهي تشيرُ إليه:

" هذا بول، أخو جان "

" آه، فهمت "

لم يتنازل الفتى بالإتيان بأي حركة. لم يَقُل لي أي كلمةٍ، بل لمْ ينظر إليّ.

"ألا تستطيع أن تقول مرحبا ؟ إنه المسيو جينيه في الحقيقة، صديق جان"

لم يتنازل بالنهوض والاقتراب لمصافحتي. كنتُ أعرفُ أنه لاحظَ وجودي، إلاّ أنه لم يبتسم لي.

" كيف الحال؟ "

نظرَ عميقاً في عينيّ. كان وجهه متجهِّماً، ليس لأنه كان متعباً أو بسبب لا مبالاته بسؤالي أو بي، وإنما، أعتقد، بدافعِ رغبةٍ عنيفةٍ باستبعادي، بطردي. في تلك اللحظة عادَ إريك، الذي كان قد غادرَ الغرفةَ مدة عشرينَ دقيقة، ثم ظهرَ من جديد في المرآة وبما أنه دخلَ بينما كان باولو يُحدِّقُ إليّ ويقبضُ على قطعةِ سلاحٍ بإحدى يديه، اعتراني الخوفُ، خوفٌ جسدي، كالذي يشعرُ به المرءُ لدى اقتراب نشوب شجار. وتجهُّمَ ذلك الوجه الصغيرُ الداكنُ واللون جعلني أشعرُ على الفور أني مُقدِمٌ على مأساة. كانت قسوته وصرامته تعنيان قبل أي شيء أنه لا أملَ يلوحُ وأنَّ عليّ أن أتوقَّع الأسوأ. ما كدتُ أنظرُ إليه، إلا أني شعرتُ

أنه يعيشُ تحت ضغط توتُّر هائل، وبسببي. باعَدَ ما بين شفتيه لكنه لم يفُه بكلمة. كان إريك خلفه، مستعداً، كما شعرتُ، ليباغته من الخلف إذا ما قال لي باولو، كما كان قد حدثَ ذات مرةً مع أحد البحّارة: " هيا إلى الخارج "، وسكينٌ في يده ليشتبكَ معي في قتالٍ يؤدي إلى قتلي، ليس بالمدية وإنما لأنه بدا لي من المستحيل التخفيف من تلك القساوة. كان من الممكن أنْ أحبَّ الهيكلَ الصلبَ الذي جعلني أجدُ باولو مُغرياً حتى الموت ولا يمكن ثنيه. ولكن كل ما استطعتُ أن أفعله أني وعيتُ صرامته الوسيمة، الناتجة عن فشلٍ محبِطٍ (لأنه إن استطعتُ هنا أن أسجِّلَ هذا النوعَ من القصائد القصيرة، فذلك لأنه لم يكتب لي أن أعيشَ ولا حتى لحظة من السعادة، لأن وجه البحّار الواقف أمامي صارَ خالياً من التعبير حين سألته شُعلةً)، توجَّه باولو إلى الطاولة وراحَ يعبث من جديد بمسدسه. راقبت يديه: لم تصدر عنهما ولا حتى إيماءة واحدة زائدة. ولا واحدة منها قامتْ بما لم يكن مطلوباً منها. تلك الدقَّة خَلَقَتْ انطباعاً مزعجاً باللامبالاة بما ليس فعلاً موجَّهاً. فالآلة لا ترتكب أخطاءً. أعتقدُ أن خِسَّة باولو كانت بهذا تستجلبُ الانتباهَ إليها بنوعٍ من القساوة غير الإنسانية. والتفتُّ إلى أمه:

" أنا ذاهب "

" لكنك ستبقى وتتناول طعامَ العشاء معنا. لن تذهب هكذا "

" يجب أن أذهبَ إلى المنزل "

" أهو أمرٌ مُلحّ؟ "

" نعم، يجب أن أكونَ في المنزل "

" لكنكَ ستأتي مرة أخرى. تعال لزيارتنا ثانية. سيسعد إريك لرؤيتك. إنَّ كلَّ هذه الحرب والتقتيل لوضعٌ مؤسف جداً "

كانت الخادمة واقفةً في ممر المدخل. فتحتْ البابَ لي لأخرج ونظرتْ إليّ دون أن تقول أي شيء. كان عليها لكي تفتحه أن ترفع ستارةً رثّةً تُخفيه، ومسّتْ يدها يدَ أُم جان التي سحبتها وقالت، تعليقاً على أمرٍ شديد التفاهة كهذا:

" انتبهي إلى تصرفاتك "

هي أيضاً كانت تعرفُ أنَّ والد طفل جوليت لم يكن جان وإنما رقيبٌ سابقٌ في الجيش النظامي أصبحَ الآن قائداً في الميليشيا.

فتحتْ الخادمةُ البابَ. لم تبتسم ولا قالت مع السلامة، ولم أجرؤ على التحدُّث معها عن جان.

وغادرتُ. لم يكن جان قد فاتحني بموضوع أخيه، الذي كان قد ذهبَ إلى ألمانيا، ثم إلى الدانمارك، ثم عادَ إلى ألمانيا ثانيةً. إلا أني في داخلي، تابعتُ مغامراتُ باولو بانتباهٍ شديد، منتظراً، بُغيةَ تدوينها، ريثما تكتسب معنى خاصاً تجعلها مثيرةً للاهتمام، أي قادرةً على التعبير عني. إنَّ يأسي جراًء موت جان هو طفلٌ قاسي القلب. هو باولو. لا تُدهَش أيها القارئ إذا تمادى الشاعرُ في الحديثِ عنه إلى حد القول إن لحمه كان أسود، أو أخضرَ كاخضرار الليل. لقد كان لحضور باولو لونُ سائلٍ خَطِرٍ. كانت عضلات ساعديه وساقيه طويلةً وملساء. يمكن تخيُّل مفاصله لدنة حتى الكمال. تلك اللدانة وطول العضلات وملاستها كانت دلالةَ خسّته. وأقصد بـ " دلالة " أنه كانت هناك صلةٌ بين خسّته وقسماته المرئية. كانت عضلاته وسيمةً وبارزةً وكذا كانت خسّته. كان رأسه صغيراً ويعلو رقبةً ضخمةً. وثباتُ تحديقه، الأسوأ من تحديق إريك، كان جديراً بقاضٍ عنيد، بجندي، بضابطٍ غبي حتى الرِفعة. وجهه لا يبتسمُ

أبداً، شعرُهُ أملس، لكنَّ الخُصَل متشابكةٌ. أو بعبارةٍ أخرى، بدا كأنه لم يُسرِّح شعرَه قبلاً وإنما فقط كان يُملِّسه بيديه الرطبتين. إنه بين كلّ الشبان الفِتية الذين أُقْحِمُهُم في كتبي أخسُّهم. سوفَ يغدو، وهو خليعٌ على سريري، وعارٍ، ومصقولٍ، أداةً للتعذيب، طَرَفيَّ كمَّاشة، خنجراً معقوفاً مستعداً للعمل، ويؤدي عمله بمجرَّدِ حضوره الشرير ببروزه، شاحباً وذا أسنانٍ مُطبَقةٍ بإحكامٍ، من يأسي. إنه يأسي مُجسَّداً. وكان هو سببَ تأليفي كتابي هذا، تماماً كما منحني القوةَ على حضورِ كلّ مراسم الذاكرة.

تلك الزيارة لمنزل أُم جان استنزفتني. ولكي أستعيدَ راحةَ بالي لابدَّ لي أن أُنظِّم وأتابع سيرَ الحيوات التي مزَّقتُها للحظة ودمجتُها بحياتي، لكني كنتُ عندئذٍ أشدُّ إرهاقاً من أن أفعل ذلك. فتناولتُ طعامَ العشاءِ في المطعم، ثم ذهبتُ لأشاهد السينما.

فجأةً انفجرَ المشاهدون بالضحك حين قال الراوي: " في الحقيقة، لا، إنَّ القتالَ فوق أسطح المنازل لا يملأ معدةَ الإنسان ". فقد كان أحد أفراد الميليشيا قد ظهرَ على الشاشة، فتى في السادسة عشرة أو السابعة عشرة، أشدُّ هشاشة من باولو. قلتُ في نفسي " إنه أشدّ هشاشة من باولو "، هذه الفكرةُ تُثبتُ أنَّ المغامرةَ سارت في الطريق الصحيحة. كان الفتى نحيلاً جميلَ الطلعة. وجهه يحملُ معاناته. كان حزيناً. كان يرتجفُ. يُخيَّلُ إلى الناظرِ إليه أنه خالٍ من التعبير. وكان قميصه مفتوحاً عند العنق. وثمة أمشاط من الخرطوش تحيط بحزامه. كان يسيرُ بجوربٍ كبيرٍ جداً عليه. وكان رأسه منخفضاً. شعرتُ أنه خَجِلٌ من عينه السوداء. ولكي يظهر بمظهرٍ أكثرَ طبيعيّة، لكي يخدعَ حِجارةَ الرصيف في الشارع، راحَ يُمرِّر لسانه على شفتيه وقامَ بإيماءةٍ صغيرةٍ بيده وثيقة

الصِلة بحركة فمه بحيث أنها تبعَتْ وضعَ جسمه كله، غضّنتْه بأمواجٍ مُرهفةٍ جداً، وجَعَلتْه يفكّرُ على الفور كما يلي:

" البستانيُّ هو أجمل ورود حديقته "

بعد ذلك امتلأتْ الشاشةُ بذراعٍ واحدةٍ عليها يدٌ عريضةٌ، ثقيلةٌ، وجميلةٌ جداً، ثم بجندي فرنسي شاب يحملُ على كتفه بندقيةَ الخائن الصغير. وصفَّقَ المشاهدون. ثم عاد فتى الميليشيا إلى الظهور. كان وجهه يرتعشُ (خاصةً الجفنين والشفتين) من تأثير الصفعات التي تلقّاها عن بُعدِ بضعة أقدام من آلة التصوير. كان المشاهدون يضحكون، ويصفِّرون، ويضربون الأرضَ بأقدامهم. لا ضحكُ العالم ولا انعدامُ الأناقة عند رسّامي الكاريكاتير سيمنعاني من ملاحظة العَظَمة المؤسفة لفتى الميليشيا الفرنسي الذي لجأ، أثناء العصيان المسلّح في باريس ضد الجيش الألماني في آب عام ١٩٤٤، إلى أسطح المنازل مع الألمان وظلَّ طوال عدة أيام يُطلِقُ النارَ حتى آخر رصاصة - على الجماهير الفرنسية التي تعتلي المتاريس.

نظرَ الجمهور بعيونه الضارية إلى الفتى الأعزل، القذر، المرتبك، المتعثِّر الخُطى، المشدوه، والمُفرَّغ، والجبان (مذهلٌ مدى السرعة التي تتدفّقُ بها الكلمات من القلم لتُحدِّدَ طبائعَ معيَّنة وما أشدّ السعادة التي يشعرُ بها المؤلّفُ لكونه قادراً على التكلُّم بهذه الطريقة عن أبطاله) والمُرهَق، على أنه مثيرٌ للسخرية. وكانت هناك امرأةٌ تجلسُ إلى جانبي بثوبٍ من الحرير الصناعي باهت اللون تسوطُ ما حولها بلسانها. كان الزَبَدُ يخرجُ من فمها وكانت تثبُ بمؤخرتها على المقعد وهي تزعق:

" أولاد الحرام، مزّقوا أحشاءهم! "

قلتُ لنفسي وأنا في مواجهة وجه الخائن الصغير (كان مضيئاً لمجرَّد أن الفيلم صُوِّرَ تحت أشعة الشمس) ، الذي كان شبابه، الواقع في فخٍ رهيبٍ، يُبهرُ الشاشةَ، وكانت المرأةُ بغيضةً، قلتُ إنَّ الشبانَ الصغارَ أمثاله يُقتَلون لكي يعيش إريك. كان المشاهدون مثل المرأة، يكرهون الشر. كان كرهي لفتى الميليشيا من الشدّةِ، والجمالِ، بحيث كان مُعادلاً لأقوى حب. لا شكَّ في أنه هو الذي قتلَ جان. واشتهيته. كنتُ أتألَّمُ هكذا بسبب موت جان حتى إني وددتُ لو أفعل أي شيء لأنساه. كانت أفضل خدعة يمكنني أن أمارسها على تلك العصابة الشرسة تُعرَفُ باسم القَدَر، الذي ينتدِبُ ولداً ليُنجِزَ له عمله، وأفضل ما كان يمكنني لعبه على الفتى أن أخلعَ عليه الحبَّ الذي شعرتُ به تجاه ضحيته. ورحتُ أناشدُ صورةَ الفتى الصغير:

" ليتكَ قتلته! "

إنْ كانتْ إحدى يديَّ تحملُ سيجارةً مشتعلةً والأخرى تقبضُ على ذراع الكرسي، فإنهما كانتا متشابكتين معاً مع أنهما لا تتحرَّكان. هذه الإيماءة تُضفي حيويةً أعظم على أمنيتي، المشحونة بإرادةٍ ودعوةٍ قويةٍ إلى أن تتحوَّل إلى تضرُّع.

" اقتله يا ريتون، إنني أهبُكَ جان "

الحركةُ الوحيدةُ التي ندتْ عني كانت أني وضعتُ سيجارتي المشتعلة بين شفتيَّ، وشدَّتْ أصابعي المضمومةُ معاً على بعضها حتى كادت تنكسر. وترتفعُ صلواتي، التي تفوحُ برائحة الخطر، إلى رأسي من قعر معدتي، وتنتشرُ تحتَ سقف جمجمتي المُقنطَر، وتهبطُ ثانيةً، وتخرجُ من فمي، وتحوَّلَ بكائي إلى عويلٍ أعرفُ قيمته - أقصدُ ما يشبه القيمةَ

الموسيقية – وإلى " آهٍ، كم أحبك " تنبثقُ مني. أنا لا أكره جان. أريدُ أن أُحبَّ ريتون. (لا أستطيعُ أن أعلِّلَ لماذا أطلقتُ " عفواً " على فتى الميليشيا المجهول اسمَ ريتون) إني أنزفُ من جديدٍ كمَنْ يزحفُ على ركبتيه على بلاط الرصيف.

" اقتلوه! "

فَتَّتَ تَمَزُّقٌ مخيفٌ أنسجتي. تمنَّيتُ لو أنَّ معاناتي كانت أعظم، لو تتصعَّدُ إلى مرتبةِ الأغنية السامية، إلى الموتِ ذاته . كان شيئاً مرعباً. أنا لم أُحبَّ ريتون ؛ كان حبي له ما يزال مُكرَّساً لجان. على الشاشة كان فتى الميليشيا ما يزالُ ينتظرُ. كان قد قُبِضَ عليه للتو. كيفَ يمكن للمرء أن يتصرَّف حيالَ جمالٍ واضحٍ وضوحاً ساطعاً؟ يقطعُ له رأسه. هكذا ينتقمُ الأبله من وردةٍ اقتلعها. إنَّ رجل الشرطة يمكن أن يقولَ عن لصٍ فتى سقطَ في قبضته مرة أخرى:

" اقتلعتُهُ لتوي من الرصيف! "

فلا تُدهش لأني أرى ريتون وردةً من أعالي الجبال، زهرةَ إيدلفايس رقيقة. بيَّنتْ حركةٌ من ذراعه أنه يرتدي ساعةَ يدٍ، لكنَّ الحركةَ كانت ضعيفةً، لا تشبه حركات جان. كان يمكنُ أن تكونَ إحدى حركات باولو، إنما أقوى تأثيراً. وكنتُ على وشك أن أُقلِعَ عن هذه الفكرة، وأخذتُ أُدركُ شيئاً فشيئاً أن ريتون يُكمِّلُ باولو، لكنَّ عملي كمشعوذ تطلَّبَ مني انتباهاً تاماً واستفادةً من كل شيء لتحقيق هدفي. وكان المشاهدون يُصفِّرون ويزعقون:

" مزِّقوه إرباً! "

" أعطوه عيناً سوداء أخرى! "

لابدَّ أنَّ أحدَ الجنود قد ضربَ فتى الميليشيا، لأنه كان يرتجفُ وبدا كأنه يحاولُ أن يحتمي. واكفهرَّ وجههُ. إنَّ جمالَ الليلك، مثل جماله، يكمنُ في الهشاشةِ الرائعة لقلنسوةِ غبار الطلْعِ وهي ترتعشُ في أعلى المدقَّة. إن عصفةَ هواء، أو إصبعاً غليظاً، ورقةَ نباتٍ، يمكنها أن تكسرَ وتَنسفَ التوازنَ الدقيقَ الذي يُبقي الجمالَ في حالةِ توازن. أما توازنُ وجهِ الفتى فاختلَّ لحظةً، وخشيتُ ألاَّ يستعيدَ هدوءَه، بعد أن تغضَّنَ. كانَ مهزولاً. وألقيتُ عليه نظرةً أقربَ وأسرع (يمكن للمرء، بدون أن يشيحَ ببصره، أن يُسرعَ في النظر. وفي تلك اللحظة انقضَّ " تحديقي " على الصورة). بعد قليل سوف يختفي من الشاشة. لقد كان جماله وحركاتهُ مناقضةً لتلكَ التي لدى جان. وعلى الفور غمرني نورٌ، نورٌ داخلي. انتقلَ قبسٌ من الحبِّ إلى ريتون. خُيِّلَ إليَّ أنَّ الحبَّ يفيضُ مني، من شراييني إلى شرايينه. وهتفتُ في داخلي:

" ريتون، ريتون. يمكنك أن تقتله، يا طفلي! يا حبيبي! اقتله! "

وأدارَ رأسه قليلاً. وتجرأً كولونيلٌ جالسٌ أمامي فقال: " لو أضعُ قبضتي عليه... ". كانت إيماءات ريتون تقتلُ حركاتَ جان، كانت تقتلُ جان. فجأةً لم يعُد الناسُ الزاعقون الهازئون سخيفين. جعلهم الأسى بشعين. ونالَ حبٌّ الانتقام من الكولونيل الحانق والمرأةِ البدينة التي كانت قد جُنَّتْ من فرطِ الغضبِ واستحالَ لونُها قرمزياً تحتَ خصلات شعرها الصفراء المبْيَضَّة وأجبرهما على أن يُبجِّلا بوحشية، ولكن بعَظَمة، وبالضحك، موتَ أخٍ أو ابنٍ أو عشيقٍ. لا أحدَ كان يُثيرُ السخريةَ. كانَ سبابهم احتفاءً بمجد ريتون، الملزَمَةَ التي عُصرَتْ بها. وكانت هناك صورٌ أخرى (الجيشٍ يتقدَّمُ) على الشاشة. أغمضتُ عينيَّ. تصاعدَ داخلي تضرُّعُ صامتٌ ثالثٌ وأبعدني عن نفسي:

" اضربوه، إني أسمحُ لكم بالنيل منه "

وهاجتْ موجةٌ أخرى من الحب من جسدي الساكن، المنحني، المترهِّل على المقعد، وانصبَّتْ أولاً على الوجه ومن ثم على العنق، فالصدر، حتى غمرَتْ جسمَ ريتون بأكمله، داخل حدود عينيَّ المغمضتين. أحكمتُ إطباقَ جفنيَّ. التصقتُ بجسدِ فتى الميليشيا الأسير، الذي أبدى مقاومةً على الرغم من إرهاقه. إذ تحت مظهرِهِ الواهن كان صلباً، ضارياً، ومتجدِّداً دائماً، كآلةٍ صُنِعَتْ بإبداع. وظلَّ تحديقي الداخلي مُثبَّتاً على صورته التي أعدْتُ تكوينها بعُنفِها، وصلابتها، وضراوتها الفطرية، وانتقَلَ دفقٌ متواصلٌ من الحب من جسدي إلى جسده، الذي عادَ إلى الحياة واستعادَ لدانته.

أضفتُ:

" هيا، يمكنكَ أن تُرديه "

هذه المرَّة دلَّ قالبُ الصيغة ذاته على أنَّ إرادتي تقومُ بعملها من تلقاء ذاتها، رافضةً عونَ التضرُّع. وأبقيتُ عينيَّ مُطبَقَتين. أنهارُ الحبِّ ذاتها انصبَّتْ على ريتون، ومع ذلك لم تنقَص قطرةً واحدةً من نصيب جان. كنتُ أحافظُ على الصبيّين برعايةِ حناني المُضاعَفِ الدفء. إنَّ لعبةَ القتلِ التي سيتورَّطان فيها ما هي إلا رقصةُ حربٍ سيكون فيها موتُ أحدهما عَرَضياً، ويكادُ يكونُ لا إرادياً. هي عربدةٌ تُفضي إلى سفك دماء. أطبقتُ عينيَّ بشدَّةٍ أكبر. نظرتي مُلتصقةٌ بفتحةِ بنطالِ فتى الميليشيا، التي كانت صورتُها في داخلي، وبثَّتْ فيها الحياةَ، منحتْها ثقلاً، ملأتْها بوحشٍ هائجٍ مُتخَمٍ بالحقد، وكان تحديقي هو الشعاعَ الذي ارتفعَ ريتون بواسطته عائداً إلى أسطح المنازل. لقد أحببتُهُ. كنتُ سأتزوّجه. ربما كان سيكفي أن أرتدي ثوباً أبيضَ، من أجل الزفاف،

ولكن مُزيَّنٌ بزهرةٍ ملفوفٍ سوداءَ كبيرةٍ من الكريب عند كلِ مفصَلٍ، عند المِرفَقَين، والركبتين، والأصابع، والكاحلَين، والعنق، والرسغ، والحنجرة، والأير، وفتحة الشرج. فهل كان ريتون سيقبلُ بي وأنا ألبسُ بتلك الطريقة وفي غرفة نومٍ مزدحمةٍ بأزهار السوسن؟ ذلك لأنَّ الاحتفالَ بالزفافِ كان سيندمجُ بحِدادي وسيتمُّ كل شيء بسلامٍ. أكانَ ضرورياً أن أتحسَّسَ صلابة المنتصر بيديّ؟ وعلى الرغم من الجدران، والشوارع، والنداءات، والأنفاس، والأمواج، والأضواء الأمامية للسيارات، وعلى الرغم من طيرانه إلى خلفيّة الشاشة فإنَّ ذهني عثرَ عليه مرةً أخرى. نظرَ إليَّ. وابتسمَ.

" ها قد قتلتُهُ، كما ترى. لا أظنُّكَ غاضباً مني؟ "

لو أني تفوَّهتُ بما يلي: " لقد قمتَ بالعملِ الصحيح "، لشعرتُ بالخجلِ الشديدِ من نفسي، ومما يتّصفُ به الأمرُ كله من ظُلمٍ يتفاقمُ باطرادٍ، ولرفضتُ القيامَ بالمغامرةِ وفقدتُ ما ربحتُهُ في اللعبة. أجبتُ على صورته، التي أضحَتْ الآن شديدةَ الوضوحِ والتماسُكِ لعينيَّ مثلَ جسدٍ ملفوفٍ بالعضلات بالنسبة إلى الأصابع:

" لقد منحتُكَ إياه يا ريتون. أحببه بقوة "

فتحتُ عينيَّ مرة أخرى. كانت الفرقةُ الموسيقية تعزُفُ النشيدَ الوطنيَّ لإحدى الدول الحليفة. كان يُغلّفني عبقٌ أثقلُ وأغنى. كانت الغدد الموجودةُ بين فخذَي وتحتَ إبطي وربما في قدميَّ تعملُ بنشاطٍ مُكثَّف. فإذا ما أُثِرتُ كثيراً، فإنَّ تلك الرائحةَ الحادَّة التي ظللتُ أحبسُها طوال عشر دقائق، تنبعثُ وتسمِّمُ المشاهدين. زلقتُ إصبعاً في فتحة بنطالي. حوافُ فخذَيَّ رطبةٌ وتنضحُ بالعرق. كنتُ قد اكتشفتُ لتوي كيفَ ومع مَنْ أمضي إريك

الأيام الخمسة الأولى من انتفاضةِ باريس قبل أن يتمكَّن من الإقامة مع عشيقته. سوف يقابلُ ريتون إريك، سوف يقاتلُ إلى جانبه فوقَ أسطح المنازل، ولكن عليه أولاً أن يتعرَّفَ إلى باولو. إنني أحاولُ أن أقدِّم لك هذه الشخصيات بحيثُ تراها على ضوءِ حبي لها. ليس إكراماً لها وإنما إكراماً لجان، وخاصةً لكي تعكسَ ذلكَ الحب.

بعد أن رأيتُ باولو ينطلقُ على دراجته، توجَّهتُ إلى البيت. حين وصلتُ إلى هناك كان الظلامُ قد ساد. أيام أيلول المبكِّرة هذه ما تزال دافئة. صعدتُ إلى غرفتي. كان جان قد أتى إلى هنا ذات مساء لزيارتي، قبل شهرين، ليُقدِّمَ إليَّ باكورةَ أجاص الموسم. في صباح اليوم التالي غادرني إلى الضواحي حاملاً حقيبةً ملآى بالمسدسات. تبادلنا الحديث ,وحين فكَّرَ في العودة إلى البيت كان الوقتُ قد تأخَّر.

" يمكنكَ أن تمكثَ إذا شئت "

تردَّدَ، نظرَ إليَّ مع ابتسامةٍ خفيفةٍ، وقال، (حتى الآن كدتُ أتكلَّمُ عن أحد الموتى، عن إلهٍ أو شيء، أما الآن وأنا أوشكُ أن أُكرِّرَ كلماته، أن أصفَ حركاته، أن أستعيدَ تبدُّلات صوته، يتملَّكني الرعبُ، وهذا لا يعني أني أخافُ أن أُخطئ التذكُّر وأنْ أخونَ جان وإنما، على العكس، لأني واثقٌ من أني سأتذكَّره، بدقَّةٍ متناهيةٍ حتى ليكادُ يقتحمُ عليَّ المكانَ، تلبيةً لندائي. وإذا كانتْ الصفحاتُ الخمسون السابقة تكادُ تكونُ مقالةً حول تمثالٍ من الثلج له قدَما إلهٍ مُتَبلِّد الشعور، فإنَّ الأسطرَ التاليةَ معنيَّةٌ بأن تفتحَ صدرَ ذلكَ الإله وذلكَ التمثال وتحرِّرَ فتى في العشرين من عمره. هذه الأسطر هي المفتاح الذي يفتحُ أبوابَ المعبدِ ويكشفُ سرَّ القربان المقدس، والضربات الثلاث المُستخدَمة في المسرح والتي تُعلِنُ عن

ارتفاعِ الستارة هي الاستخدامُ المؤسْلَب بشكلٍ طفيفٍ لدقّاتِ قلبي قبل أن أدفعَ جان إلى التكلُّم)

قال:

" أوه؟ "

أدركتُ ما دارَ في خَلَده. مرَّتْ عشرُ ثوانٍ من الصمتِ، ومن ثم عادَ يُكرِّرُ ممازحاً.

" أوه؟ "

ومرةً أخرى، مع الابتسام وإيماءةِ الرأسِ نفسيهما:

" أوه؟ "

قال بصوتٍ كالصهيل:

" ولكن إذا بقيتُ، سوف تبدأ باللعب بذيلك "

" لن أفعل "

قلتُ هذا بنبرةٍ خشنة. ثم أضفتُ، بلهجةٍ أكثر استقلالاً:

" أوه، افعلْ ما تشاء "

" أوه؟ "

ولكن بينما كنتُ أتكلّمُ نهضَ واقفاً، وحسبتُ أنه ينوي الرحيل. عاد فجلسَ على السرير.

" ماذا؟ ستبقى؟ أم سترحل؟ "

" هل ستدعني وشأني؟

" خراء "

" سأبقى "

تحدَّثنا حول أمورٍ أخرى. ومن نبرة إجاباته، من الارتباك الخفيف

الذي شابَ صوتَه، من تردُّدَه، استطعتُ أن أعرفَ ليس فقط أنه باقٍ وإنما أنه سيقبَلُ هذه الليلة ما كان قد رفضَه حتى الآن.

" هل ستخلع ملابسك؟ "

كان واضحاً أنه، على الرغم من قراره بمنحِ نفسه لي، كان يؤخِّر لحظةَ الذهابِ إلى السرير، والاندساس بين الملاءات، وضغطِ جسمه إلى جسمي. وأخيراً، راحَ، ببطءٍ وكأنما يتمشّى حول الغرفة، يخلع ملابسه. حين صار في السرير، ضممتُهُ إليّ. وسرعان ما حدثَ لديه انتصاب.

" أترى، إنكَ لا تحافظ على كلمتك. قلتَ إنكَ ستدعني وشأني "

" أوه، كفاكَ، إنني فقط أُقبِّلُكَ. لن أؤذيك "

قبَّلتُهُ. ثم قال، ولكن بصوتٍ هادئ:

" لا بأس "

هذه الـ " لا بأس " دلَّتْ على أنه وصلَ لتوّه إلى قرار، أنه يستسلم إلى ما لا مناصَ منه.

" لا بأس "

ثم، وقد أخذَ يتنفَّسُ أخيراً بارتياح:

" ماذا لو كنتُ أريد، اليوم؟ "

" تريد ماذا؟ "

عبَسَ بنفاد صبر، وأفشى دون تفكير:

" أنتَ تعرفُ جيداً. لكنك تريدني أن أقولها... إذا كنتُ أرغبُ في ممارسة الحب "

نهايةُ الجملةِ تدلَّتْ بسبب نقصانٍ في النَفَس.

" جان "

داعبتُ يده.

" جان "

لم أدرِ ماذا أقول أو أفعل. لقد استطاعَ أن يشعرَ بسعادتي. استلقى بسكونٍ، متمدِّداً على ظهرِه. هذا الوضعُ أرخى عضلات وجهه، لكنَّ العينين ظلَّتا نشطتين وبقي الجفنان على طَرْفِهما المنتظم، مما دلَّ على أن الفتى كان منتبهاً على الرغم من إثارته. أطفأتُ النورَ. واستلقيتُ مرهَقاً وهادئاً على ظهري. بعدها بلحظة همس:

" جان، هيا "

ولهفةً مني على أن أوفِّرَ عليه أدنى حَرَجٍ في تولِّي أمر نظافته الشخصية في حضوري، أدخلتُ يدي بين ردفيه وكأني أداعبه في تلك المنطقة، أما هو، ومن باب الاحتشام، ومخافةَ أن يتلوَّثَ أيري بخرائه، نظَّفَ نفسه بيده الحُرَّة. أدَّينا هذا العملَ الثنائيَّ في وقتٍ واحد، تحت الأغطية، بالبراءة نفسها، وكأنَّ يدي قابلتْ ردفيه ويده قابلتْ أيري مصادفةً في الظلام. في ذلك الوقت تمتمَ كلماته الشهيرة:

" أحبك حتى أكثر من قبل "

قبَّلتُ قفا عنقه بدفءٍ لابدَ أنه عزَّزَ ثقته لأنه أخيراً جرؤ على إفشاء الاعتراف التالي من بين تضاعيف الوسادة:

" كدتُ أخشى ألاّ تحبَّني... بعد ذلك "

يدي التي كانتْ تبحثُ عن شعره لتداعبه مسَّتْ وجهه برفقٍ وأخذتْ تداعبُ وجنته بدل ذلك.

إنَّ ارتداء قمصان أو جوارب جان لن يكونَ كافياً ولا إثقالَ نفسي بالتمائم التي لمَسَها ولا جدلَ الأساور من خصلات شعره أو إبقائه على

شكلِ خُصَلٍ، وإنما لفظُ اسمه في السرّ هو العملُ الأفضل. لو حاولتُ أن أكرِّرَ بصوتٍ عالٍ الكلمات التي قالها، جُمَله، والقصائد التي خربشها، لكانَ هناك خطرٌ من إعطائه جسداً داخل جسدي.

اللغةُ، تلك اللغة بخاصةٍ، تعبِّرُ عن الروح (وقد انتقيتُ هذه الكلمةَ) والكلام. (عندما يسلِّمُ الإنسانُ روحَهُ يبدو حينئذٍ أنَّ هذا النَفَس المادي هو حاملُ الكلام). بدا أنَّ الروح ما هي إلا الكشفُ المتناغم، والامتدادُ على شكلِ لُفافاتٍ رقيقةٍ مُخبَّأةٍ، للجهدِ السرِّي، لحركاتِ الأشنات والأمواجِ، لأعضاءٍ تحيا حياةً غريبةً في ظُلمتها السحيقة، لتلك الأعضاء نفسها، الكبد، الطحال، غلاف المعدة الأخضر اللون، الأخلاط الدم، الكيلوس، القنوات المرجانية، بحر قرمزي، الأمعاء الزرقاء. لقد كان جسدُ جان قارورةً فينيسية. كنتُ متأكداً تماماً من أنه سيأتي وقتٌ تُقلِّصُ فيه اللغةُ الرائعةُ المُستنبَطة منه حجمَ جسده، كما يتقلَّصُ حجمُ كرة الصوفِ مع تقدُّم استخدامها، سوف تبليه حتى يغدو شفافاً، حتى يصير نقطةً من الضوء. لقد علَّمني سرَّ المادة التي تكوِّن النجمَ الذي يُطلِقه، وأنَّ الخراء المتراكم في أمعاء جان، ودمه البطيء، الثقيل الحركة، ومنيه، ودموعه، وطينه، ليس خراءك، ليس دمكَ، ليس مَنيكَ.

كنتُ قد أويتُ إلى السرير وذكرياتي عن باولو تمتزج بذكرياتي عن جان. من خلال النافذة المفتوحة في غرفةِ الفندقِ الصغير رأيتُ نهر السين. باريس لم تنمْ بعد. ماذا يفعلُ إريك الآن؟ كان من الصعب عليَّ أن أتخيَّلَ حياته مع باولو وأمِّه، ولكن عزَّاني أن أعيشَ من جديد إلى جانبه - وأحياناً داخله أو داخل ريتون - الساعات التي قضاها فوق أسطح المنازل مع رجال الميليشيا.

هكذا، امتدَّت ذراعان عاريتان، أولاً فوق السطح، في وجه السماء المظلمة، براًقتين، متشابكتيّ اليدين، إحدى الذراعين تشدُّ الأخرى نحوها. والجهد اليائس تقريباً الذي بَذَلَتْهُ الذراعان، لرجلين قويين، مسربلين بالعضلات جعلهما متيبِّسَين كقضيبين، وظلّتا لثلاث ثوانٍ في حالة ثباتٍ خفيفٍ مذهلةٍ، وكانتْ لحظةً مُهلكةً من الحيرة. ثم انطلقتْ شحنةٌ من الإرادةِ في الذراع الأقلّ قوةٍ بينهما. وسُمِعَتْ طقطقةُ فولاذٍ خفيفةٍ عند حافة الزنك. تلك الصورة الجدارية لذراعين ممدودتين معقودتين معاً بتعاونٍ رجوليّ وأخويّ كادتْ تشقُّ عباب السماء، كادتْ تثقبها. كانتْ النجوم أشدَّ تعتيماً من أن تُضيء المشهدَ بشكلٍ كافٍ. والذراعُ التي بدَتْ أضعفَ ارتفعتْ قليلاً باتجاه الجسد المتعلّقة به. لقد مدَّها الأملُ بالشجاعة. مالَ جذعُ ريتون أكثرَ قليلاً إلى الأمام، وتراجعَ الجسدُ القوي المتماسك كله، وقد كسَرَتْ الحركة شكلَهُ، بهدوءٍ وبطءٍ خلف المدخنة القرميدية التي كانتْ يدُ الذراع الأخرى تتمسّك بها. وأخيراً نجحَ عنصر الميليشيا الصغير في أن يسحبَ من الفضاء الجندي الألماني الذي زلّتْ قدمَهُ على الزنك الزلاّق على السطح. كلاهما كان حافي القدم عاري الرأس. عادَ إريك إلى السطح مستعيناً بإحدى يديه، التي كانتْ ما تزال تقبض على آلة الهارمونيكا، زاحفاً على بطنه. حين أصبحَ في وضعٍ آمن، كان رأسه المرفوع على مستوى واحد مع ركبتيّ ريتون. أفلَتَ يد الفتى. مسحَ ريتون، الذي كان شاحبَ الوجه مثله، جبهته. كان يتصبَّبُ عرقاً. ثم أسقطَ يدَه تَعَباً بحركةٍ خرساء. تناولها إريك على الفور، وكان ما يزال متمدِّداً على بطنه، وعصرها.

تمتمَ "Danke" (شكراً)

من ثم انتصبَ واقفاً. نظرَ في عيني الفتى. رأى وجهاً مُتعَباً عارياً، مرشوشاً بالظلال الذي كانت تلمعُ فيه عينان سوداوان. وضعَ كلتا يديه على كتفي ريتون وهزَّه. وبزغَ نورُ القمر الفضيّ من خلف سحابة. خطا إريك برشاقة خلف المدخنة وامتزجَ مع الظلّ. وبسرعةٍ مُعادلةٍ قامَ ريتون بالحركةِ ذاتها، لكنه لم يُتقنها، لأنه فَقَدَ توازنه بسبب عدَّة الخرطوش، جعله التَعبُ والعصبيّةُ غلِيظ المزاج. وبساقٍ موضوعةٍ أماماً وأخرى محنيّة إلى الخلف كان ريتون يقومُ بما يشبه حركةَ انفساخٍ خرقاء فوق السطح. مالَ إريك فوقه وقبضَ على الفتى من الخلف، وأطبقَ عليه بساعدَيه وتصادمتْ أسلحتهما. لم يكَدْ يُسْمَعُ صوتُ الارتطام. ظلاَّ واقفَين برهةً بلا حراك، وريتون ما يزال محبوساً بين ذراعيّ إريك، الذي انضمَّتْ يداه معاً بواسطة الهارمونيكا. انتظرا قليلاً، فاغري الفم، إلى أنْ خمَدَتْ أمواجُ الهياج التي سبَّباها لتوّهما وسط الظلام. فكَّ إريك عناقَه وأرخى ساعديه. انتابَ ريتون إحساسٌ خفيفٌ بالرطوبةِ والبرودةِ على ظاهر يده ورفعَ يده إلى فمه بحركةٍ آليّة. لم يُدهش كثيراً. أدركَ أن لعاب إريك، الذي تجمَّعَ في ثقوب الهارمونيكا، قد سالَ على يده. كان للصوفِ الأزرقِ الغامقِ لبنطالِ فتى الميليشيا القصير والصوف الأسود للجندي معاً رائحةٌ راكمَها عرقُ أيام آب ولياليه والتعب والقلق وأفرزتها تلك الحركة الثنائية ومزجتها، ومن بين عيدان الخيزران برزَ محاربون سودٌ عُراةٌ بأجسادٍ لامعةٍ يضعونَ فروات الرؤوس في أحزمتهم ويحملون دراجات. لقد كان قلبُ أفريقيا ينبضُ في يد ريتون المضمومة. كان هناك رقصٌ على إيقاعِ دقات طبولٍ نائيةٍ وملحاحة. كان الاثنان يترنَّحان، وعيونهما جاحظةٌ، والتعبُ يشدُّهما ويدفعهما، ويجعلهما يدوران ويتهاويان.

غمغمَ إريك:

" Achtung، انتبه يا ريتون! "

جلَسا مُستَندَين إلى المدخنة بين الـ Fritzes[1] أنصاف النائمين، واستغرقَ ريتون في النوم. كان قد واكبَ ستةً من الجنود الألمان ورقيباً واحداً، الوحيد الباقي من الشعبة التي ألحقَته فرقته من أفراد الميليشيا بقواتها. وبفضلِ تواطؤ جوليت، التي كان الرقيبُ يغويها، تمكّنوا من الوصول إلى بناءٍ كلُ مَنْ فيه نائمٌ، والدخول من نافذة الخدمة، والصعود إلى السطح. كان الرقيبُ في العشرين من عمره، وكان جنوده في مثل سنه. احتفظوا بفتى الميليشيا معهم ثم خلعوا أحذيتهم بصمتٍ ليصعدوا إلى العوارض الخشبيّة. وعند اقتراب منتصف الليل صعدوا إلى السطح. وزيادة في الحيطة انتقلتْ الفرقةُ الصغيرةُ إلى بناءٍ آخر. ثم اختاروا ساريةً وجلسوا القرفصاء بين المداخن وقد هدَّهُم اليأسُ والتعبُ. وبسبب يأسهم بالذات صمَّموا على أن يبذلوا أقصى ما في مقدورهم للخروج من الورطة التي وقعوا فيها. وأصابهم التعبُ بالنعاس. أخرجَ إريك، الأقلّ نعاساً بينهم، آلة الهارمونيكا من جيب بنطاله القصير الأسود الخلفي وعزفَ لحناً. كان يمرِّر فمه برفقٍ على الثقوب ويعزف برقَّةٍ شديدةٍ، بل بهمهمةٍ، لحن " الجافا الزرقاء ":

... إنها الجافا الزرقاء

أحلى جافا

تلك التي تسحركَ...

كانت تبدُّلات لحن الفالس الشائع تخنقُ البوخ، تعصر حنجرته. كان يدركُ أنَّ كلّ عذوبة فرنسا الحزينة تفيضُ من عينيه. عندئذٍ بالذات

---

١ - الفرتيز : لقب كان يُطلَق على الألمان أثناء الحرب العالمية الثانية . المترجم .

غَلَبه النومُ وتدحرجَ على منحدر السطح. لحسن الحظ قبضتْ يدُهُ على درع ريتون، ونجحَ ريتون في أن ينهض على قدميه ويُعيده إلى مكانه.

لم يستطع إريك أن ينام، على الرغم من إرهاقه. أخذَ يتجوّلُ في المكان. كانوا في شهر آب، حين تُمطِرِ السماء رذاذاً من النجوم. ولما اقتربَ من حافّة السطح وجدَ أنه يقفُ فوقَ شُرفةٍ ضيِّقة لها سورٌ حديدي يمتدُّ على طول نوافذ الطابق السادس. وبقفزةٍ واحدةٍ أصبحَ في الأسفل. وبعينٍ واثقةٍ وقدمٍ راسخةٍ استقرَّ على الشرفة، على أطراف قدميه الحافيتين، وبينما هو يتمايلُ على ربلتيه وفخذيه المحنيين، تردَّدت يداه وأصابعه في أوضاعٍ غريبةٍ، لكنه سرعان ما استخدمها ليوازنَ كامل جسمه. كانت الشقةُ خالية. وحين أخذ يتجوّلُ داخلها لَفَحَتْ وجنتيه حرارةٌ خفيفةٌ للمرة الأولى. كان يعتبرُ انتفاضة الباريسيين خيانة. لقد خدعوه بادِّعائهم النوم طوال أربع سنوات. وتحت ستارِ تناول المشروبات في الحانات، والصفعات الودِّيةِ على الأكتاف، والشروح اللطيفة التي تؤديها الأيدي، والفتيات، والنساء، والأولاد الذين كانوا يُخرَقون بتكاسُل من الخلف كالكلاب من قِبَلْ رجالٍ ينتعلون الجزمات والمهاميز، كان سيلٌ من الأفكار المُخادعة يُعَدُّ للانتقام. أدرك إريك أنَّ الصداقة يمكن أن تكون فخاً. ولكن، ماذا يهمّه من ألمانيا! لقد التحقَ بشبيبة هتلر لكي يحصل على السلاح: سكينٍ للتباهي، ومسدسٍ للسلب. كان يشبه رجال الميليشيا الفرنسيين الذين ينتشون لمجرد إحساسهم بوجودِ مسدسٍ محشو تحت ستراتهم. وأخذ يُنمِّي عضلاته الصلبة بالفطرة. كان يجب أن تأخذَ حياتُه شكلَ جَسَدِه، شكلَ تكوينِهِ الداخلي المُرهَف. إنَّ عضلاته، كل تلك الكتل المتوترة، النابضة بالحياة، هي قوة القفز والوثب في حركاته.

حين كان يثورُ لم يكن عنف ثورته هو عنفُ ارتعاش عضلات فخذيه وإنما شكلُها، الانعطاف ذاته، الغنى ذاته، الامتلاء المثالي، الخطوط المنسابة، وانتفاخُ ربلةِ ساقٍ حديديةٍ يوجِّهها اندفاعٌ واضحٌ إلى الأعلى للّحم الصلب. كان انشقاقه يجيشُ مثل كتفيه، وكل جريمةِ قتلٍ ارتكبها كان لها شكل عنقه. وحين كان إريك يمتلئ جسارةً ورغبةً في هز العالم، كل ما كان عليه أن يفعله هو أن يعصرَ رقبتَه الفريدة تلك بيديه السميكتين الضخمتين ليشعر أنها عامودٌ صلبٌ يدعمُ العالمَ، ويشمخ بكيانه ورأسه عالياً، ويرتفعُ فوق العالم.

أحياناً كانت لإرادته نتائج جميلة: فإذا اعترضتْ طريقَه عقبةٌ، تغضَّنَتْ جبهتُه وانهمرتْ الخِصَل الذهبية لشعره المُغالي في تلميعه، ثم يعبس، ويهجم على العقبة، ويدعها تبقُر بطنه.

طوال فترة شبابي كنتُ أنظرُ إلى العالم من تحت حاجبين معقودَين، بحيث أرى من فوق عينيَّ الشعرات الذهبية القاسية التي تحدُّهما. كنتُ أعلمُ أني أحملُ عبء محصولٍ بالغِ الثقَل، وحتى في أشدّ اللحظات إشراقاً شعرتُ أني سويقةٌ تغطي حباتُ القمحِ رأسَها وأنَّ لحيتها هي شعرُ حاجبيَّ.

" لم يعُدْ لديه اثنان وثلاثون غضناً... "

هذه الملاحظة، التي سَمِعها إريك ذات مرة تُقال عن فتى كان يشكُّ رفاقُهُ في المهجع في أنَّه يمنحِ نفسه لضابطٍ، جعَلتُهُ يتروّى في التفكير وملأتُه بخوفٍ خفيّ. وحين سَمِعَ مَنْ يقول: "... سوف يأخذون البصمة، سيجعلونه يجلس على الأرض... "، شعر برعبٍ رهيبٍ على نفسه.

قال في نفسه " يمكن رؤيتها. أيمكن أن يتغيَّر الشكلُ إلى هذا الحد؟ "

إنه لا يكره الجلاّد من أجل هذا. سوف يقول في نفسه:

" أنا واثق من أنَّ التغضنات تظهر ثانية... "

لقد خَلَقْتُ داخلي نظاماً للفروسية أكون أنا مُنشئه، ومؤسِّسه، والفارس الوحيد. سوف أخلعُ على إريك الناهض داخلي أوسمةً ممتازةً، صلبانَ، مراتبَ، هِبات. إنها كتلُ بصاقي.

كنتُ أنظرُ إلى نفسي في مرآة خزانة الملابس في غرفتي في الفندق. كانت صورةُ الفوهرر الموضوعة على رف المدفأة خلفي مُنعكسةً في المرآة. كنتُ عارياً حتى الخصر وأرتدي بنطالي الأسود الفضفاض، والضيِّق عند الكاحلين. كنتُ أنظرُ إلى نفسي، أحدِّقُ في عينيَّ، ومن ثم في صورة الفوهرر المنعكسة في المرآة.

ماذا يعني البُصاقُ؟ هل تستطيع أن تبصق على كل مَنْ تريد؟

* * *

أهمُّ جزء من جسمي هو ردفاي. بنطالي لا يني يُذكِّرني بهما لأنه يحتويهما وهو من الضيق بحيث لا أستطيع أن أنساهما. إننا نُشكِّلُ فوجاً من الأرداف.

* * *

" وماذا عن أيره، كيف هو شكله، وكيف تحبّ أن تتلقَّاه، أمنَ الجانب أم بالعَرض؟

تسألُ هذا السؤال روحٌ بذيئةٌ داخلي ولا أجرؤ على الإجابة عنه ويُجبرني على أن أشيحَ ببصري عن قضيبه لألتفتَ إلى جان، الذي أشعرُ بالعار لأني تخلَّيتُ عنه. لكني غائصٌ في حمأةِ المشاعرِ الجنسية بحيث لا أستطيع أن أفكِّر في جان دون أن أُفكِّر في مضاجعاتنا. زيادة على ذلك إنَّ تلك الأفكار مُحرَّمة. أشعرُ أني أرتكبُ جريمةً بغيضةً إذا ما

تذكُرتُ أيضاً وبالتحديد الأجزاء التي أحببتُها أكثر من غيرها منه وفسدَتْ الآن ونهَشَتْها الديدان. بماذا أفكِّر؟ ورق الجدران لا يلفت انتباهي. كل زهرة، كل بقعةٍ رطبة، تعيدني إلى جان. يجب أن أفكِّر فيه. إنني أسمو بذكرى ممارسة الحب لكي أستطيع أن أتجنَّب تدنيسها. إنَّ أكثر أجزاء جسده حيوية تصبحُ روحانيّةً، حتى قضيبه نفسه، الذي يستحوذ على فمي، يتَّصِفُ بشفافية قضيبٍ من الكريستال. والحقيقةُ هي أنَّ ما أضمُّه حين يكون الأيرُ بين أَسناني وشفتيّ القرمزيتين هو جسدٌ أبيضُ متدفِّقٌ، ضبابٌ مُضيءٌ يُخيِّمُ على سريري أو على مرجٍ رطبٍ أستلقي عليه. إنه باردٌ بالنسبةِ إلى شفتيّ، وهكذا أتفادى المتعةَ. مضاجعاتي تستمرُّ خلال هذا الضباب القارس ؛ إنه يسترها. وبعد أن مشينا وسطَ الندى وما تزالُ ذراعُ كلٍ منا تحيطُ بخصر الآخر، وشَعرنا الخفيف الأشعث ترطِّبهُ حبيباتٌ من الضباب، وصلنا إلى أيكةٍ ووقفنا تحت شجرةِ زانٍ لحاؤها أحمرُ اللون. ضغطني الجلاّدُ إلى الشجرة، ولكن برفقٍ، وهو يضحكُ كما لو أنها لعبة، كنوعٍ من التنمُّر الوديّ. وطوال الطريق الذي قَطعَه بخطواته الطويلة والثقيلة مثلها - من الممر إلى شاطئ البحيرة وسط الضباب، كان الجلاّد وحده يتكلّم. قال، وقد رَقَّقَ صوتَه الشديد الوضوح، الجديرَ بأن يجلو كلَّ الضباب في الغابة ببضع نفخاتٍ، وهو ينظرُ إلى العشب الرطب:

" الآن وقتُ طلوعِ الفِطْر. وقد نجد بعضه "

وبعدها بعشر ياردات:

" ألا ترغبُ في سيجارة؟ "

كان جسدُ إريك يضغطُ جسدَ الجلاد، الذي راحتْ ذراعُه اليمنى

(ذراعٌ كالفأس) تعصره. ولما كان الفتى لا يُجيب إلا بزمّ شفتيه ورفعِ رأسِه بلا مبالاة، قال الرجل:

" سأعطيكَ واحدةً فيما بعد "

فكَّرَ إريك، ولم يُصرِّح، قائلاً: " آخر سيجارة هي تلك التي يعطيك إياها الجلاد ". كانا تحت شجرة الزان. ثيابهما رطبةٌ وأقدامهما متجمِّدة. وغاصا في التربةِ المُشبَّعة بالماء. مدَّ الجلادُ ذراعيه وأمسكَ بإريك من كتفيه وأسنده إلى الشجرة. كان يضحك بدون صوت. وعلى الرغم من قوة عضلاته - وعظامه - كان يمكن للمرءِ أن يشعرَ أنَّ قوتَه كانت بشكل رئيسي سلبيّةً، وأنه قادرٌ على تحمُّل الخطر وليس على استدراجه، وعلى حملِ أكياسٍ ثقيلةٍ، ونشرِ الخشبِ طوال أيامٍ كاملةٍ، وعلى دفعِ سيارةِ شحنٍ غاصتْ في الوحل. كان من الصعب تصوُّره وهو يقاتلُ. لم تكن حركاته سريعةً أو تتَّصِفُ بالبراعةِ، وكانت إيماءاته معتدلةً جداً. وعادَ يسألُ:

" لا أظنُّكَ خائفاً؟ "

" لا. قلت إني لستُ خائفاً "

ظلَّ إريك هادئاً. إنه حتى لم يشعر بالغضب. كان انتباهه متمركزاً على رسغه. كان يسمعُ ساعةَ اليد تتكُّ.

فكَّرَ، " سوف أُعطيه الساعة. وهذا سيُنهي الأمر ". وفكَّرَ بصورةٍ غامضةٍ في أنه إذا اعترفَ بحيازته الساعة فسوف ينجو من أن يُخرَق. وطبعاً لا يُعقَلُ أن يرسلوا جلاداً ليعدمَ لصوص ساعات. هذا خوف أحمق.

" ليتني أستطيع أن أنزعَه... "

نجحَ في حلِّ الحزام. سقطتْ الساعةُ على العشب الرطب. شعرَ أنه

صار أنقى. إلا أنه لم يشُكَّ في نوايا الرجل. كانا قد سارا بضع ياردات أخرى، واتّكأ إريك على الجلاد.

على الرغم من البرد والرطوبة ومن شعوره بالقلق والاشمئزاز، كان إريك يهتزُّ نشوةً. وحدَثَ لديه انتصاب. ارتعشَ، وفجأةً، وبوحشيّةٍ، ضغطَ نفسه على الجلاد.

" آه! "

تلاشتْ ابتسامةُ الرجلِ، وبدا خلال ثلاث ثوانٍ متردّداً، ينتظرُ الإلهام، ولما قابلتْ عيناه تحديقَ إريك العابر، عادتْ فجأةً ابتسامته، عند زاوية فمه (فقط عند الزاوية)، ثم أضحَتْ أشدَّ وضوحاً، وثقةً، وحسماً.

قال " أنت جميلٌ "، مُحَرِّراً كتفَ إريك الأيسر من قبضته ومُداعبا وجنته بظاهر يده.

هكذا كان أشدُّ أشكالِ جان روحانيّة يمنَحُ مأوى كَثّ الشعر لحبِ جلادٍ برلينيّ وفتى نازيّ. فلنتابع المشهد. إريك والجلاد منضفران في عناقٍ، وجهاً لوجه. وتمزّقَ سروالُ إريك الداخلي. كان بنطاله الخاكي يسقطُ مُشكّلاً كومةً كثيفةً من الملابس بين ساقيه، وكان ردفاه وسط الضباب مضغوطَين على اللحاء الأحمر ؛ ردفان كهرمانيان ناعما البشرة، متعةٌ للنظر مثلَ الضبابِ الأبيضِ الذي لمادّته بريقُ اللؤلؤ. تعلّقَ إريك من عنقِ الجلادِ بكلتا يديه. لم تعُدْ قدماه تلمسان العشبَ الرطبَ، على الرغم من أنَّ بنطاله كان يلمسه، بما أنه كان قد وقعَ بين ربلتيه العاريتين وكاحليه. رفعه الجلاد، الذي كان أيره ما يزال متصلّباً وقد باتَ الآن مغروزاً بين فخذَيّ إريك، وغاصَ في التربة الكثيفة. كانت رُكبُهما تخرقُ الضبابَ. كان الجلادُ يحضنُ الفتى ويضُمُّه إليه وفي

الوقت نفسه يخرُقُه من الخلف ويسحقُ مؤخِّرتَه على الشجرة.. كان إريك يشُدُّ إليه رأسَ الرجل، وأدركَ الجلادُ أنَّ الفتى صلبُ البنية وعنيفٌ بشكلٍ هائل. بقيا في تلك الوضعية بضع ثوانٍ بدون حراك، الرأسان يضغطُ أحدهما على الآخر بقوةٍ، والوجنةُ على الوجنة. كان الجلاد هو أوّلُ مَنْ انفكَّ، لأنه كان قد أفرغَ شحنته بين فخذَي إريك الذهبيين، اللذَين كانا قد أضحيا مخمليَّين من ندى الصباح. لم يَدُم الأمرُ أكثر من برهةٍ، لكنها كانت طويلةً بما يكفي لكي تولِّدَ في الجلاّد وفي مُساعد الصباح شعوراً متزامناً بالحنان: شعرَ إريك بالحنان نحو الجلاد الذي كان يتمسَّكُ به من الرقبة بطريقةٍ يمكن أن تعني إلا الحنان، وشعرَ الجلادُ بالحنان نحو الفتى لأنه على الرغم من أنَّ الوِقفةَ حتَّمها الفرقُ في طول قامتيهما، إلا أنها كانت غايةً في السحرِ بحيثُ تدفعُ أمتنَ الرجالِ إلى الانفجارِ في البكاء. لقد أحبَّ إريك الجلادَ. أرادَ أن يُحبَّه، وشيئاً فشيئاً شعرَ أنه متدثِّرٌ بالتضاعيف الضخمة للعباءة الحمراء الأسطورية وفي الوقت نفسه اندسَّ داخلها بينما كان يُخرِجُ قطعةً من ورقِ الصحف من جيبه ويناولها بأدبٍ للجلاد الذي أخذها ليمسح بها أيره.

" أنا أحبُّ الجلادَ وضاجعتُهُ، عند الفجر! "

الدهشةُ ذاتها، التعجُّبُ ذاته، جعلا ريتون يقولُ شيئاً مشابهاً كثيراً حينَ أدركَ أنه يعشقُ إريك، في الشقة الصغيرةِ حيث استلقى بجوار البوخ الذي كان نائماً وفمه مفتوحاً. إنَّ كلَّ فكرةٍ من أفكاره، التي نشأتْ من إثارته وفي الوقت نفسه اقترحَتْها عليه، عذَّبت ريتون. في أوَّل الأمر ذُهِلَ لأنه حصلَ على انتصابٍ، بدون أي تحريضٍ آخر، بسبب إريك، الذي كان أقوى وأشدّ منه:

فكَّرَ قائلاً " مع ذلك، أنا لستُ شاذاً "، ثم تابعَ بعد هنيهة:

" ومع ذلك، يجب أن أكونَ كذلك "

هذا اليقينُ جعلَه يشعرُ قليلاً بالخجلِ ، لكنه كان خَجَلاً ممزوجاً بالفرحِ. خجلٌ مُشعٌّ. الخجلُ فيه امتزجَ بالفرحِ في شعورٍ واحدٍ كما يمزجهما اللون نفسه – القرمزي وأحياناً الأحمر الفاقع – وأضافَ، متنهِّداً:

" بما أني الطَرَفُ الفرنسي في الصفقة فإنَّ وضعيَ صعبٌ جداً! "

في الحديقة العامة، فكَّرَ إريك، بعد أن سحقَهُ الجلادُ:

" بدايةٌ عظيمةٌ ونجاحٌ حقيقي. إنه ليس جميلَ الطلعةِ ؛ إنه ضخمُ الجثةِ، كثيفُ الشعرِ، في الخامسة والثلاثين، وجلاد "

قال إريك هذا لنفسه ساخراً، لكنه في الحقيقة كان جاداً، لقد أدركَ خطورةَ مثل هذا الوضع، خاصةً إذا تمَّ قبولُهُ. وقد قَبِلَهُ.

" إني أقبلُ الأمرَ كلَّه بلا أي اعتراض. إنني أستحقُّ وساماً "

حينَ رفعَ بنطاله وثَبَّتَ أزراره، ناوله الجلاد عُلبتَه وأخذ إريك سيجارةً، بدون أن يقولَ أي شيءٍ، لأنه عَرَفَ لتوِّه أنَّ لفْتَتَهُ هذه كانت تعني شكراً لكَ على أناقة الأمر.

" أصدقاء؟ "

" ولمَ لا؟ "

" أحقاً؟ "

" نعم "

نظرَ إليه الجلادُ برقّة.

" سوفَ تكون صديقي "

حين تمَّ التعبيرُ عن الأمر بهذه الصورة كانتْ السِّمةُ العاطفيةُ

الألمانيّـةُ للقـاتل تخـاطبُ الروحَ الألمانيّـةَ لإريك، التي كـانتْ قـد بدأتْ تُجيبُ بما يُشبهُ الرعشـةَ الروحيّةَ، بما يُشبه الأمل.

" سأكونُ "

جعلَ بريقُ الفجرِ الرؤيةَ أوضحَ وسطَ الضباب.

" ألن تأتي لزيارتي في منزلي؟ "

كادتْ نبرةُ صوتِ الجلاّدِ تصبحُ نسائيّةً في اللحظةِ نفسها التي كَسَرَ بها غُصيناً صغيراً أو نَتَفَ قليلاً من الزغَبِ عن حافّةِ مخرجِ ضراطِ إريك وشدَّه قليلاً ليُمسِّدَ جعدةً صغيرةً جداً. وهذا التصرُّف الأوّل والمعقَّد قليلاً لمصلحةِ صديقهِ لم يدفع إريك إلى الابتسام إلا لاحقاً.

وقفَ إريك، وقد التحَقَ بـ divisionen (فِرَقْ) بانتزر، فوق أعلى سطحِ بناءٍ في باريس، في شقَّةٍ تخصُّ عائلةً من الطبقة الوسطى الفقيرة حيثُ تمركزَ الرجالُ الذين استدعاهم بحَذَرٍ، واحداً إثر آخر. آخرهم، وكان ريتون، قفزَ برشاقةٍ إلى الشُرفة، وحدَه، على الرغم من عَرْضِ الجنود يدَ المساعدة له. كانت ثلاثة أمشاط لمسدساتٍ آليّةٍ معبَّأةً تحيطُ بقميصه، وتدورُ حولَ الحزام ثم تصعدُ عبر الكتفَين، تقطعُ الصدرَ والظهرَ مرةً، مُشكِّلَةً رداءً رومانياً نحاسياً يبرزُ منه ذراعاه العاريان من المرفَق وحتى الكتف تقريباً، حيثُ لَفَّ كُمُّ القميصِ الأزرقِ ليغدو لفيفةً أضفَتْ على الذراع مزيداً من الأناقة. كان أشبه بدرعِ سلحفاة، كلُّ حرشفةٍ فيه رصاصة. هذه المُعدّات أثقلتْ مَنْ وزن الفتى، منحتهُ هيئةً ووضعاً هائلَين أسكراه حتى الغثيان. باختصار، كان يحملُ معه مؤونةَ الذخيرة. كان شعرُه غير المُسرَّح عارياً في الظلام، وفخذاه المبتلتان انحنيتا تحت وطأة درعِهِ وتعبه. كان حافي القدمَين. قفزَ بليونةٍ رائعةٍ واستقرَّ على أصابعِ

قدميه المنحنية، بأقلّ عونٍ من إريك الذي وصلَ إليه من الشُرفة. وتمسَّكَ بالمسدس الرشاش، تلك الآلة النحيلةُ، الداكنةُ اللون، والعملية تماماً. دخلَ إريك الغرفةَ من النافذةِ، وراحَ ريتون يجولُ في المكان بخفَّةٍ، على الرغم من كتلةِ المعدنِ الضخمةِ واستقرَّ، وهو فاغر الفمِ، عند حافَّة ليلةٍ مرصّعةٍ بالنجومِ فوقَ جسرٍ حديدي، متزعزع، بسيطٍ حتى الزهد تواجهه هاويةٌ من الظلامِ حتى إنه أحسَّ أنه يرتعشُ مع أشجارِ الكستناء، مع أنَّ أوراقها كانت لا تكادُ تتحرَّكُ. إنَّه بوليفار دو مينيلمونتان. مينيلمونتان، الحيّ الذي يقطنُ الفتى فيه.

جملةٌ: " إنَّ حزني في حضورِ حزنِ جان يكشفُ عن قوة حبي له! ". كلما ازدادَ حزني، ازدادتْ حِدَّةُ مشاعري. الآن، كثيراً ما يثيرُ تذكُّري جثَّةَ جان المسْوَدَّة والمُمَدَّدة في التابوت، بفتحتَيّ الأنف اللتين لعلَّهما مسدودتان والجسدُ يتحلَّلُ ببطءٍ وتمتزجُ رائحته بعبقِ الأزهار، يُثيرُ ألمي ويُفاقمه. إنَّ حزني يُفاقمهُ التفكيرُ في معاناة جان حين قُتِلَ، ويأسه حين شعرَ بأنه يفقدُ موطئ قدمه ويُغادرُ الحياةَ إلى عالمِ الظِلال، وحياتي اليومية تسيطرُ عليها ذكرى المشاهد الرهيبة، واستعدادات الدفن. إنَّ احتكاكي بالإسمنت يجرحُ حساسيتي بقسوة: شعارُ النبالة الأسود المُزَيَّن بزخرفةٍ فضِّيةٍ للحرف " د " الذي رأيته على عربة الموتى المنتظِرةِ أمامَ بوابة المستشفى، والتابوت والنوعية الرديئة للخشب، والترتيل في الكنيسة، والـ Dies Irae، والشريط الأحمر الدموي المتموِّج المكتوب عليه بأحرفٍ ذهبية: " إلى قائدنا، من حركة الشباب الشيوعي "، وملاحظات الكاهن بالفرنسية، هذه الأشياء كلها كانت سكاكينَ تقطِّعُ في قلبي. وهذه الجِراحُ كلها زوَّدتني بمعرفةِ حبي. لكنَّ جان سيعيشُ من خلالي.

سوف أُعيره جسدي. من خلالي سوف يتحرَّكُ، سوف يفكِّر. بعينيَّ سوف يرى النجومَ، وأوشحة النساء وأثداءهن. إنني أتولّى القيامَ بدورٍ فائق الخطورة. ثمة روحٌ في المَطْهَر وأنا أُقدِّمُ لها جسدي. بهذا النوع نفسه من الانفعال يقتربُ الممثِّلُ من الشخصية التي سيجسِّدها. قد يكونُ زوجي أقلّ بؤساً. إنَّ روحاً غافيةً تأملُ في تقمُّصِ جسدٍ ؛ وقد تكون الروحُ التي سيتقمَّصها الممثِّل في الأمسية جميلة. هذه مسألةٌ لا يُستَهانُ بها. إننا بحاجةٍ إلى أندرِ أنواعِ الجمالِ والوسامةِ لذلكَ الجسدَ المشحونِ بثقةٍ رهيبةٍ، لتلكَ اللفتاتِ التي تُدمِّرُ الموتَ، وليسَ كثيراً أن نطلبَ من الممثلين أن يُسلِّحوا شخصياتهم حتى درجةِ إثارةِ الخوف. إنَّ العمليةَ السحرية التي يؤدونها هي سرُّ التقمُّص. والروح، التي بدونهم ستكون رسالةً ميِّتةً، ستعيش. لا شكَّ في أنَّ جان كان يمكن أن يبقى حياً ولو لحظةً في أي شكلٍ كان، وكنتُ قادراً، برهةً وجيزةً، على أنْ أتأمَّلَ في متسوِّلةٍ فقيرةٍ عجوزٍ تنحني فوقَ عصاها، ثم في برميلٍ للقمامة يفيضُ بما فيه، وفي قشور بيض، وأزهارٍ متعفِّنةٍ، ورمادٍ، وعِظامٍ، وفي صُحُفٍ مبقَّعةٍ ؛ لم يمنعني شيءٌ من أن أرى في العجوز وفي برميل القمامةِ شكلَ جان الخاطف والرائع، وشَمَلتُهُما، في عقلي، ليس فقط بحناني وإنما أيضاً ببرقعٍ من التولِ الأبيضِ كنتُ أحبُ أن أضعَهُ على رأسِ جان الفاتن؛ برقعٍ مزركشٍ، وبأكاليلٍ من الزهور. كنتُ في الوقت ذاته أترأسُ قداساً في جنازةٍ وعُرسٍ، دَمَجْتُ اللقاءَ الرمزيَّ غير المتوقَّع للموكبَين في حركةٍ واحدةٍ. وحتى من هنا كنتُ قادراً، أو تقريباً قادراً، بتثبيتِ نظرتي ولزم الهدوء، على أن أُفوِّض قوايَ لصالح الممثِّل الشهير في نورمبرغ الذي كان يقومُ بدورٍ كنتُ أحثُّهُ على أدائه من غرفتي أو من مكانِ وقوفي

بجانبِ التابوت. كان يُفأفئُ، كان يومئ ويهدرُ أمامَ حشدٍ من قواتِ العاصفةِ المبهورين، المفتونين الذين لم يشعروا من فرط الإثارة أنهم الممثلون الإضافيون اللازمون لأداءِ العرضِ الجاري في الشارع.

في الواقع إنَّ من المستحيلِ على قداسٍ مسرحيٍّ أن يحدثَ في الحياة اليومية وأن يجعلَ أبسطَ التصرُّفات تُساهمُ في ذلك القداس، ولكن يمكنُ إدراكُ جمالِ تلكَ العروضِ حين تؤدَّى أمام مائة ألف مشاهدٍ إذا ما عرفنا أنَّ الكاهنَ الأكبرَ هو هتلرُ يمثِّلُ هتلرَ. وكان هتلرُ يمثِّلني.

انطويتُ داخلَ حزني، ومع ذلك أوليتُ انتباهاً شديداً للعرضِ، الذي لم يتوقَّفْ لحظةً واحدة. أصدرتُ أوامري من مكانِ وقوفي بالقربِ من التابوت. كانت الأمَّةُ الألمانيَّةُ برمَّتها تدخلُ في حالةٍ من النشوةِ عند الاحتفال بلُغزي. كان الفوهرر الحقيقي واقفاً بجانبِ فتى ميت. ولكنَّ كاهناً أعلى كان يؤدّي شعائرَ مهيبةً لأجلي ضمنَ ما يشبه السوق الهائل.

إذا كانتْ مشاعري حقيقيةً فقط من خلال وعيي بها، فهل يجبُ أن أقولَ إني كنتُ سأحبُّ جان أقلّ لو أنه كان قد وُلِدَ في الصين؟ وإنه لا جان الحيَّ ولا جان الفاتن الوسيم الذي أحمله في ذاكرتي كانا قادرَين على أنْ يكشفا لي عن أحد أشدّ المشاعر التي انتابتني إيلاماً، وحِدَّةً، في حين " يبدو " لي أنَّ جان هو المُسبِّبُ الأوحدُ له؟ باختصار، إنَّ حزني ذاك كله - وبالتالي وعيي لذلكَ الحبّ الجميل، وبالتالي ذاك الحب - ما كان ليوجد لو لم أرَ جانَ في حالةٍ من الرعب. ولو قيل لي إنه قد عُذِّبَ، لو أني رأيتُهُ في نشرة الأخبار يُمثِّلُ به أحدُ الألمان، لازدادَ ألمي لأجله ولتعاظَمَ حبي له. بالطريقة نفسها يزدادُ حب المسيحيين حين تزداد معاناتهم. وجُملة " حزني لموت جان كشفَ لي عن قوة حبي له " يمكنُ أن

يُسْتَبْدَلَ بها بـ " حزني لموت فضيلتي كشفَ لي عن قوة حبي لها ". إنَّ الرغبةَ في العزلة، التي تحدَّثتُ عنها بإيجازٍ قبل بضع صفحات، هي كبرياء . أريدُ أن أقولَ بضع كلماتٍ حول العزلة المثيرة للإعجاب التي صاحبَتْ رجالَ الميليشيا في اتصالاتهم بالفرنسيين وببعضهم بعضاً وأخيراً بالموت. لقد اعتُبِروا أسوأ من العاهرات، أسوأ من اللصوص والزبالين، والمشعوذين، والشواذ جنسياً، أسوأ من ذاكَ الذي، بغيرِ قصدٍ أو باختياره، أكلَ لحماً بشرياً. لم يكونوا فقط هدفاً للكراهية، بل والاشمئزاز أيضاً. أنا أحببتهم. لقد كان من المستحيل وجود علاقةِ رفقةٍ بينهم، اللهم إلا في حالةٍ نادرةٍ حين كانت تسودُ ثقةٌ كافيةٌ بين اثنين من الفتيان بحيث لا يخشى أحدهما أن يُفشي الآخرُ أمرَه في عالمهم الهامشي حيث يُعتَبَرُ الإفشاءُ مسألةً عاديةً، لأنهم، لَمّا كانوا مكروهين كالزواحفُ، انتحلوا أخلاقيات الزواحف ولم يجدوا حَرَجاً في ذلك. وهكذا كان قيام أية صداقةٍ بينهم أمراً غير مريحٍ، لأنَّ كُلاً منهم يتساءلُ: " تُرى ما رأيه فيَّ؟ ". كان من المستحيل عليهم أن يدَّعوا أنهم يتصرَّفون بدافع المثالية. مَنْ كان يُصدِّق ذلك؟ كان عليهم أن يعترفوا: " إني أفعلُ ذلك لأني جائعٌ، لأني سأحصلُ على بندقيةٍ وقد أسلبُ الغنائمَ، لأني أحبُّ أن أصرخ، لأني أحبّ أساليب الزواحف، باختصار، لكي أجد العزلة الأشدّ بثّاً للانقباض، إنني أحبُّ أولئك الفتية الصغار الذينَ لم يكن ضحكهم صافياً قط. أحبُ رجالَ الميليشيا. أفكِّرُ في أمهاتهم، في عائلاتهم، في أصدقائهم، الذين فقدوهم جميعاً بانضمامهم إلى الميليشيا. وموتهم عزيزٌ لديَّ.

كان أفرادُ الميليشيا يُجنَّدونَ أساساً من بين صفوف السفاحين، بما

أنه كـان عليـهم أن يتـحدُّوا احـتقـارَ الرأي العـام، الجـدير ببـورجـوازي أن يخشاه. كـان عليهم أن يتعرَّضوا لخطرِ اغتيالهم ليلاً في شوارع موحشة، ولكـن أشـدّ مـا جـذبنا أنهـم كـانوا مُـسلَّحين. وهكذا بقـيتُ طوال ثلاث سنوات أستـمتعُ برهافةٍ برؤيةِ فـرنسـا تعـاني الرعبَ على أيدي فـتيةٍ بين عمر السادسة عشرة والعشرين.

لقد عشـقتُ أولئكَ الفتـيـة الأشداء الذين لـم يأبهوا بالآمـال المحطَّمة لأمَّةٍ يمتزجُ بؤسُها، الذي يسـكنُ قلبَ كلِ إنسـانٍ، حالما يُفصِحُ عنه، يمتزجُ بانتـظامٍ بأحبٍّ مـخلوقٍ من لحمٍ ودمٍ إليـه. ولعـلَّ الفـتـيـة المُسلَّحين كـانوا يمتلئون إثارةً بتحركُهم ضمنَ هالةٍ من العار تحيطهم خيانتهم بها، ولكن كـان في نظراتهـم وإيماءاتهم مـا يكفـي من الجمـال بحـيث يبـدو عليـهم اللامبالاة بهـا. كنتُ سعـيداً برؤية فـرنسـا تذوقُ ألوانَ الرعبِ على أيدي فتيةٍ مسلَّحين، أسعدني أكثـر أنهم كـانوا محتالين وجرذان حقيـرين. ولو كنتُ فتـياً لالتحقتُ بالميليـشيـا. وطالما داعبتُ أجملهم، وغـالبـاً مـا وجدتُ فـيهم سراً مبعوثين من قِبَلي انتُدبوا ليـعملوا بين صفوف البـورجوازيين، ولينفِّذوا الجرائم التي منعتني الحكمةُ من ارتكابها بنفسي.

في الوقت الذي يُخرِّبني موتُ جان. د، ويدمِّرُ كل شيء في داخلي أو لا يتـركُ إلا الصـورَ التي تتـيحُ لي السـعي وراءَ مـغامـرات مُـهلكَةٍ، أرغبُ في أن أستـمدَّ متـعةً لا مـثيلَ لهـا من مشـهـد حبٍ بين أحد أفـراد الميليـشيـا وجندي ألماني. لقد كان من الطبيعي ولا شك بالنسبـة إليّ أن أقرِنَ محارباً أردتُهُ أن يكون فظاً برهافةٍ قدرَ الإمكان، بشخصٍ طبيعتُهُ الأخلاقيّة هي الأشدُّ خِسَّة في عيـون العالَم - وأحيـاناً في عينيَّ - ولكن كيفَ كان لي أن أسوِّغ هذا فـيمـا يخصُّ الصديق الأحبُّ إلى قلبي والذي

ماتَ وهو يحارب بطليَّ الاثنين، يحاربُ ما كانَ بطلايَ يدافعان عنه؟ ولا يمكنك أن تشكَّ في أمر الألم الذي يسبِّبه موته لي. لقد جعلني يأسي أخشى على حياتي بضعة أيام. لقد كنتُ في شدَّةٍ من الحزن لفكرة أنَّ جان ظلَّ ممدَّداً داخلَ قبرٍ ضيِّقٍ لأربعة أيام، وجثَّته تتفسَّخُ في تابوتٍ خشبيّ، حتى أوشكتْ أن أسألَ أحد العلماء:

" هل أنتَ واثقٌ من أنه لا يمكن إعادته إلى الحياة؟ "

إنني لا أرى حماقةً في طرحِ هذا السؤال حتى في هذه اللحظة، لأنه ليس صادراً عن عقلي وإنما عن حبي. وبما أني لا أجد عالماً حولي، وجدتني أطرحُ السؤال على نفسي. وانتظرتُ الجوابَ، وأنا أرتعشُ يحدوني الأملُ. والحق أنَّ الأملَ جعلَ كل شيء داخلي وحولي يرتعشُ. كنت أنتظر اختراعاً لا يمكنُ إلا للأملِ أن يصنعه.

ذلك الارتعاشُ كان رفرفةَ أجنحةٍ وهو مقدِّمةٌ للتحليق. أعلمُ أنه لا يمكن حدوثُ بعثٍ الآن ولا عندئذ، لكني لن أسمحَ ألاّ يضطربَ نظامُ العالم لأجلي. فكَّرتُ برهةً في أن أنقُدَ رجلاً، أو حفَّارَ قبورٍ، مالاً كي يُخرجَ من الأرضِ ما تبقَّى من الفتى لكي أحملَ بيديَّ عظْمةً، أو سناً، حتى أظلَّ على اعتقادي بأن أعجوبةً مثل جان ما زالَ ممكناً حدوثها. إنَّ عزيزي المسكين جان في الأرض. كنتُ سأسمحُ له بالعودةِ إلينا على أية صورة: على شكل قطعتين من الخشب الأسود المكسو تتخلّله شُعَبٌ من الرصاص الأبيض، ملصَقتين معاً، كغيتارٍ رائعٍ صامتٍ موضوعٍ على سريرٍ من العشب اليابس في ظُلّةٍ مصنوعةٍ من ألواح الخشب، بعيداً عن العالم، الذي لن يغادره أبداً، ولا حتى طلباً للهواء، ولا أثناء الليل، ولا خلال النهار. كيف كانت ستكون حياته وهي على صورة غيتارٍ بدائيّ بلا

أوتار وبلا ريشة، لا يمكنه أن يتكلّم ويشتكي من قسمته من خلال شقّ في الخشب؟ لا يهم. كان سيعيشُ ويوجَد. كان سيكون في هذا العالم وكنتُ سأكسوه بالكتّان الأبيض كل يوم. والحقيقة هي أنّ حزني الذي جعلني أهذي، ابتكرَ هذه الفوضى من الأزهار التي يشيعُ مرآها الفرحَ فيّ. كلما تحوّلَ جان إلى سمادٍ مُخصِب، ازداد عبق شذى الأزهار النامية على قبره.

إنّ شهوةَ التفرُّد وجاذبيّة المُحرَّم عملتا على تسليمي إلى الشر. والشرُّ، كالخير، يتمُّ بلوغُه تدريجياً بمعيَّةِ بصيرةٍ مُلهَمَةٍ تجعلك تنزلقُ لولبياً بعيداً عن الكائنات البشرية، ولكن غالباً ما يتحقَّقُ ذلك بالكدّ اليومي، الدقيق، البطيء، المحبِط. وسوف أضربُ بضعة أمثلة. فمن بين المَهامّ التي شملها هذا النوع من ضبط النفس كانت الخيانةُ هي الأشقّ عليّ. غير أني كنتُ أتحلّى بشجاعةٍ تثيرُ الإعجاب بحيث أبتعدُ أكثرَ عن الكائنات البشرية بسقوطٍ أعظم، بحيث أُسلّم أكثر أصدقائي تعرُّضاً للعذاب إلى الشرطة. لقد أحضرتُ المباحثَ بنفسي إلى الشقة التي كان مُختبئاً فيها، وأصررتُ على أن أستلمَ مكافأتي المالية على خيانتي أمام عينيه. طبعاً تلك الخيانة تُسبِّبُ لي معاناةً مبرِّحة، مما يكشفُ لي عن صداقتي لضحيتي وعن حبٍ أشدُّ عمقاً للإنسان، ولكن كان يبدو لي وأنا في خضمّ معاناتي، وبينما العار يحرقني حتى الفناء، أنه بقي وسط اللهب أو بالأحرى وسط دخان العار ما يشبه جوهرة خالدة ذات حوافٍ حادّةٍ تامّة، تدعى وعن حقّ بالعزلة. أعتقدُ أنها أيضاً تُسمّى كبرياء، وأيضاً مذلّة، وأيضاً معرفة. لقد قمتُ بعملٍ حرّ. على أي حال، كنتُ برفضي أن أدعَ عملي يتضخّم بفعلِ اللامبالاة، وأن أجعله مجّانياً

صِرفاً، عملاً نُفِّذَ لمجرّدِ المتعةِ، قد أكملتُ عاري. طلبتُ ثمناً لخيانتي. أردتُ أن أجرِّدَ أفعالي من أي جمالٍ يمكنُ أن تتَّصفَ به على الرغم من كل شيء. إلا أنَّ أبشع الجرائم تتـزيَّنُ بشيءٍ من النور حين تُرتَكَبُ بيدِ إنسانٍ وسيمٍ يعيشُ في الشمس وقد لفَحَ البحرُ بشرته بلون البرونز، وكان عليَّ أن أعتمد على قليلٍ من الجمال الجسدي لكي أبلغَ الشرَّ. فليسامحني الله على ما فعلت. ولأني أتصوَّرُ السرقة، والقتل، وحتى الخيانةَ تصدرُ عن جسدٍ برونزي، عضليّ، ودائماً عارٍ يتحركُ في الشمس ويتموَّجُ، فإنها تسمو بهذه النبرة الشائنة (التي كانت تجذبني) وتبحث عن أخرى أنبل وتكونُ أوثقَ صِلةً بتقديم الأضاحي للشمس. ولكن على الرغم من حياتي التي عشتُها في الشمس وجسدي الحيوي - الحياة التي كنتُ أعيشها منذ وفاة جان - ما أزالُ أنجذبُ إلى ما يُسمَّى بالناس الرزينين، الذين فيهم ما ينمُّ عن الظلام، المتلفعين بالظلام (حتى وإنْ كان الظلامُ هو أيضاً البريقَ الذي يشعُّونه). السُمر أو الشُقر بعيونٍ سوداءٍ، أو بوجوهٍ متوترةٍ، وابتسامةٍ خبيثةٍ، وأسنانٍ قذرةٍ، وقضيبٍ ضخمٍ، وشعر عانة كثيف. أشعرُ أنهم ينطوون على أرواحٍ خطرة.

" ما الروح؟ "

" إنها ذاك الذي ينبثقُ من العيون، من شعرٍ يتطايرُ، من الفم، من خُصَل الشعر، من الجذع، من القضيب "

إنها تتَّصِف بخاصيَّتين: فهي إما خيِّرة أو شريرة. روح إريك كانت شريرة. كان يقتلُ كلما كان القتلُ عملاً شريراً، ولأنه شرير. في أول الأمر فعل ذلك لكي يكون جديراً بالقَدَر الذي دلَّ عليه الرمزُ الغريب لأمَّةِ القراصنة تلك. إنَّ علامة الصليب المعقوف تنطوي ليس فقط على الرِفعة

الخاصة التي تثيرها الرايات الخطرة، وإنما أيضاً على الدمار والموت. ولا شك في أنه تغلَّبَ على أولى رعشات الاشمئزاز وشيئاً فشيئاً تعوَّدَ على فكرة كونه صديق الجلاّد. وفي الشقَّة الصغيرة في برلين حيث كان يقضي وقته عندما يكون بعيداً عن الثكنة، تعوَّدَ إريك على وسائل راحة معينة كان الشبان المنتمون إلى الطبقة العاملة من أمثاله يحلمون بها. كان صديقه يعامله باهتمام أمومي (متمثِّلاً بشكلٍ كاملٍ بحركةِ نقرِ حافة إريك) أكثر منه كعشيق، وكانت غطرسة إريك تتزايد في كل يوم. وكان يفاقمها انتعاله جزمة (كان يحبُّ سماع قرقعة العقبين). وكان الجلاّد يَدَعَهُ يلعبُ دور الذكَر في السرير. وعندما كان إريك يضغط نفسه على الرجل الأكبر سناً منه، متعلِّقاً من عنقه، يُدركُ أنه أشبه ما يكون بزائدةٍ نشطةٍ لوحشٍ جميل. وهذا لا يعني أنه هو كان يرغبُ في لعبِ دور الذكر. الحقيقة هي أنه دُهِشَ أيَّما دهشةٍ ذات ليلة حين انقلبَ الجلاّدُ وانطرحَ على بطنه وطلبَ منه أن يخرقه.

بعد فترةٍ من وصوله إلى باريس وقعَ بصرُ إريك، الذي كان في طريقه إلى الماخور وحده، على فتى الميليشيا عند مفترق أربعةِ طُرُق. كان الفتى يتقدَّمُ منه. ولكي يراهُ إريك عن قُربٍ ويستمتعَ بمرأى وجهه ابتعدَ عن مجموعةٍ من الجنود. كان يودُّ أن يغيبَ عن بصره للحظة، لكن الفتى قام فجأة بحركة انعطافٍ فظَّة إلى اليسار واختفى بين مجموعة من الأعمدة قبل أن يتمكَّن إريك من إلقاءِ نظرةٍ عليه.

كان ريتون قد لَمَحَ الجنديَّ، لكنه مشى في الاتجاه المعاكس بدافعٍ من التعقُّل. ولم يدرك مقدار المتعة التي كان يمكن أن يمنحها. وشعرَ إريك أنه أبله وهو وسط الحشد الذي بات فجأة خاوياً ومندفعاً بشكلٍ

يُثيرُ السُخريةَ نحو اللاجدوى. إنه لم يعرف قط حضوراً أقوى من غياب الفتى. وشعرَ بالإهانةِ لأنه كان لديه إحساسٌ بفرديّته. عادةً كان العالمُ من حوله يتكشّفُ له بوقارٍ، وتتباعدُ البيوت، وتهتزُّ الشوارعُ، وتُظلمُ السماء. إنك أحياناً تشعرُ بالاحترام لأنَّ الأشياء تدينُ لك أو لأنكَ أنتَ تدينُ لها.

حين رأيتُهُ أمامي، كانت الشمسُ تُدفئ الغابة. لم يكن يحملُ بندقيةً ولا سكيناً. ومن ابتسامته عرفتُ أنه صيّاد. ارتعشَ شعري. أمسكتُ بيده. ولكن في تلك اللحظة بالذات تصاعدتْ الصلاةُ التاليةُ داخلي:

" لا تدعني ألمسُكَ. إياكَ أن تكلّمني... "

أُصيبَتْ صورته داخلي بالدهشة. جبينه، حاجباه، كلٌّ منها كان غريباً، ولكن بشكلٍ طبيعي، كتقاطيع وجوه المُهرِّجين (فأرٌ رأسُهُ هو عينه، ورقةُ نباتِ الكرزِ عينُها هي ثمرةُ الكرز...)، وقطّبَ ما بين حاجبيه. شدّتْ الصورةُ على قبضتها استعداداً للضرب. لكني تابعتُ كلامي قائلاً:

"... إذ على المرءِ ألاّ يلمس الجمال. ابقَ بعيداً جداً عني... "

كانت يدي في يده، لكنَّ يدي كانت تبعدُ أربعة إنشات عن يد الصورة. وعلى الرغم من أنه كان يستحيلُ عليَّ أن أجرؤ على عيش ذلك المشهد (إذ ما كانَ لأحدٍ - حتى هو - أن يفهمَ ماذا يعني احترامي) كان لي الحقُّ أن أرغبَ في ذلك. وكنتُ كلما اقتربتُ من شيءٍ سبقَ ولمسَهُ تتّجه يدي نحوه لكنها تبقى على مسافة أربعة إنشاتٍ منه، بحيث تبدو الأشياءُ، التي حدّدتْها حركاتي، متضخّمةَ بشكلٍ خارقٍ، تنتصبُ منها أشعّةٌ مستقيمةٌ خفيّةٌ، أو مُكبَّرةٌ بصنوها الميتافيزيقي، الذي استطعتُ أخيراً أن أتحسّسه بأصابعي.

أيُ عرضٍ للقوة الهندسية كان هناك في زاويةِ الضوء، في ساقي الفرجار المتحركتين ولكن الثابتتين بصرامةٍ اللذَين كانت تُشكّلهما ساقاه، حين يمشي! أحياناً كنتُ أُقرِّبُ يدي من حافَّته، حرصاً مني على ألاّ ألمسه، لأني كنتُ أخشى أن يذوبَ أو يسقطَ ميتاً أو بالأحرى أن أموتَ أنا، بمعنى: كنتُ إما أُدركُ أني أغدو فجأة عارياً وسطَ حشدٍ يرى عُريي، أو تكتسي يدايَ بأوراقٍ خضراء أضطرُّ إلى أن أعيشَ بهما، أن أربطَ حذائي، وأحملَ سيجارتي، وأفتح الباب، وأحُكَّ جلدي بهما، وإلاّ عَرِفَ هو نفسُهُ عفوياً حقيقتي وضحكَ بمعرفته ذلك، أو أُفرِغَ خرائي في حضوره، وأنشرَه خلفي على التراب، حيث سيعثرُ على نُتَفٍ من التبن والأزهار الذابلة (سوفَ تحطُّ عليها ذبابات سوداءُ وخضراءُ وسوف يطردها بيده البيضاء والرخوة، وسيُبعدها عنه مشمئزاً وهي تحومُ حوله)، أو سوفَ أرى وأُحسُّ بإيري ينهشُهُ السمكُ إلى الأبد، أو ستسمحُ لي صداقة مفاجِئة أن أُداعبَ علاجمَ وجثثاً حتى تصلَ إلى الرعشةِ الجنسية، ولأجل إثارةِ هذه العذابات - وغيرها - قد يكونُ موتي هو بحَقّ تعرُّفي إلى عاري وهو يتبدّى في أداء تلك التظاهرات التي أشدُّ ما يتجلّى رُعبُها في حضورِ المحبوب. لذا رأيتُني على مسافةٍ منه.

بيدَ أني ولمرةٍ واحدة لمستُ شعرَهُ.

حدثَ ذلك في مُخيَّمٍ في رويِّيه. كان باولو ضحيةَ إعدامٍ ساخر. فذاتَ صباحٍ أُخِذَ إلى الباحة وأُوقفَ لصقَ الجدار. أخذه إلى هناك اثنا عشر جندياً. وصرخَ الضابطُ: " نار! " وأطلقوا. غَشَتْ غمامةٌ عيني باولو. وحين فُكَّ وثاقَه وأخذ يمشي، ظنَّ أنه يسيرُ وهو ميِّت. وبعد أن لمستُ شعرَ جان بأربعٍ وعشرين ساعة، شعرتُ أني أسيرُ وأنا ميِّت. بالأحرى كنتُ أطيرُ، أطيرُ بخفَّةٍ فوق حقولٍ من الإسفلت.

تلك اللقـاءات، التي لم تـكن قطُّ مـثـاليـةً، أثارتْ سـخطَ ريتـون، غـمَّـتـهُ، جعلتـه يشعـرُ بالغثـيـان. كـان باولو في السـجن، وهو نفسـه لم يستطع أن يستجمعَ شجاعته ليسرقَ ولم يكن يكادُ يغادرُ غرفته.

لقد انسحَبَ من المجتمع، وساعده الجوعُ على تنفيذ انسحابه. ظلَّ فـتـرةً طويلةً يُقـاسي منه، ومن البـرد، وهو في غـرفـةٍ صـغـيرةٍ لم يدفعْ إيجارها. وذات ليلةٍ شعرَ أنه ما عادَ يستطيعُ أن يتحمَّل. وبات جوعه من الشدّة بحيث كان يمكن أن يُغّذيه. شعرَ به في معدته وكأنَّ له قِوامَ طعامٍ يوشكُ أن يتمثَّل. كان يصعدُ أمواجاً من معدته إلى فمه، وهناك يخمدُ إرهاقاً من كونه مجرَّدَ رغبة. كان يتقلَّبُ في السرير ويحاولُ أن يفكِّرَ في باولو، الذي أعطاه الوشاحَ الذي كان مُعلَّقاً من مسمارٍ على الحائط. ولم تكن الصداقةُ ترفُضُ كونَه يمكنُ أن يحصلَ على ما يكفي من المالِ مقابلَ تلك الخِرقة الحريرية الباهتة اللون ليشتري خبزاً. لَمن يستطيعُ أن يبيعه؟ إنه تذكارٌ، لكنَّ ما كان باولو ليُمانع لو أن هذا الوشاح ساعدَ على التخفيف من وطأةِ جوعِ صديقه.

" لو أني أجرحُ ساقي لرأى أنَّ من الطبيعي بالنسبة إليَّ أن أوقفَ النزف حتى وإنْ تلفَ الوشاحُ بعد ذلك "

وصدرَ عن جسمه نداءُ استغاثة، وكأنَّ عضواً لُوِيَ قليلاً بيدٍ ماهرة. نهضَ واقفاً. ولما كانت الغرفةُ صغيرة سرعان ما أصبحَ عند الباب، وخرج. هذه الحركات القليلة وتلك التي قامَ بها ليهبط الدرج جعلته ينسى جوعه، ولكن حالما وصلَ إلى الجادة وبدأ يتساءلُ إنْ كان سيتّجه يساراً أم يميناً خطرَ له خاطر اندفعَ بسرعة حصانٍ يعدو، أي، انتابه إحساسٌ بأنه صُرِعَ بيدِ حيوانٍ ظافرٍ سيظلُّ يدوسه حتى يوم القيامة.

انعطفَ نحو اليمين. كانت الجادّةُ مُظلمةً، والأشجارُ في أوج حيويتها، وفرحها الجحيمي. الظُلمَةُ ذاتها كانت قاسية. ومشى ريتون. كان عليه أن يتّكل على حدوث معجزة. على عتبة نافذة طابق أرضي - نافذة البواب - شاهدَ قطة. توقّفَ ريتون وحملَ الحيوان بين ذراعيه حتى دون أن يداعبه. لم تند عن القطة حركةٌ، لكن الفرحَ كان قد بدأ يخفق في قلب الفتى. وانطلق إلى البيت، يحدوه الأملُ وبطنٌ بدأت تشبع لتوّها. كان ذكراً كبيراً وسميناً. وكانت الجريمةُ رهيبة.

حاولَ ريتون أولاً أن يقتله بمطرقة. كان لديه شعورٌ غامضٌ بأنَّ مَنْ يقتل يخفُّ ذنبه إذا كانت الضربةُ لا تشتمل على اشتراكٍ مباشرٍ ومتواصلٍ في الجريمة وذلك بالموافقة عليها في كل لحظة، وهكذا هوى بالمطرقة. فروُ القط فقط أُصيبَ. واختبأ القطُ تحت السرير. لكنَّ الغرفةَ كانت من صغَر المساحة بحيث أن ريتون سرعان ما قبضَ عليه. حاولَ الحيوانُ الأسيرُ أن يخدشه. صارعَ. لفَّ ريتون يدَه اليسرى بمنشفةٍ، وقبض على القط من ذيله، ثم سحقَ الرأسَ بالمطرقةِ بيده اليمنى، لكنّ عمودَ الحيوان الفقري كان من اللدانة بحيث أنَّ المخلوق تلوّى كأفعى متدلّية. ومـاءَ. شعرَ بالموت قادماً، شعرَ أنه حتميٌّ. حاولَ ريتون أن يضربه ثانية. أخطأ. ضربتْ الأداةُ الهواء. وضربَ. راحَ يوجّهُ الضربات العنيفة بوحشيّةٍ ويُخطئ.

" يا ابن الحرام "

جرى المشهدُ بصمتٍ من البداية وحتى النهاية. كافحَ ريتون بصمتٍ، الصمت الذي كان أيضاً يضجُّ بأفكارِ الفتى اليائسة، الإجرامية، وبرعب القط، الذي بدا أنه أصبحَ هو العدو الأكبر بسبب رغبته المجنونة في أن يعيشَ، على الرغم من كل شيء، المهارةَ التي تَجَنَّبَ بها جسمه

الضربات، وبفروه، المفعم بالنعومة والرقَّة الحيوانيين اللذين يحميان الحيوان لكنهما أيضاً يشعَّان إلى الخارج بواسطة الفرو ووصلا حتى عمق روح ريتون. كان البحرُ يملأ الغرفةَ، وهديرُ الأمواج يُسبِّبُ الدوارَ للفتى. كانت القطة ذكراً كبيراً رماديَّ اللون حتى كان يودُّ لو يداعبه. أكادُ أرى بوضوحٍ الفتى يرفعُ القط، الذي يصعدُ إلى كتفه ويظلُّ ساهراً حزيناً بجانب وجهه. يجلسُ ويخرخر.

أصبح تفكيره في شنق القط، الذي وُلِدَ في وقتِ قتله نفسَه بالمطرقة، أكثر دقَّةٍ، لكنَّ ريتون لم يُرِدْ أن يدعَ الحيوان وشأنه وأخذَ يبحثُ عن حبل. فكَّ حزامَه، وسحبَه من حلقاتِ بنطاله، ثم صنعَ أنشوطةً منزلقةً بيدٍ واحدة. كان القطُّ ينتظرُ بصمت. وضعَ ريتون قدَمَه على الرأس الصغير وشدَّ طرفَ الحزام، لكنه لم يشنُق الحيوان، الذي ظلَّ لدناً وحيوياً كما كان. كان ريتون مُغلَّفاً بتضاعيف نومٍ مُهدهدٍ كريه. ثبَّتَ الحزامَ بالمسمار وشنقَ القط، الذي راحَ، وقد استعادَ قوَّتَه، يخدشُ الجدارَ، محاولاً أن يرتقيه. وفجأةً هزَّتْ جسمَ الفتى ارتعاشةٌ عظيمةٌ، ارتعاشةٌ تعمَّقَت وغدَتْ أكثر تحديداً حين خطرَ له أنَّ الجيران يقفون عند الباب، يتنصَّتون عبر الجدار، وعرفوا بأمر جريمة القتل لا لأنهم سمعوا صرخاتَ وأنينَ وتوسلات الضحيَّةِ، وإنما لأنَّ جريمة القتل ذاتها كانت تشحنُ الغرفةَ، مثل أنبوب كروكس[٩]، بعناصر رقيقة تنفذ خلال الجدران بشكلٍ أفضل من أشعة إكس. ثم أدركَ عبثَ الفكرة وتابعَ الضربَ بيدٍ بينما أمسكَ بالأخرى البنطال الساقط. كان القط يزدادُ حيويةً باطراد، وقد تكثَّفَتْ حياته بفعل الخطر، والألم، والخوف. لم يكن قد نزفَ أي دمٍ بعد، وتعبَ ريتون. ومن ثم عاوده القلقُ من أن يكونَ الشيطان قد تلبَّسَ

الحيـوانَ، فـهـو أحيـانـاً يتـبـدَّلُ إلى شكـلِ قطٍ، لكي يدخل بيـوت الناس بسهولةٍ أكبر.

" إنْ كان هو الشيطان، فأنا هالك! "

فكَّرَ في أن يُنزِلَه، لكنه خافَ أن ينهضَ الشيطانُ ويبقرَ له بطنه بإصبعٍ على شكل خطَّاف. وتقولُ الحكايات إنك إذا أسقطتَ ثلاثَ قطراتٍ من الماء المقدَّس على قطٍ فإنَّ الشيطانَ سوفَ ينتحلُ شكلاً إنسانياً. لا يوجدُ ماءٌ مقدَّس في الغرفة، ولا حتى رافدةٌ من صندوقٍ، ولا حتى صورةٌ للعشاء الأول. ماذا لو رسمَ إشارةَ الصليب؟ سيظلُّ الشيطانُ معلَّقاً وربما احتفظَ، على الرغم من انتحاله شكلاً إنسانياً، بحجمِ القط. ماذا سيفعلُ بجثةِ شيطانٍ بذاك الحجم؟ وهكذا لم يجرؤ ريتون على القيام بأي حركةٍ مخافةَ أن يقومَ بدون قصدٍ برسمِ إشارةِ الصليب على القط.

سمعَ عن بُعدٍ صوتَ دوامة خيل للأطفال، في الجادَّة.

" إنها جرارة "

بدا كأنَّ الضجيجَ يهدرُ في رأس الفتى.

وصلَتْ حركةُ الدوامةِ إلى ذروتها ثم راحتْ تُبطئ بصورةٍ ملحوظة، ثم أبطأتْ أكثر. بدتْ وكأنها قد أُرهقَتْ، كإرهاقِ يدٍ من استمناءٍ مُدَّ أمده طويلاً وأوشكَ أن ينتهي بالرعشة. أفرغت الدوامة حمولتها كفتى نشط.

على الشرفة، لم تُعِقْ أدواته حركاته إلا قليلاً، إذ على الرغم من أنَّ أمشاط المسدس الرشاش كانت مربوطةً حول صدره بحزمٍ، إلا أنَّ تنفُّسه سرعان ما أرخى التوتُّر قليلاً وحرَّرَ صدرَه. مدَّ يده إلى جيب بنطاله ليُخرِجَ سيجارةً. لم يجدْ غير بضعة أعقاب، واستعادت خيبته الصفاءَ الذي كان التعبُ والمغامرةُ قد أزالاه. كان التعبُ يخدشُ قلقَه لكي يرتاح.

" إنها الأعقابُ الأخيرةُ، بلا أدنى شك. الفرنسيون لم يعُدْ لديهم أي شيء. لا طعام. لا سجائر. لا شيء يؤكلُ. ولا حتى أحذية ".

أحسَّ بقدميه الحافيتين على حديد الشرفة. كانت معدته تقرقعُ. عُري قدميه ورِقَّتهما ولحمُ ذراعيه جعلَ الجنودَ الألمانَ يخضرُّون من شدَّة الغيرة وهم يراقبونه، جعلهم يتصوَّرونه حيواناً ذا جسدٍ غايةٍ في الهشاشة يبرزُ من بضعة ثقوبٍ من قوقعته الواقية. كان موجوداً في مينيلمونتان، فوق تلٍ، ليس بعيداً عن شارعه، منضفراً من حزامه وحتى عنقه بلفائف تلمعُ بصمتٍ دَفَعَهُ الفرنسيون إلى حملها. وعندما غادروا قبو المنزل، الذي كان يُستَخدَم حتى وقوع العصيان المسلَّح كثُكنة من قبَل الفرقة المُبادة، كان رقيب البوخ قد قرَّرَ أنَّ فتى الميليشيا لن يقومُ بأي إطلاقٍ للنار. ولفَّوه بطلقاتِ الرصاص. وفجأةً اكتسبت ذراعاه العاريتان وساقاهُ رقَّةً ووسامةً مَلَكيين، بمعنى، وسامةً ورقَّةً جديرتين بملك عندما يبرز برهةً من درعٍ لا يزيدُ تألُّقاً عن جلالته إلا بقدرٍ يسير. وأصرَّ على الاحتفاظ بمسدَّسه الرشاش.

" هيا، أيها الرقيب، اترك لي الطاخ-طاخ خاصتي "

نظرَ إلى الألماني من زاوية عينه، ومع أنه كان يمزحُ، إلا أنَّ نظرته الداعرة كان فيها الكثير من المناشدة - يرى المرءُ مثل تلك النظرةِ في تحديق أنواعٍ معيَّنةٍ من الكلاب حين تُضفي جاذبيَّةُ الظروف، واقترابُ الموتِ أو الخطرِ، على عيونها ومضةَ توسُّل (شعاعاً واحداً) - حتى إنَّ الرقيبَ ابتسمَ باستمتاعٍ لِما وجده من تباينٍ ما بين العينين والفم. وبسرعةِ طلقة، حملتْ ريتون ساقاه مسافةَ ياردتين إلى الخلفِ، بجوار الجدار حيث كان المسدس الرشاش مُلقَى، لكنَّ الجذعَ، الذي برزَ منه

ذراعان عاريان، كما يبرزُ صِبْيَةُ السفينة من بابٍ أرضيٍّ من بارجةٍ حربيةٍ، تجاوبَ مع رشاقةِ الساقين ببطءٍ وثقلٍ فخيمَين، وعندئذٍ فقط خَطَرَ لريتون أن ينظرَ إلى نفسه في المرآة. استدارَ نحو الحائط غريزياً: لا توجدُ مرآة. ثم تحسَّسَ جسَدَه. مرَّرَ يديه فوقَ سطح المعدن، وهو يمسُّ برفقٍ ارتعاشَ الطلقات. كانت القذائفُ تُمْطِر في كل مكان حول المنزل وتنفجر على الجدار، وكان يمكن أحياناً سماعُ سقوطِ شظايا منها على الأرض. في القبو، كان الجنودُ الألمانُ السبعةُ مشغولين بالإعداد لهروبهم. (كان من المستحيل الدفاعُ عن المنزل وكان عليهم أن يُعجِّلوا بالانسحاب، وأن يحاولوا الوصول إلى الأسطح. وكان مَنْ بقيَ في الغرفة قد فرَّ عن طريق المجاري) كانوا باستمرار ممسوسين بالفكرة السرِّية القائلة إنَّ ثمةَ خطراً أعظمَ من المعركة التي هم مركزها. كانوا قلَّما يتبادلون الكلامَ فيما بينهم ولا يكادُ يساعد أحدهم الآخر. وكما رآهم ريتون كانوا سبعةَ شبانٍ عيبُهم الوحيد أنهم يبالغون في الثقة في أنفسهم.

كان وهو واقفٌ بدون حراك أمام الجنود، هشاً، وأيضاً وسيماً، أشبه بعصا من خشب البندق أُسنِدتْ - وقد أهملتها يدُ راعي بقر فتى دخلَ لتوِّه إلى ملهى - إلى قرونِ ثورين مستَعبَدَين لا حراك بهما، وإلى منخريهما اللزجين.

كان الرقيبُ قد أمره أن يخلعَ حذاءه ومنذ ذلك الحين وهو حافي القدمين. وفي تلك الأمسية على الشرفة عند البحر في مينيلمونتان، ومسدسه الرشاش موضوع إلى جانبه، فكَّر:

" ومع ذلك، إنه شيءٌ فائق الروعة "

لقد كانَ هدفاً لجيشٍ كاملٍ من الجنود، كان يودُّ لو يعرض نفسه

عليهم عند الفجر، وهو واقف فوق سطح في تلك الحلّة البرّاقة التي أحاطه البوخ بها. تناول مسدسه الرشاش وجلسَ بضع لحظات ساكناً. ودوّتْ طلقةٌ، ربما من السقف، ربما من الأسفل.

" ماذا لو أنه إنسانٌ وحيد؟ أمرٌ مريعٌ حقاً. مسكين "

فكّرَ بشكل عابر في رجل الميليشيا الوحيد فوق السطح، لكنه وحيدٌ مع سلاحه. حين يكونُ المرءُ وحيداً يكونُ فقط نفسه. ومع سلاحه يكون هناك مَنْ يشاركه في العزلة، يكونُ المرءُ عندئذٍ نفسَه وواجبه. نفسه وأيضاً... شخصاً آخرَ خفيّاً لكنه حاضرٌ ويُغيِّرُ اسمه حسب الحالة. نفسه وأيضاً... النصر أو الموت. وحده يستطيع الإنسان أن يتصرّف. فإما أن يستسلم أو أن يفرّ لا يلوي على شيء ما دام ليس مُسلّحاً. إنَّ العدوَ لا يلاحق المحاربَ بقدرِ ما يلاحقُ ما يجعلُ منه محارباً: سلاحه. وليس صحيحاً أنه يمكن للمرء بسهولة أن يتخلّى عن بندقيته، أو مسدسه الرشاش، أو سكينه ويفرّ. وإذا حدث تبادلٌ في الفتنة بين السلاح والمحارب طِبقاً لشعائرَ معيّنة، إذا كُرِّسَ بالقتال وبهيبة الرئيس، تتشكّلُ روابط بين السلاح والمحارب، روابط يصعُبُ على الرجل أن يقطعها إذا كان هو نفسه شجاعاً، وشجاعته تقوده - وما أسعدني بذلك! - إلى حتفه.

" مَنْ عساه يكون؟ لعلّي أعرفه. مَنْ يدري. لا يهمّ. إنه يفعلُ ما أفعلُ، وهو غارقٌ في الخراء ويقوم بما في وسعه "

كان ريتون ينتقلُ من فكرةٍ مؤلمةٍ إلى أخرى، كراهبٍ يندفعُ، ليلاً، بالقرب من سيلٍ يجري بمحاذاة مراحل الصلب[1]، منتقلاً من مرحلةٍ إلى مرحلة ليركعَ أمام الصخرات التي تومضُ على ضوء صباحٍ باهت. إنَّ الرحاب التي يتحرّكُ ضمنها ريتون والراهب متطابقةٌ: حجارةٌ قد تبرزُ من

بينها ماسورة بندقية، وتلمعُ أشواكُ سوداءُ لها أحداقُ سوداءُ، والهديرُ المدمِّرُ للسيل.

ولكي يكونَ واثقاً من نفسه وأيضاً لكي ينفض عنه أفكاره، الرخوة، وضعَ قبضته على وركه وحاولَ أن يقوِّسَ ربلة ساقه، لكنه كان واقفاً على كاحلين عاريين. على أي حال ضربَتْ قبضَتُهُ درعَهُ الصلبَ وكان ذلك كافياً لجعلهِ واعياً بحدَّةٍ أكبر لقيمة اللحظة. شعرَ أنه يحملُ تحتَ الدرعَ قلباً من برونز، وتمنى لو يموت، لأنَّ البرونز خالد. هذه المرة كان أشدَّ وسامةً من الشخص المدفون تحت الأرض، الذي قبضَ عليه هو ورئيسُه. كان، وسط الظلام، وهو يستشرفُ المدينةَ التي تنبضُ بنهارٍ فائق الجمال لكنها ما تزال غير متأكِّدة من نتائج النصر، كان لديه وعيٌ خارقٌ بتحوُّلِه إلى إحدى تلك الشخصيات المرعبة، الثاقبة النظرات التي دُرِّبَتْ حركاتها مطولاً استعداداً للقتال وزُرِعَت رُكَبُ أقدامها ومرافقُ أذرعها بالنِصال[11]. إلى تنِّين. إلى كمير[12]. شعره مسموم. بطنه تجيشُ بضراط مضغوطٍ لا يجرؤ على إطلاقه، لأنه سمعَ الجنودَ المجاورين له في الظلام يُعِدُّون العدَّة لأجل الليل. أرسلَ ابتسامته عبر باريس وهو يفكِّرُ في أنه كان جديراً بأن يدفعَ الأمهات إلى الجنون رعباً لو رأينَهُ يداعبُ وجنةَ أحد الفتية.

" أتمنى أن أكونَ أحد الذين يدفعونَ الأمهات إلى البكاء! "

تلك الملاحظة قالها ذات مرة الـ bataillonnaire، صديق باولو، وكان قد جلبها معه من أفريقيا. كان وحده على شرفة الطابق السادس تلك على الرغم من وجود الجنود الألمان. شعرَ بحكَّةٍ خفيفةٍ بين ساقيه واضطرَّ أن يحكَّ. وبينما شوَّهَتْ وقفَتُهُ الاستثنائية أدقَّ التفاصيل فإنَّ عضوه وما

يحيطُ به من شعرٍ كثٌ بدا له فجأةً أشبه بحجرٍ في قاع البحر، مُغلَّفٍ، وهو وسط الأشنيات، بمحارةٍ صغيرةٍ جَعَلَتْهُ أصلبَ، وعادَ به ذهنُهُ إلى مشهدِ إريك وهو يقومُ بالحركة ذاتها، ثم إلى قضيب إريك تحت بنطاله الأسود الذي تخيَّلَه نُصُباً أثرياً ضخماً آخرَ مُغطًى بالطحلب ومُرصَّعاً بالطفيليات القشرية القاسية والرمادية اللون.

" حين يبدأ إطلاق النار سيحلُّ الجحيمُ ". هكذا فكَّرَ يغلبه نعاسٌ خفيفٌ قلْقَلَ وِقْفَتَهُ. أفاق دهشاً. واستعادَ في لمح البصر هيئته.

قال لنفسه: " أنا في مأزق، بدون أدنى شك "

أدركَ حالته المُزرية. هناك في الأسفل، تحت قدميه، تحت البصاق - وبصقَ على الأشجار - ثمة الأرضُ حيث يمكنُ للفرنسيين أن ينتشروا، على الرغم من أنَّ عليهم أن يكونوا حذرين نوعاً ما.

" ومع ذلك، إنهم أخوة لي "

لكي يفكِّرَ استخدمَ كلمة " أخوة " التي تنتمي إلى لغةِ السفاحين العاطفية. شعرَ بأنَّ هذه الفكرة هي النقطة المركزية، المثالية لعزلته. وعلى الرغم من أنها فقدتْ بعضاً من دقَّتها من كثرة التداول، إلا أنها ظلَّتْ في منبعِ وضعهِ المُحبِط.

أخذَ ما يلي يتلبَّسُ شكلاً حولها: " لقد تخلَّيتُ عن إخوتي، وعائلتي، وأصدقائي، ورحتُ أركضُ هنا وهناك، في الشوارع. هربت إلى الأسطح. قتلتُ فرنسيين كلما استطعت. حاولوا أن يقتلوني. أطلقتُ الرصاص على كلِّ ما يلازمني. وهذا المساء سأقدِّمُ خدمةً إكراماً للحب. لقد انحزتُ إلى صف الوحوش، إلى الملوك. وسوف أقتلُ. فأنا خائن. إنني منذ الآن منبوذٌ ومُدان. أنا وحيدٌ أقفُ على منصَّةِ سفينةٍ تغرقُ.

المدينة برمُتها تكرهني. الحجارة، الجدران، والدرابزين الذي أميل عليه الآن يمكن أن ينهارَ ويقتلني. أشعرُ بألفةٍ في بلدٍ أجنبي. هذه الشقّة تخصُّ العدوّ، بيتٌ لفرنسيٍ ذهبتُ وإياه إلى المدرسة. إنني أخسرُ مزايا كل الألعاب، وكل الفتيات. أنا وحيد. أمي تريد أن تقتلني. إنها تُسدِّدُ إلى إحدى عينيّ. إنني أُقاتلُ لصالح ألمانيا ". وكنتيجةٍ للتفكُّر في الملاحظة الاستهلالية وبالتالي كشف كافة جوانبها، التي غَبَشَتْ بفعل السرعة، أعتَمَتْ كإعتام قمّةٍ، وخفَّتْ كذيلٍ من الضباب، ولما جَعَلَتْها سرعةُ الدوران تختفي، وعى ريتون برهةً عزلتَه، ومقدار عُلُوِّه على الشرفة. ضَغَطَتْ ذراعه اليمنى على مسدسه الرشاش الأسود، الذكي والبارع، المُستند إلى وركه. كان يحمله بيدٍ واحدة. وبالأخرى راحَ يُداعبُ جذعه، الذي أحسَّ به لدناً وهشاً من تحت صفيحة الصدرِ النحاسية.

ذات صباح، حين دخلَ الرئيسُ ثكنة رجال الميليشيا قبل أن يستيقظوا، شمخَ بأنفه وصرخ:

" المكان هنا يفوح بالاحتشام! "

فكَّرَ ريتون، وقد احمرَّ خجلاً:

" لعلّي المقصودُ بالاحتشام "

" إه! "

أجفَلَ. حسبَ أنَّ أحداً يخاطبه.

" إنني أسمعُ أصواتاً، مثل جان دارك "

إنَّ الفتاة قد تكونُ عذراء، ومع ذلك تمرُّ بدورات الطمث. وفي الأمسية التي سَبَقَتْ إعدامها، ارتدتْ جان رداءَ الإعدام الأبيض. وجرى الدمُ من بين ملتقى فخذيها. وفي ظلام زنزانتها أخذت تتلمّسُ لتغتسلَ

من الدلو الذي كانت تشربُ منه. ولما لم يكن لديها قماشٌ كتّاني غير قميصها التحتيّ مزّقته لتصنعَ ما يشبه الحشوة وضعتْها بين ساقيها. وبينما يدها اليسرى ترفعُ رداءها الأبيض، راحت الأخرى تكتبُ إشارات مقدّسة على الظلام، واختلطت إشارات الصليب بإشارات النجمة الخماسية (أو استمرّتْ معها)، برسوم التعاويذ. استلقت على القش جرّاء ما نالها من التعب والإرهاق وما أصابها من رعبٍ لدى رؤيتها الدمَ الذي تدفّقَ في سياق المأساة التي ظلَّ القاتلُ والضحيّةُ فيهما خفيّين. غطّتْ ساقيها احتشاماً بالرداء وصلّتْ، وهي توزّعُ توسُّلاتها على الله، ومريم، وقديسيها بعباراتٍ سحريةٍ مستعينةً بالأرواح الجحيمية كما نصَحَتْها ساحرات لورين أن تفعل. رقدَتْ ساكنةً، ولكن لما لمْ تمنع الحشوةُ تدفُّقَ الدم انطبع الرداءُ، الذي كان مسبقاً قد تبقّعَ بلطخٍ واضحةٍ نوعاً ما وتهدّلَ في تجويف الساقين المضمومتين بتدبُّر، انطبعَ في الوسط ببقعة دمٍ واسعة. في اليوم التالي، وفي حضور الأساقفة الموشّين بالملابس المُذهّبةِ والرجال المسلّحين الحاملين رايات الساتان والرماح الفولاذية، ارتقتْ جان دارك المحرقة من خلال فتحةٍ ضيّقةٍ بين حزَم العصي ووقفَتْ تفضحُها تلك الوردة الصدئة عند مستوى الكس.

في الساعة الثامنة، بالضبط عندما كانت سيدتها تستيقظُ تحت الأزهار، خرجت الخادمةُ الصغيرةُ ومشَتْ بمحاذاة مدرَّج المستشفى المتجمّد وانتقلتْ إلى ضوء الشمس الساطع. مشَتْ خلفَ عربة الموتى. كان الكاهنُ قد وصلَ راكضاً. كان قد تأخَّرَ، لكنه وصلَ، ففي القرى يحضرُ الكاهنُ دائماً عند حمل الجثة. إنْ كان المتوفى يقطنُ في مكانٍ يبعدُ كثيراً عن منزل الكاهن، عندئذ يسعدُ رجالُ الدين أن يختصروا نصفَ

الطريق. والعائلةُ وهو، وهما سفراءُ لملكَين متنافسَين لامعَين بقدرٍ متعادلٍ، اختاروا مكاناً على الطريق، وسط الحقول، يلتقي فيه الموتُ والله. كان الكاهنُ مصحوباً في ذلك الصباح باثنين من أولاد الجوقة كانا يسيران في مقدِّمة عربة الموتى التي تضمُّ التابوت الصغير، المُزيَّن بإكليلٍ من اللؤلؤ الزائف على شكل نجمةٍ زرقاء وبيضاء. هاأنت فهمتَ أنَّ أصغر أولاد الجوقة، ذا رداء الغفارة الأسود والمدْرَعَة البيضاء المزركشَين بشريطٍ عريضٍ من التخريم القديم، سيكون له وجه ريتون وللآخر وجه إريك. وخلف عربة الموتى سارت الخادمةُ، يتبعُها مساعدُ الحانوتي.

" عربة الموتى سلَّةٌ[١٢]. وأنا خلف السلَّة "

كانت قد توجَّهتْ إلى المستشفى في وقتٍ مبكِّرٍ جداً، وعندما عَبَرَتْ الرواقَ الذي فتحَ بابَه لها بوابٌ ناعسٌ، وجدَتْ نفسها في أشدّ ما رأتْ من حدائق إزهاراً، مزيَّنةً بريشِ الفجر (حين وصلتْ كانت الساعةُ قد بلغَتْ السابعة). رأتْ عربة الموتى المُخصَّصة للفقراء، وبدَتْ لها أشبه بهيكلٍ عظميّ لعربةِ الأغنياء ؛ ولم يؤلمها ذلك. كان يجرُّها حصانٌ مجرَّد من الشعر، عصيّ على الوصف، وكانت تنتظرُ عند باب المدرج. دخلتْ الخادمةُ. حيّاها خادمُ المدرج بهدوءٍ شديد. كان يتسامرُ مع السائق ومساعد الحانوتي. قال السائق للخادمة:

" جئنا مبكِّرين قليلاً. سنأخذُ الحمولةَ في السابعة والنصف "

فكَّرتْ الخادمةُ: " إنهم يدفنون بعربة البريد "، ومع أنه كان تفكيراً صامتاً إلا أنَّ السائقَ سمعه، لأنه أضافَ قائلاً: " إنني أتحدَّثُ عن حمل الجثة، طبعاً "، وتنشّقَ ومسحَ بكُمِّه القطرةَ التي كانت تتدلّى من أنفه. ومن ذروة روح الخادمة، من أنبل جزءٍ منها، الجزء الذي لم يستسلم إلى

الحزن، نفِدَ صبرُ صوتٍ عصبيٍّ وصرخَ: " هدوووء. هدوووء ". لكنَّ الفتاة المسكينة نفسها لم تسمع إلا همهمة ولم تفهم معناها. وبيدين ثقيلتين، تشقَّقتا من الغسيل، أحكمَتْ شدَّ برقعِ المدام الكريب كما يُشَدُّ شالٌ حول الكتفين. سارت بكثيرٍ من الخِفَّة، وبصمت.

" إنني أسيرُ بخفَّةٍ كبيرةٍ ؛ وبين مساكب أزهار المَلكْ "

أجبرها فقرها وأجرُها الضئيل على ارتداء حذاءٍ ذي أخمصَ من المطاط. في تلك الغرفة البيضاء العارية، كانت اللُمبةُ الكهربائية موضوعة في الزاويةِ ما بين الجدار والسقف، والتي كان الظلُّ المفرط الطول للخادمة الضئيلة والحزينة يلمسها على الجدارِ المقابل. كان التابوت، الذي تُسجَّى فيه أختها الطفلة، يستقرُّ على حاملين أسودين واطئين.

" إنها نائمة، عزيزتي الصغيرة المسكينة "

كان يسود ما يكفي من الصمت لتسمع حولها نقيق الضفادع التي تقفز وتغوصُ في ماء المستنقع الغارق في الضباب الذي كانت ما تزال تقفُ فيه. كان التابوت مغطًّى بملاءةٍ بيضاء وَضعَت عليها المرضات إكليلَ اللؤلؤ الصغير ذا شكل النجمة الزرقاء والبيضاء وكانت المدام قد أرسَلَتْهُ في اليوم السابق. كان هناك تمثالٌ من الصيني القرمزي لطفلٍ ممتلئ يطفو وسط اللؤلؤ الزائف ويهتزُّ عند طرف سلك قصدير. بعد أن رتَّلَتْ الخادمة قليلاً " بوركتِ يا مريم "، اتَّكَأتْ على الجدار طلباً لمزيدٍ من الراحة ريثما يحضر الكاهن. وحضَر. حين وصلَ الموكبُ إلى الكنيسة كان عليه أن ينتظر في أحد الأركان حتى نهاية المراسم الدينية لجنازة أحدَ عشرَ جندياً ألمانياً كانوا قد قُتِلوا قبلها بيوم. كان يجب الانتظار ثلاث ساعات. واستعصى البكاء على جوليت.

فكَّرَتْ " سيظنّون أني لست حزينة "
" سيظنّون أني لم أكن أحبُّ طفلتي الصغيرة "
" قد يظنُّ الناس أني قتلتُها، مَنْ يدري "

نظرَ جنودُ الفرقة المصاحبة لرفاقهم الموتى إلى المرأة الصغيرة بملابس الحداد الواقفة بالقرب من الحبال المُعلَّقَة المارَّة من ثقبٍ في برج الكنيسة. أخيراً، أُخرِجَتْ التوابيت الأحد عشر وأخذت إلى المحطة لكي نستريح في الطرف الآخر لنهر الراين. في الكنيسة، أسرع مُصلُّو الشفاعة بالخروج. أردية الغفارة السوداء، التي كانت من القصَر وبعض أزرارها مفقودة (أزرار مدوَّرة مثل أزرار الجزمة) بحيث كشَفَت عن سيقان صِبية الكورس، التي كانت عارية ويكسوها شعرٌ على غِرار الجزمات المطاطية التي غالباً ما كان يلبسها رجال المقاومة، والمَدْرَعَة البيضاء المُخرَّمة، لم تُنقِصْ ذرَّةً من نشاطهم. كانوا يخدمون الكاهن كما يخدمُ المرءُ قطعةً من سلاحِ المدفعيَّة. والخادمُ هو ذاك الذي يناولُ الذخيرة. إنهم يخدمون بالإيمان نفسه، وبالتفاني نفسه، بالسرعة نفسها: سواءٌ أكان بخوراً، أم ماءً مقدَّساً، أم جوابَ المُرتِّلين. ثم، بعد أن انتهتْ المراسم في الكنيسة، كانوا أول الخارجين، متقدِّمين الكاهنَ، ومساعدي الحانوتي، والخادمة المُبتلية. وأغلقَ القندلفت بابَ الكنيسة خلفهم. وفي ذلك اليوم اللامتناهي بدأتْ الليلة الطويلة لرحلة الخادمة من الكنيسة إلى القبر ومن القبر إلى غرفتها.

كنتُ أودُّ أن أقولَ المزيد عن البطل جان. د، بنبرةٍ خاصةٍ ؛ أن أُعطي تقريراً عنه، ممهوراً بالحقائق والتواريخ. لكنَّ مثل هذا الإجراء لا معنى له على الإطلاق ومُضلِّل. الغناءُ وحده يمكنه أن يُعطي فكرةً عما كان يعنيه

لي بحقّ، لكنَّ القُدرةَ الصوتيةَ للشعراء محدودة. فعلى الرغم من أنَّ الروائيَّ يمكنه أن يتناولَ أي موضوع، وأن يتحدَّث عن أي شخصيةٍ بالتفصيل الدقيق. وأن يُحقِّقَ التنوُّع، فإنَّ الشاعرَ محكومٌ بمتطلَّباتِ قلبه، التي تجذبُ إليه كلَّ الكائنات البشرية الموسومة بشكلٍ غير مباشر بسِمَة الشرّ وسوء الطالع، والشخصيات في كتبي كلها يشبه بعضها بعضاً. فهي تعيش، في ما عدا اختلاقات صغيرة، اللحظات نفسها، المخاطر نفسها، وحين أتحدَّثُ عنها فإنَّ لغتي، التي توحيها إليَّ، تُكرِّرُ القصائد نفسها بالنبرة ذاتها.

عندما كان جان حياً كان يُسبِّبُ لي ألماً رهيباً، وهاهو موته يُسبِّبُ لي الآن الشيء نفسه. كانت حياته معجزةً من النقاء استمرَّ موته أثناء القتال يُنيرها. خلال مراسم الجنازة قال الكاهنُ بضعَ كلماتٍ، بما فيها ما يلي: " لقد ماتَ في ساحة الشرف ". في أي مناسبة أخرى، كان جديراً بي أن أستخفَّ بالعبارة وأبتسم، إلا أنَّ ما قاله الكاهن كان عن جان. وبغضّ النظر عن أنها ضخَّمَتْه بمنحة مظاهرِ التكريم التي هي تحت تصرُّف الرجال (وساحة الشرف هي بقعةٌ خاليةٌ، طويلة ومترامية تقعُ خلف منزل أبويّ بالتنشئة تَدْخُلُهُ بضعةُ أبطالٍ جاءوا من أماكن بعيدة، أحياناً من اليابان، ليموتوا)، فإنَّ الشراشيب المخملية والذهبية، وتلك العبارة، الصادرة عن مسيحيٍّ بارز، دورُهُ أن يُشبِعَ شخصية جان، وأن يُسلِّطَ مزيداً من الضوء عليها، أبرزتها بجلاء تام، وأظهرتْه كبطلٍ للقضية العادلة ضد الشر، كالفارس ذي القلب النقي الذي يواجه الوحش. ذَلك النقاءَ أثَّرَ بي. الآن بتُّ أفهم قيمة الرموز، منذ أن رميتُ زهرةً إلى قبره ومنذ أن مَنَحَتني مقولةُ الكاهن نوعاً من الدعم الجسدي

خلال حزني، وتوتُّراً في الفخذَين والردفين مكّنني من أن أقولَ إني فخورٌ بجان. إلى ذاك النقاء، إلى فخامة تلك الميتة، إلى شجاعة طفلي الصامتة، الهادئة. أردتُ أن أُهدي هذه القصة التي هي أفضلُ تعبيرٍ عن التلوُّنات القوس قُزَحيّة السرّية لقلبي، لكنَّ الشخصيات التي عثرتُ عليها فيها تُمثِّلُ ما افتتنْتُ به في الماضي، ما لا أزال أحبُّه، ولكنْ ما أردتُ بتْرَهُ على كُره.

على الرغم من أنَّ هذه الشخصيات كلّها المفعمةٍ بالحيوية لم تخرج بعد، إلا أنه يستحيلُ عليَّ مع ذلك أن أراها تحت الإضاءة نفسها. هل سأعشقُ باستقامةٍ، بنُبلٍ؟ كلما سَكَنَتني روحُ جان سكنني جانُ ذاته - مُغرَماً بالجبناء سأغدو، وبالخَوَنة، وبالسيئين الحقيرين.

سأتكلَّمُ أولاً عن حضوره داخلي. فحالما واروه الثرى في المقبرة، بعد إتمام تكوينِ الرابية الصغيرة، وخَطَوتُ خطوتي الأولى بعيداً عن القبر، انتابني شعور غريزي بأني أنفصلُ عن الجثة التي ظلّتْ طوال أربعة أيام، بالإضافة إلى نصف ساعة عزيزة سَبَقَتْ إغلاقَ التابوت، تحتلُّ مكانَ جان ؛ عن الجثّة التي نُقِلَ جان إليها بمُعجزةٍ طلقةٍ سُدِّدَتْ جيداً. ثم وعلى الفور احتلَّ جان ذاته، وليس ذكراه، ما أنا مضطرٌ أن أُسمِّيه قلبي. وعيتُ حضورَه بما يلي: بأني لا أجرؤ على أن أفعلَ أو أقولَ أو أُفكِّرَ في أي شيء يمكن أن يؤذيه أو يثيرَ غَضَبَه. وهاك برهاناً آخر على حضورهِ داخلي: لو أدلى أحدٌ بملاحظته عنه، ملاحظة لا تنطوي بحدٍّ ذاتها على إهانة، وإنما قيلَتْ بسوقيّةٍ كالقول مثلاً: " لقد ماتَ، ولن يضرط بعد الآن " لاعتبرتُها إهانةً بل أكثر من إهانةٍ، وتجديفاً، ولقتلتُ المُهينَ الذي لم يُهِنْ فقط حزني وإنما جان ذاته، الذي في وسعهِ أن يسمعَ، لأنه في

داخلي وأنا أسمعُ الإهانةَ. كنتُ سأقتُلُهُ لأنَّ جان لا يملكُ إلا ذراعيَّ - وهما ذراعاه - يُدافعُ بهما عن نفسه. كنتُ سأتحمَّلُ الأمرَ لو أنه أُهينَ وهو حيٌّ، إذا لم يسمعها. فإذا سمعها، فليدافعْ عن نفسه! لقد كان يافعاً وقوياً. لكنه الآن يسمعُ بأُذُنيَّ ويقاتلُ بقبضتيَّ. لذا تراني لا أستطيعُ أن أرتابَ في حبي بينما كتابي هذا الذي أُدوِّنهُ الآن وهو يسكنني يمثِّلُ بحثاً مُتَلَهفاً عن السفاحين الذين يمقتهم. لكني لا أشعرُ بأني أرتكبُ تدنيساً بتقديمي قصصاً فظيعةً له. إنَّ كتبي الأولى كُتِبَتْ في السجن. ولكي أستريحَ كنتُ أحيطُ عنق جان بذراعي في خيالي وأحكي له بهدوءٍ عن آخر الفصول. أما بخصوص الكتاب الحالي، فكلَّما توقَّفتُ عن الكتابةِ أراني وحيداً عند قدمي تابوته المفتوح في المدرج وأسردُ قصتي عليه وأنا متجهِّم. إنه لا يُعلِّقُ، لكني أعرفُ أنَّ جسَدهُ الذي شوَّهَتْهُ الطلقاتُ، والدماءُ، وطولُ البقاءِ في البرَّاد يسمعني ويُقبِّلني، على الرغم من أنه قد لا يحملُ فكرةً حسَنَة عني.

إنها تُمطِرُ هذا الصباح، ويُحزنني أن أتصوَّرَهُ مطموراً في التراب الرطب. أجلسُ، وتُنبئني حركتي أنه لم يعُدْ في وسعهِ أن يجلسَ، أتوسَّلُ إليكَ يا رب:

يا صرحَ ذاكرتي حيثُ يلتفُّ البحرُ
مُعجِزاً ومُجنَّحاً، وترعى قطعانُ الخوفَ
يا رب الجصِّ المزوجِ وإنجيل الأصابع الليلي
أيُّها المتجمِّد بتناغمِ أزرارٍ ذهبيَّةٍ ضعيفةٍ لآلاتِ النفخِ
بقبَّعةٍ حمراء بِفُلْكٍ أسود وبتحديقٍ أزرق لآبارٍ إسبانيَّةٍ
يا رب السماءِ ومحصولِ أذرعٍ عاريةٍ

يا ربِ الخوفِ ووسادةٍ مُسالمةٍ من نارٍ
أحلمُ عليها سراً شيئاً تَوعُّكاً سرياً
يا ربِ مراوحَ ضائعةٍ نهايةَ الزمنِ إلهٍ وحيدٍ
ومصراعَ نافذةٍ واحدةٍ براعمَ زيزفون حلوة
أيُّها المَلاذُ إله المساء أو الغابات المترعة بالحزن
عظامٌ بيضاءُ ومعذَّبةٌ هَبَةُ أميرٍ سعيد
يا صرحَ ذاكرتي حيثُ يَلتفُّ الخوفُ
الحارسُ الذي يحرسُ عند بابكَ، وأزهارُ الرمحِ هذه
وتلك الإسفنجة، أه يا ربي، أنا هنا
أُقدِّمُ إليكَ أنشودتي التي استلَّتْها عينُكَ المُرهقَةُ
كخيطِ كُرٍّ خلال العين، وجسدي
الذي أفرَغَهُ تماماً ذاك الخيطُ الذهبيُّ الخفيفُ
سيكونُ خيطَ أحلامكَ، ذخيرةً من التقوى،
تسجيلاً واضحاً لأجلِ قيثارتكَ الصيفيّةِ
مكبٌّ نفيسٌ أنتَ، يا ربي، آلاتُكَ
بحاجةٍ ماسَّةٍ إلى الحب. احفظْ الليالي ونومي
فعلَّهُ ينامُ، أسْمِعني يا ربي
حكايةً من عظامٍ مُسَمَّرةً، عن عظامٍ مثقوبةٍ، من مكانٍ آخر
جِنانٍ موصدَةٍ فوقَ أغصانٍ مَلويّةٍ،
راعيةٍ بلا صدى، ضوء قمرٍ ممدودٍ
على أسلاكِ المجفَّف، امشِ، امشِ خلالَ
الكنائسِ الضائعةِ لرخامِ البحرِ.

* * *

الفتى الذي أحمله معي داخلي يبتسمُ وقد سُرَّ بحُزنٍ لكوني مهتماً بأشياءٍ من هذا العالم.

" لماذا أشتري كمياتٍ كبيرةٍ من المناديل؟ "

بما أنه لم يعُد لحياتي أي معنى، بما أنَّ الإيماءة لم تعُدْ تنمُّ عن أي شيء، أريدُ أن أكفَّ عن الحياة، وحتى لو أُلغيَ هذا القرارُ وجُدِّدَ في كل لحظةٍ، فإنه يمنعني من الاستعانةِ بالمستقبل. كل شيء يجبُ أن يتمَّ ضمن حدودِ اللحظةِ، بما أني في اللحظةِ التاليةِ سأكونُ بين الأموات. أجلسُ القرفصاء في ساحة الشرفِ وأُحدِّثُ جان. وكل إيماءةٍ فارغةٍ تجعلني أعتقدُ أنَّ الحياةَ ستستمرُّ؛ إما أن تفضحَ رغبتي في أن أموتَ أو تُسبِّبَ الإهانةَ لجان، الذي يجب أن يؤدِّي موتُهُ إلى موتي عبر الحب. هكذا أربطُ حذائي، والحركةُ تحُثُّهُ. المرءُ لا يلبسُ حذاءً وهو بين الأموات. لذا فأنا منفصلٌ عن الأشياءِ كانفصالِ المُدانين الذين كنتُ أراهم في السجن.

الصورةُ الوحيدةُ التي أحتفظُ بها لجان داخلي هي تلك التي تُمثِّلُهُ مُسجّى في التابوت، حيثُ كان ما يزال مُجرَّد رجلٍ محكومٍ بالموت بما أنَّه كان لجسده حضورٌ أشدُّ بثّاً للرهبة والخوف من جسدِ ذلك الفتى الذي كفَّ عن التنفُّس أثناء انتظاره صدور الحُكم. وعلى الرغم من أني كنتُ أعرفُ أنه ميت، لم أره إلا كرجلٍ مُدانٍ لا يهتمُّ كثيراً بالأشياء ويُثابرُ على لُعبةِ النوم. كان ينتابه امتعاضٌ متغطرسٌ في حضوري، وموته الفعليّ لم يقع إلا بعد انتهاء المراسم في الكنيسة.

* * *

إريك، الذي كان يلبسُ كأمير، ظلَّ عشيقاً للجلاد سنتين. كانا يلتقيان في شقة القاتل الصغيرة على " شاطئ تاج الأمير ". كانت

النوافذُ، كما في قصرٍ فينيسيّ، تُشرِفُ على قنال. ومن خلف الزجاج المُلوَّن يمكنُ للناظر أن يشعرَ بالضباب الكثيف يتصاعدُ من النهر. وكان يمكن للضباب أن يجعلَ المنزلَ ينسابُ على غير هدى لو لمْ يكن حضورُ الجلادِ بمثابة مرساةٍ تُثَبِّتُ البناء. لكنَّ المنزلَ كان أشدُّ ثباتاً من منارةٍ تجلدها العواصفُ. كان يسكنه قاتلُ هادئُ الطِباع، رجلُ انغمسَ في علاقاتِ حبٍ آثمةٍ لكنها مسالمة.

كانت الغرفتان مظلمتَين بسبب النوافذ المرصَّصة. كانتا مفروشتين ببساطةٍ بأسلوبِ الطبقةِ الوسطى: أثاثٌ من خشب السنديان، جهاز راديو، وسرير. وكانت الجدران مزيَّنةً بصورةٍ فوتوغرافية للجلاد وأخرى لإريك. عاشا حياةً بيتيّةً مَكَّنَتْ إريك من أن يقومَ بعملهِ في شبيبة هتلر ومَكَّنَتْ الآخرَ من تنفيذ جرائم قتله الصباحية. كان إريك يعزفُ على آلة الهارمونيكا. كان أحياناً يسألُ عن بعض التفاصيل حول تنفيذ الإعدام. ويُصرُّ على أن يخبره بآخر كلمات الضحية، ويسردٍ لصرخاتها، وحركاتها، وتشنجات وجهها. كان قلبُهُ يزدادُ قسوة. وكان الجلادُ، بإفراغِ نفسهِ قليلاً في أُذُنيّ الفتى الذي يعشق، يصبحُ أكثر رِقَّة. كان يستغرقُ في إغفاءاتٍ طويلةٍ على الوسائد، ويداعبُ كلباً عجوزاً أثارتْ عيناه الدامعتان شفقته، تماماً كما كان يُؤثِّرُ به مخاطُ الأطفال، وصمغُ شجرة الكرز، وعصيرُ الخشخاش والخسّ، ودموعُ السيلان.

كان إريك قد تحوَّلَ؛ قصَّ شعرَهُ قصيراً أكثر؛ وما كان رقيقاً في تعابير وجهه قَسَا. أصبحتْ وجنتاه مجوَّفتَين، ونَمَتْ له لحيةٌ صارَ يحلقها كل يوم. وجعلَ المشيُ، والتدريبُ، والتمارين البدنيّة عضلاته أقوى من ذي قبل. لكنَّ عينيه ظلَّتا تحملان نظرةً رقيقةً، ذاهلةً، وفمه، الذي كان

مُحدَّداً بصرامة ومتعرِّجاً بشكلٍ مذهلٍ، ظلَّ حزيناً كعهده دائماً. وصوته اكتسبَ أخيراً الآن ثقةً وهو يتحدَّثُ إلى الجلاد. لم تعُد تتخلَّلُهُ نبراتٌ حادَّةٌ مع ما يُصاحبها من ارتعاشٍ، نبراتٌ سوف تعاوده عندما يُصبح سجيناً في شقة والدة جان.

ولكن مرّتْ عليه أوقاتٌ كان يودُّ خلالها لو يصبحُ هو الجلاد ليكونَ قادراً على أن يتأمَّلَ في نفسه ويستمتع من الخارج بالجمال الذي يشعُّ منه: أي أنْ يتلقَّاه. أما أنا، فكنتُ سأحبُ أو أؤدي إيماءةً واحدةً من تلك لكي أظهَر، ولو بشكلٍ عابر، في لحظةٍ من الجمال. حين يتيحُ قطارٌ مسرعٌ لي لمحةً لفتى يقفُ في الضباب وسطَ الأوراق الرطبة والأغصانِ الميتةِ، فتى يدعمُ كتفُهُ ثقلَ رجلٍ ضخمِ الجثةِ تمتزجُ أنفاسُهُ مع أنفاسِ صديقه. إنني أُعزِّي نفسي بالتفكير في أنه لا يستطيعُ أن يستمتعَ باللحظة لأنه غير مدركٍ لسحرها وينتظرُ أن ينتهي من أمرها.

قلتُ في وقتٍ سابقٍ إنَّ بييرو كان عنيداً ورقيقاً. سأقولُ كلمةً عن إرادته: في طفولته كان يقضي فصلَ الصيفِ في الريف. وكان غالباً ما يصطادُ السمكَ في الغدير ويستخدمُ كطعمٍ لخيطه ديداناً طويلةً تدعى دود الأرض. كان يفتِّشُ عنها في التربة الرخوة ثم يحشو بها جيب بنطاله القصير. وعادةُ قضمِ الأظافر غالباً ما تكونُ مصحوبةً بلازمةٍ هي وضعُ ما تقعُ عليه اليدُ في الفم. وكان بييرو يلتقطُ من جيبه آلياً فُتاتَ الخبزِ اليابسِ المُتبقِّية من وجبةِ الساعةِ الرابعةِ الخفيفةِ ويأكلها. وذات مساء تناولَ من جيبه شيئاً قاسياً وجافاً ووضعه في فمه. وسرعان ما أعادَ الدفءُ والرطوبةُ الليونةَ إلى الدودة الذابلة التي كانت قد ظلَّتْ في الجيب حتى جفَّتْ ومنعَ الظلامُ الفتى من التمييز. ووجدَ نفسه عالقاً بين الإغماءِ

من فرط التقزُّز أو السيطرة على الوضع بالرغبة فيه. ورغِبَ فيه. وأجبرَ لسانَهُ وحاسَّة تذوُّقَه على معاناة التماسّ الشنيع عن عمدٍ وبصبرٍ. هذه الإرادة كانت الموقف الشاعري الأول منه، موقف تتحكَّمُ فيه الكبرياء. وكان في العاشرة من عمره.

ثمة همومٌ أخرى وأكثر شيوعاً سوف توجِّه إريك في سعيه وراء قدَرِه الفردي. فعلى الرغم من أنَّ سرقة ساعةِ اليد قد سلَّمتْ ذاك الوحش الصغير المتكبِّر إلى الجلاد، إلا أنَّ الكبرياء قادته إلى روسيا التي لا زالَ أحياناً يعاني من ذكرى سنتين من الذل فيها. ولما أكَّدَ له العارُ أنه لم يبقَ هناك حتى رابطٌ واحد يجمعُ بينه وبين الكائنات البشرية، باتَ مستعداً لأي شيء. باختصار، بما أنَّ الظروفَ - وعندئذ كانت تُعدُّ تعيسةً - وضعته على دربٍ تؤدي إلى التخلّي عن الشرف، فيستفيدُ منها ليُعيدَ بناء حياته على أساس ذاك النقص المُريع، ليس لكي يُقيِّمها على أساسٍ من الدناءةِ وإنما ليُفسِحَ المجالَ للدنيء أن يجعلها تُحقِّق القوة.

ما أزالُ لا أعرفُ لماذا كان من الضروري بالنسبة إلى إريك أن يرتكبَ جريمةَ قتلٍ عند هذه النقطة. التفسيرات التي سأعطيها لن تبدو صحيحةً في أول الأمر. ولكن إذا كان ذِكرُ اغتيال الفتى في غير محلِّه، أي، لا يتوافقُ ونظاماً منطقياً يُبرِّرُ وجودَه في الرواية، فيجب أن أُقرَّ بأنَّ ذِكرَ فعلِ قتلِ إريك هنا يأتي في مكانه المناسب، لأنه يفرضُ نفسه عليَّ. ولعلَّه يُسلِّطُ ضوءاً على ما سيحدثُ لاحقاً في الرواية.

إذا كان الإثمُ الوحيدُ - الشرُّ في عُرف العالم - هو انتزاعُ الحياة، فليس غريباً أن تكونَ تلك الجريمة هي الفعلَ الرمزيُّ للشر وأنَّ الإنسانَ يرتدُّ غريزياً عنه. لذا فلن يُدهَشَ القارئ لأني أردتُ أن يساعدني أحدٌ

في ارتكابِ جريمةِ قتلي الأولى. لقد أسعدني إعلانُ الحرب. لقد دقَّتْ ساعتي. أصبحَ في إمكاني أن أقتُلَ رجلاً دون أن أتعرَّضَ للخطر، سوف أعرفُ ماذا يقتلُ الإنسانُ في داخله، وكيف يكون الندمُ الذي يتبعُ القتل. ولكن بدون التعرُّض للخطر، وأعني به خطرَ الشجبِ الاجتماعي، وبدون التعرُّض للحكم بالسجن من الشخص الذي يُدمِّرُ الحياة. أخيراً سوفَ أنطلقُ سعياً وراء حريتي.

ذات أمسية بينما كنت أتمشى خارج قرية فرنسية صغيرةٍ تمَّ الاستيلاء عليها حديثاً، حفَّ حجرٌ بأسفل بنطالي. ظننتُ أني تعرَّضتُ لهجومٍ أو إهانةٍ، وطارتْ يدي إلى مسدسي. وعلى الفور تنبَّهتُ، بمعنى، حنيتُ ركبةً واستدرت. كنتُ أقفُ فوقَ كثيبٍ صغيرٍ في الريف المُقفِر. على بُعد ستين قدماً رأيتُ ولداً في الخامسة عشرة يلهو مع جروه، يرمي أحجاراً يُعيدها إليه الحيوان. وإحدى تلك الحجارة التي رماها بطيشٍ مسَّتني. وبسبب خوفي ومن ثم غضبي من خوفي وإبدائي ردَّة فعلٍ خائفةً من مرأى من عيني الولد البريئتين، ولأني كنتُ هدفاً لأي فرنسي، بالإضافة إلى العصبية التي طبَعَتْ حركاتي كلها، قبضتُ على مقبض مسدسي وانتزعتُهُ من حامله. في أي ظرف آخر كنت سأعودُ إلى رشدي. كنتُ سأعيد سلاحي إلى غمدِهِ، لكني كنتُ وحدي وشعرتُ بذلك. وعلى الفور، ولدى وقوع نظري على وجه الولد الرقيق، الذي جعَلَتْه الرقةُ ساخراً، أدركتُ أنه حانت اللحظة لأتعرَّفَ إلى القتل. كانت أنهارُ الغضبِ الأخضرِ، السريعةِ والمترامية، تفيضُ داخلي، من الشمال إلى الجنوب، ومن يدٍ إلى الأخرى، تخلطُ أمواجَها المتخبِّطة، المُصطخبة مع تلك الهادئة، المنبسطة. ثبَّتُّ تحديقي مع وجهٍ مُحدَّدٍ، متجهِّمٍ، ومع ذلك

متلألئ، لأنَّ أشعةً منبعثةً من القسمات كلها كانت تلتقي حول جسر الأنف. كان يمكن لصرخةٍ أن تنقذني من القرقعة الخرساء، الغامضة التي تصاعدَتْ، بدون أن تظهر، من البطن إلى الفم. انحنى الولدُ في الغسقِ ليتناولَ الحجرَ الزلِق من فم الكلب. ثم نَصَبَ قامتَه وهو يضحك. وسقط الثلج. وأمام عينيَّ هبطَتْ تلك الرقَّةُ على المشهد العام الكئيب لتُخفِّفَ من حِدَّة حوافِ الأشياء، وزوايا الإيماءات، وأسطح الحجارة المدبَّبة، ثلجٌ كان من الخِفَّة بحيث أنَّ يدي التي تحملُ المسدس انخفضتْ قليلاً. ونبحَ الجرو الأسودُ المرحُ مرتين وهو يطفرُ فرحاً حول الولد. وهَدْهَدَ الغسقُ أوروبا النازفة. كانت شفتا الولد متباعدتين، وباعدتُ أنا ما بين شفتيَّ بالطريقةِ نفسها، ولكن دون أن أبتسم، لأني لم أستنشق هواءً وإنما مزيداً من الكراهية. كان الكلبُ يقفز حول سيده بركبتيه العاريتين دون أن يندَّ عنه صوت.

الأمواجُ الخضراءُ التي كانت قد هدأتْ برهةً راحتْ تتدحرجُ داخلي أسرع فأسرع. الشلالات شغَّلتْ الآلات الكهربائية، والتوربينات، وما شابهها، والمولِّدات التي ولَّدَتْ تياراً رهيباً تسرَّبَ خلال الشاش، مخترقاً حجابَ الثلجِ، ممزِّقاً الموسلين بحيث أنَّ حلاوةَ وجه الولد انتشرتْ كغسقٍ من الحليبِ يُخيِّمُ على الريفِ الذي مَسَّه الخوفُ من غضبِ الجندي المُهان.

" العنفُ يُهدِّئ العواصف، وقد حان الوقت "

أحسستُ بسلاحي في يدي اليمنى. عمودٌ من الظلمةِ أو الماءِ النقي، احتواه شكلُ شفاهنا، تنقَّلَ من فمي المفتوح إلى فم الولد المفتوح على مبعدةِ ستين قدماً وربطَ ما بيننا وحتى معدتينا. لكنَّ تحديقي الشبيه بزهرةِ الونكة كانَ يدمِّرُ المظاهرَ الصارمةَ ويبحثُ عن سرِّ الموت. قبَّعةُ رجل الشرطة التي

كنتُ أعتمرها، وكانت تنزلُ بمغالاةٍ فوق عينيّ، أزاحها عن مكانها تبدُّلٌ تامٌ فظٌ في مسلكي، وسقطَتْ على كتفي ومن ثم إلى الأرض.

وَمَضَتْ فكرةُ " إني أنفضُ عني أوراقي " في ذهني، ومسَّتني مسَّاً رفيقاً. قامتْ يدي اليسرى بحركةٍ بارعةٍ لتختطفَ القبعة الساقطة. وتصاعدَ بخارٌ أخضرُ فوق أنهاري المستقرّة. أعادتْ لمسةٌ إنسانيّةٌ التفكيرَ إليَّ، ببطءٍ، على الرغم من أنه لم يفصل بين التبدُّل الفظ في مسلكي وحركةِ التسديد أكثر من ثلاث دقائق. وأصبحتْ نظراتي الأكثر إنسانيّة أشدّ رصانةً، أكثر عزماً على إذابةِ الرِّقَّةِ التي أثلجَتها ابتسامةُ الولد على الريف المصعوق، التي هطلَتْ على طيزه، بدون أن يجرؤ على التذمُّر. ولكي أُسَدِّدَ كان عليَّ فقط أن أنقلَ المسدسَ بدقَّةٍ متناهيةٍ، أن أضبطَ خطمهُ، الذي أصبحتْ فوهته السوداءُ البارعةُ فجأةً، على الرغم من أنها أُهينَتْ برهةً من الزمن لدى رؤيتها الأرضَ من تحتها تضحكُ، أصبحتْ قويةً بعد أن تأكّدَ أنها تُعبِّرُ عن حقيقةٍ أبدية، جليّة: إنَّ جزءاً صغيراً من الإنش مُضافاً إلى الهدف الجديد كان كافياً. ومع ذلك، تحركتْ يدي ببطءٍ ووقارٍ وأنا أُعيدُ ضبط الهدفَ. ظلَّتْ ذراعي ذات الكُم الأسود التي تحملُ المسدس بعيدة بمسافةٍ كبيرةٍ، وحركَت اليدَ داخل الظلامَ، ثم مرّتْ من خلف الرابية التي اعتلاها الولدُ، وغلَّفَتهُ عدة مرات، ارتدَّتْ، عادتْ، مرَّتْ من خلفي، وربَطتني إلى الولدِ، الذي كان ما يزالُ موصولاً بي بعمودِ الظلام. ثم طوَّقَتْ الذراعُ الريفَ، وهي ما تزالُ تزدادُ طولاً ولدانةً، وقبضَتْ على الظلام، ضَغَطَتهُ، وأوثقَتْهُ بتلكَ الحركة البطيئةِ ولكن الفخيمة مُطوِّقةً اللحظةَ وحوَّلتْها إلى كتلةٍ بغيضةٍ ينفذُ فيها الشعاعُ الأزرقُ المنبعثُ من تحديق إريك الذي يزداد إنسانية. وقامت

الذراعُ ببضعةِ تحلُّقاتٍ، وهي تقبضُ على كلِّ كائنٍ حي تُصادفه وتخنقه، وأعادتْ أمامي، على مستوى الخصر - أعلى قليلاً - وقليلاً نحو اليمين، المسدسَ المُصمَّم. وضجَّتْ الدَقّةُ الأولى من السبعة من برج الكنيسة المتواري. ثمة نجومٌ في السماء، نجمةٌ ربما أو اثنتان. أحسستُ بأنَّ المسدسَ يُصبحُ عضواً من جسمي، عضواً أساسياً فوهتُهُ السوداءُ، المحدَّدةُ بدائرةٍ صغيرةٍ أكثرَ لمعاناً، كانت في الوقت الحاضر فمي أنا، أتيحَ له أخيراً أن يقولَ كلمته. إصبعي على الزناد، ها قد تحقَّقَتْ لحظةُ الحريّةُ العظمى: أن أُطلِقَ النارَ على الله، أن أجرحهُ وأجعلهُ عدواً لدوداً. أطلقتُ النار. أطلقتُ ثلاث طلقات.

" إنَّ فتى جميلاً مثله يمكنه أن يجعلني أُطلقَ النارَ ثلاثاً "

مهما يكن، الطلقةُ الأولى كانت الوحيدة الهامّة. سقطَ الولدُ كما يحدث في مثل تلك الحالات، منهاراً على ركبتيه وانكبَّ وجهُهُ على الأرض. وعلى الفور نظرتُ إلى المسدس وأدركتُ أني أصبحتُ بحقٍّ قاتلاً، بخطمِ مسدسي الشبيه بخطم مسدسات قاطعي الطرق، القَتَلَة، كما بدوا في المجلات المصوَّرة في طفولتي. لحسن الحظ لم تكن اللحظةُ والحركةُ الدراميتان قد انتهتا، لأنَّ الاتصالَ بالحياة كان سيقتلني. كان كلّ ما له علاقة بالدراما يواصلها. كان الدخانُ والخطمُ الأسودُ، المُظلّلان بالبارود، هما الشيئان الرئيسان اللذان ركّزا انتباهي على الدراما. وأثناء تركُز عينيَّ عليهما، أخفضتُ جسمي، ليسَ بالانحناء، وإنما بحني ركبتيَّ، وبيدي اليسرى التقطتُ قبّعتي، الملقاة عند قدميّ. أبقيتُها في يدي واعتدلتُ، دون أنْ أُبعِدَ بصري عن الخطم. كنتُ أعرفُ أنَّ عودتي إلى الأرض ستكونُ مُفزعة. رنَّتْ الدَقّةُ الأخيرةُ من السبعة.

ومن الجفاف الذي غطّى شفتيَّ وحنكي أدركتُ أنَّ فمي كان ما يزال مفتوحاً، وشعرتُ برعبٍ أنْ يكونَ لي اتصالٌ جسديٌ وسحريٌ بالجثة الدافئة. لابد أنَّ الولدَ كان يضغط على أسنانه، لابد أنه قطع عمود الظلام الذي كانت تعترضه أمواجُ تنيرها النجومُ بنواجزه، لعله انكسَرَ لدى انكفاء الفتى على وجهه. على أي حال أغمضتُ عينيَّ لأقطعَ كلَّ صِلَةٍ لي مع الولد. ثم، حاولتُ أن أستديرَ وأنصرفَ بدون أن أرى نتيجةَ جريمتي الأولى. شعرتُ بشيءٍ من الخجلِ من جُبني. وكانت أرتالُ الألمانِ تقومُ بالحراسةِ في كل مكان حولي.

" سأفعلُ. ولمَ لا؟ لعلّه فقط جريح. لا، سيصرخُ. لا، ليسوا دائماً يصرخون. كان الجلأد يحكي لي عن عمليات الإعدام التي يقومُ بها "

" لقد علّمني أن أكونَ شجاعاً. سوف أفعل "

نقلتُ بصري إلى الولد المتمدِّد، لكني في الوقت ذاته رفعتُ المسدس بحيث تتصالبُ نظرتي مع الخطم وتتابعه، وكان ما يزالُ دافئاً، وتُدْخِلُهُ في اللعبةِ التي ضُمِّنَتْ، حيث سيقوم بترسيخِ استمرارية الدراما، وبذا يُبقيني فوق ذروةٍ عصبيّةٍ من الهدوء والصمت حيث لا يصلني خوفُ الرجال ولا صراخهم ولا سخطهم. أخذتُ أنظرُ إلى ضحيتي المتمدِّدة. وراح الكلبُ المذهولُ يشمُّ قدميه ورأسَه. ودُهشتُ لأنَّ الجروَ الأسودَ لم يبدأ بأداءِ مراسم جنائزيةٍ بارعةٍ جديرةٍ بأمير وذلك بعمليّةٍ سرّيةٍ يعرفها الكلابُ السودُ، لأنه لم يستدعِ فرقةً من الملائكةِ ليأتوا ويُعيدوا سيدهم إلى الحياة أو يحملوه معهم إلى السماء. كان الكلبُ ما يزال يشمّ.

" لحسن الحظ أنه ينبح، ولا ينتحب. فلو انتحَبَ، لهرعتْ الملائكةُ كلها إلى الحضور ". فكّرتُ في هذا بسرعةٍ كبيرةٍ، بينما كانتْ قدمي

اليسرى في الوقت ذاته تخطو متراجعةً. كانت الأرضُ رخوةً. غصتُ قليلاً في حُفرةٍ صغيرةٍ وسرعانَ ما شعرتُ أني مدعومٌ من قِبَلِ الجلاّد الذي غصتُ وإياه في الحديقة العامة. ثم تذكَّرتُ من جديدٍ جزمتي، وذكَّرتني جزمتي بأني جنديٌ ألماني.

فكَّرتُ " أنا جنديٌ ألماني "، ثم أخفضتُ ذراعي اليسرى، وعيناي ما تزالان على مشهدِ الجثةِ والكلبِ، واختفى المسدسُ، الذي كان معاً مُنفِّذ الدراما ورمزها، من المشهد، الذي رأيتُ في عُريِهِ البارد، في تَهَتُّكه المبتذل، وأصبحَ أشدُّ وحشةً في غسقِ السكينة الجميل ذاك، جريمةً شنيعةً اكتُشفَتْ عند الفجر بالقربِ من الأحياء الفقيرة. ولما شعرتُ أني أقوى قليلاً وأكثر ثقة في نفسي، دوَّنتُ التفاصيلَ: مؤخَّرة الفتى المستديرة، ورأسه بشعره الجَعد على ذراعه المطويّة، ربلتاه العاريتان، الكلبُ الأسودُ المندهش، وأجمةً غير واضحة من الأشجار. خطوتُ خطوةً ثانيةً إلى الخلف. فجأةً انتابني الخوفُ من أن تبقى جريمةُ القتل هذه في أعقابي طوال الليل. وأخيراً تجرَّأتُ على الاستدارة. حملتُ قبعتي السوداءَ بيدي اليسرى، التي تدلَّتْ ثابتةً على جسمي، والمسدسُ بنهايةِ ذراعي اليمنى الممدودة، البعيدة عن جسمي، وغصتُ بطيئاً داخلَ الليلِ بجزمتي الألمانيّة وبنطالي الأسود، الذي كان مفعماً برائحةٍ كريهةٍ ممزوجةٍ بالعرقِ وبأبخرةٍ متصاعدةٍ، وأخذتُ أتقدَّمُ باتجاهِ الحياةِ الفظيعةِ والمريحةَ التي يعيشها الناس جميعاً، يتبعني موكبٌ من محاربين يعتمرونَ خوَذاً، مُضمَّخين بالبودرة، مزيَّنين بالأزهار، ومُعطَّرين ؛ بعضهم يضحكُ والآخرُ متجهِّم، البعضُ عارٍ والآخرُ يرتدي ملابس من الجلد، والحديد، والنحاس، يخرجون كتلةً واحدةً من الصدرِ الفاغرِ للفتى المقتولِ، حاملين رايات

الحرب الحمراء عليها رموزٌ سوداءُ يحُثُّهم المارش الوقور لصمتِ العالم.
وعـاد إريك زايلر إلى الثُكنة وهو يدوسُ على المقـهـورين النازفين، لا يخشى ندماً أو عقوبةً مُنتَظَرَةً، بل يُخيفُهُ تألُّقه. طَرَقَ دروباً تحاذي مجرى سيلٍ ملأ هديرهُ الظلامَ. كانت خصلات شعره رطبةً. وعند جذورِ الشعرِ فوق الجبـهة تشكَّلت حبَّاتٌ رقيقةٌ من العرق. شعرَ كأنما الخوفُ نفسه يحملهُ وأنَّه إذا ما توقَّفَ فلن ينهارَ فقط وإنما سيُمحَقُ، لأنه أدركَ أنه الآن مجرَّدُ إطارٍ شديدِ الهشاشة من الملح يدعمُ الرأسَ السليمَ، بعينيه وشعرهِ وكتلةِ دماغه التي تُخفي الخوف. كان لحمُ جسدهِ قد ذابَ كله. لم يبقَ إلا الإطارُ الأبيضُ، الخفيفُ جداً. (أتعرفُ التجربةَ الفيزيائيةَ المسلّيةَ التي يدعمُ فيها خاتمٌ مُعلّقٌ من خيطٍ وذلك بعد أن يُحرَقَ الخيطُ؟ يُنقَعُ الخيطُ في ماءٍ شديد الملوحة. بعد ذلك يُربَطُ الخاتم. ثم يُحرق الخيطُ بعودِ ثقاب. ويبقى الخاتمُ معلّقاً، يدعمه حبلٌ رقيقٌ من الملح) شعرَ إريك أنه مـؤلَّفٌ من هيكلٍ عظميّ هشٍّ وأبيضِ اللون مـثل ذاك الحـبل، الذي تغلغلتْ فيه رعشةٌ واحدةٌ من ذرَّة ملحٍ إلى أخرى، وأيضاً مثل سلسلةٍ مكوَّنةٍ من عجائز خَرِفين. وإذا ما حدثتْ صدمْةٌ، إذا كان الخوفُ نفسُهُ مفقوداً، ينهارُ تحتَ الثقَل العظيم لرأسه، الذي كان لازماً للمحافظة على وعيه بالخوف. كان سائراً على حافة السيلِ وسمعَ هديره. وكان ظلُّ الجلاد الضخمُ يسيرُ إلى يمينه، تدعمه الكتلةُ الأضخمُ والأكثرُ شحوباً بقليل لهتلر، الذي يلوحُ أمامَ خلفيَّةِ الليل المُرصَّعَة بالنجومِ ككتلةٍ من الظلام أشدَّ حلكةً يشعرُ المرءُ أنَّ فيها صخوراً حادَّةَ الحواف، وأيضاً كهوفاً يشكِّلُ نداؤها الصامتُ خطَراً على إريك الذي كان – لو أنه التفتَ إلى نحيبها ولو قليلاً – سيرغبُ في أن يتمدَّدَ فيها وينامَ ويموتَ، أي، أن

يدعَ نفسَهُ يقعُ في قبضة الندم والنسيان القاسية. كان السيلُ يدوِّي إلى يساره. كادَ الضجيجُ يصبحُ مرئياً. ارتعشَ لفاعُ الجندي الأزرق في الريح. خُيِّلَ إليه أنه ميَّزَ أنفاسَ رجلٍ، مداعبةَ خُصلةٍ من شعرٍ أشقر، وإصبعٍ من الضوء والعاج. ارتعشَ هيكَلُهُ العظمي الملحيّ. ثم عاودهُ الهدوءُ واللحمُ حين أدركَ أنَّ السبَبَ هو الحريرُ والريحُ. استطعتُ أن أُميِّزَ في الظلام كتلةً مشوَّشةً من الأغصان اليابسة، الحزينة، تلوحُ أمام صفحة السماء كقطعةٍ من الشانتيلي المُخرَّمةِ السوداء. غرابتها زادت من بشاعتها إلى درجةِ مُنتهى النيَّة الشريرة. وبقيتُ أمشي، ولكن بلا تردُّد، في ذلك المدى الكئيب، بالقربِ من ديرٍ كنتُ أُعيدُ فيه نسْخَ هذا الكتاب الأبله والمقدَّس، وظننتُ، وأنا أُعيدُ معايشةَ أسى إريك وأبثُّ فيه الحياة بواسطة أساي، وخُيِّلَ إليَّ أني عرفتُ النقاطَ الخطرةَ التي كان شبابُ المقاومة يقومون بالحراسة عندها، وبينها، خلفَ تلكَ الصخرة بالذات، وقفَ ريتون، مُغلَّفاً بالظلِّ، وبالصمت، وبالكراهية، مستعداً ليُرديني قتيلاً. تخيَّلتُه أيضاً في شمسِ الظهيرةِ يراقبُ عن بُعدٍ جنازةَ ابنة الخادمة بينما الموكبُ يشقُّ طريقَهُ ببطءٍ شديدٍ إلى المقبرةِ على الطرق البيضاء الخالية من الحركةِ لريفٍ صخري. كان الحصانُ الذي يجرُّ عربةَ الموتى مُرهَقاً. وكان صبيَّا الجوقة، وأحدهما يحملُ طاسَ الماء المقدَّس، يُصفِّران لحن جافا همهمةً. وانخرطَ الكاهنُ في مناجاةٍ مع الله. كانت الخادمةُ الصغيرةُ تتصبَّبُ عرَقاً في ثوبها الأسود من تحت برقعها. حاولتْ برهةً أن تُجاري الموكبَ، لكنها سرعانَ ما تعبَتْ وسبقَتْها عربةُ الموتى بمسافةٍ. وآلمها حذاؤها. إحدى الفردتين انحلَّ رباطُها ولم تجرؤ على ربطها، لأنها لم تكن ميَّاسةً بما يكفي لتنحني، وفي يوم جنازة ابنتها لن يكون من

اللائق أن تضعَ قَدَمَها على حجرٍ أثناء الموكب، لأنَّ مثل هذه الحركة، بالإضافةِ إلى أنها تُثَبِّتُ المرءَ في وضعٍ مرحٍ جديرٍ بسيدةٍ مملوءةٍ كبرياءً تصعدُ درَجَ سُلَّم، فإنها تُلهي عن الحزن (أو عن كلّ ما يدلُّ عليه، وهو أمرٌ أخطر) بإثارةِ الاهتمام بأشياءٍ دنيويةٍ. الشعائرُ لا تسمحُ بالإتيانِ إلا ببضعِ حركاتٍ، كتجفيفِ الدموعِ بمنديل. (يمكنُ للمرءِ أن يعرفَ أنَّ معه منديلاً، على الرغم من أنَّ عدَمَ معرفةِ ذلك وتركَ الدموعِ تفيضُ برهانٌ على أسى أعظم. لكنَّ الخادمةَ كانت أشدَّ إرهاقاً من أن تبكي) ويمكنُ للمرءِ أيضاً أن يُطوِّقَ نفسَه بالكريب. وفي الطريق الموصلة من المستشفى إلى الكنيسةِ تركَتْ البرقعَ ينسدلُ على وجهها، وبينما هي تنظرُ إلى العالم من خلال القماش الأسود الشفَّاف، بدا لها أنَّ العالم يتأسَّى، حداداً على حزنها، وتأثَّرتْ. إضافةً إلى ذلك فإنَّ برقُعها، بعزلِها، إنما وَهَبَها جلالاً لم تعرفه قط، وكانت هي نفسُها البطلةَ المُطلقَةَ للدراما. وكانت هي نفسها الشخص الميِّتَ الذي يسيرُ بوقارٍ في طريق الأحياء، تُعرِّضُ نفسَها للمرة الأخيرة لاحترامِ الجميعِ، شخصاً ميتاً لكنَّه حيٌّ في طريقه إلى القبر. من المستشفى إلى الكنيسة كانت هي ذاتَ الميت، آخذةً على عاتقها أنْ تسمح - وعن وعيٍ منها - لابنتها أن تسلكَ الطريقَ المعتادةَ للمرة الأخيرة. لكنها حين غادرت المدينةَ لتذهبَ إلى المقبرة في الريف، خلَّفَتْ البرقعَ وراءها ببساطةٍ بأن أدارتْ تلك القبعة المُجنَّحة بصورةٍ غريبةٍ حول رأسها. عندئذٍ أصبحَ السيرُ عملاً شاقاً، أرادتْ بورعٍ شديدٍ أن تؤدِّيه لكنَّ صعوبتَهُ أرهقتها. فكَّتْ إحدى كلابات مشدِّها، ومن ثم، بعد مسيرِ مائة ياردة، فكَّتْ آخر. وابتعدَ الموكبُ عنها كثيراً. ودُهِشَتْ مع ذلك لدى رؤيتها الحقولَ، والبساتين والجدران الحجرية الجافّة.

قالت لنفسها " ومع ذلك، أنا متوجِّهةٌ إلى المقبرة، والآن وقد ابتعدتُ كثيراً عن ابنتي (لأنها حسِبَتْ أنها لنْ تلحَقَ أبداً بعربةِ الموتى) يمكنني أن أسلكَ طريقاً مُختَصَرة ". ولم تجرؤ على فعلِ ذلك. كان حذاؤها يؤلمها باطِّراد. أحياناً يقولُ الجنودُ أثناء مسيراتهم، معبِّرين عن هذه الحالة بالعامِّية: " إنَّ كلابي تنبحُ ". وفكَّرتْ الخادمةُ قائلةً " إنَّ كلابي تنبحُ "، لكنها أنَّبَت نفسها لهذه الفكرة، التي استحضرتْ بدقَّةٍ متناهيةٍ علاقتها مع جندي في مدينةٍ شرقيةٍ، ثم حوَّلتْ تفكيرها إلى ابنتها، وفي الوقت نفسه رفَعَتْ بصرَها فرأتْ أنها ابتعدتْ عنها كثيراً حتى إنها حاولتْ أن تلحقَ بها بأن سرَّعَتْ من خطوها: " إما أن تمشي أو أن تنعقي ". وفكَّرَتْ مرة أخرى في الجنود ومرة أخرى شَعَرَتْ بالخجل. إنَّ هذه الحوادث الداخلية كلها تستنزفها.

" أمرٌ مريعٌ أن أفقدَ طفلةً. وفوق ذلك يجبرونني على دفنها. على الأقلّ إن طفلتي شخصيةٌ هامَّةٌ. إنها ابنة كولونيل "

" أما زالتْ الطريقُ طويلةً إلى المقبرة، يا سيدي؟ ". وجَّهَتْ سؤالها إلى الريح، إلى الشمس، إلى الحجارة، إلى لا شيء. لم يكن هناك أحدٌ حولها. كان الموكبُ يهبطُ تلاً أخفاهُ عنا. أصبحتْ الخادمةُ وحدها.

" إنهم يجلسون على المائدة. لا أحدَ يخدمهم. أوه، كم أنا متعبةٌ، متعبة! من المزعج أنْ يموتَ الأطفالُ ويتوجَّبُ دفنهم. لماذا لا نصنعُ منهم حساءً؟ سوف تُغلى حتى تجهز وتغدو حساءَ لحمٍ لذيذاً "

كانت الخادمةُ تُخاطبُ سبحَتها، التي كلُّ حبَّةٍ سوداء فيها متمعِّجة. وكانت العلاقات النافرة تجعل الشيء يبدو أشبه بدُميةٍ، دميةٍ أبعد ما تكونُ عن الجَدِّية. هل من المؤكَّد تماماً أنَّ الحزنَ يكون أعظمَ إذا كان

الإنسانُ أشدَّ وعياً به؟ إنَّ المرءَ يعي الحزنَ حينَ يكونُ الذهنُ مُركَّزاً عليه، حين يتفحّصهُ بتوتُّرٍ لا يهن: عندئذٍ يُذبِلُكَ كشمسٍ تنظرُ في وجهِك، وتنهشكَ نارها حتى إني بقيتُ زمناً طويلاً أشعرُ بالتهابٍ في جفني. لكنَّ الحزنَ يمكنه أيضاً أن يُحطِّمَ القدرات، ويُمزِّقَ العقل أشلاءً. والمنتمون إلى تلكَ الأنحاء لديهم أيضاً تعبيرٌ يوصَفُ به مَنْ تمزَّقَ وتشتَّتَ تحت ضغطِ معاناةٍ عظيمةٍ: " إنه يتحوّلُ إلى خصيتين ". إننا نُعاني لأننا غير قادرين على النظر إلى أسانا بثباتٍ ؛ إنَّ أفعالنا مُغَلَّفةٌ بهالةٍ من الضجرِ والندمِ بحيثُ تبدو الأفعالُ زائفةً – زائفةٌ فقط بقدرٍ ضئيلٍ، وهي صحيحةٌ بشكلٍ عام، لكنها زائفةٌ بما أنها لا ترضينا بصورةٍ تامة. ثمة عدم ارتياحٍ يرافقها كلها. ونحنُ نشعُرُ، نظنُّ، بأنَّ تغيُّراً بسيطاً يُدمِّرُ عدم الارتياح ويجعل كل شيء يلتئمُ معاً. وكل ما يلزمُ هو أن تُنَفَّذَ – أو أن نراها تُنفَّذ – في العالم حيثُ يعيشُ الشخصُ الذي تُنفَذُ لأجله، الذي بدونه لا يعودُ لها أي معنى إذا لم يجبركَ الحبُ ذات يوم على أن تُكرِّسها لأجله سراً. لقد سبّبَ الحزنُ للخادمةِ انهيارها. كانت نادراً ما تفكِّرُ في ابنتها، لكنها عانتْ من عدمِ قُدرتها على أن تقومَ بلفتةٍ تُرضيها كلَّ الرضى. مرّتْ من أمام أحد المنازل، كانت بوابته مواربةً. ظنَّها الكلبُ متسوِّلةً أو متشرِّدةً، لأنها كانت تعرُج. فتقدَّمَ وأخذَ يشمّها ثم نبح.

قالت لنفسها " لو يرميني الكلبُ بحجرٍ لأعدتُهُ إليه بفمي "

دارتْ حول نفسها، وقامتْ بحركةٍ لإبعاده بذراعيها، مما أفزعَ الكلبَ فهربَ وهو ينبحُ بصوتٍ أعلى. هذه المحاولة الأولى العنيفة للتلائم مع الحياة تَبِعَتْ بشكلٍ آليّ تقريباً حركةَ الإمساك ببرقعها، الذي كان قد ارتفعَ عن صدرها وانتفخَ كشراعٍ أثناءَ التفافها. جسمها كلّه ارتاحَ نوعاً

ما لهذا الجهد. مدّتْ ربلةَ ساقها، وشعرتْ برغبةٍ في خلع قبعتها لتسترخي. وبينما هي تسيرُ، مدّتْ يدها إليها، خلَعتها، وعلى الفور اجتاحتها موجةٌ من التعب، لأنها حين لم تعُد تفكّرُ في تفاصيل موت ابنتها أو في حزنها، شعرتْ فجأةً أنّ تلك الأفعال زائفة. إنها تؤدّى في العالمِ اليومي، العادي، المادّي، في حين أنها كانت، طبعاً، تتحركُ في ذلك العالم ذاته، لكنّ ذلك العالم صُحّحَ بالحزن. وفي مثل تلك الحالات فقط بضعُ إيماءاتٍ رمزيّةٍ تمنحنا وفرَتَهُ التي يحرمنا منها الآخرون جميعاً. المسكينةُ لم تعد تستطيعُ أن تفكّر في طفلتها، التي لم تكن قط أكثر من زائدةٍ لحميّةٍ متوردّةٍ فاسدةٍ انفصلتْ عن جسد أمها. ماتت وهي في عمر أسبوعين... إنها لم تعش لأجلها. إنّ خادمةً لا تضعُ خططاً لأجل ابنتها. لقد كان حزنها في معظمهِ جسدياً، سبّبته عمليةُ البترِ البغيضة تلك: الموتُ الذي ينتزعُ من صدرك عبء اللحم المُتّصل به عن طريق الفم. نفضَ ذهنُها عنه ذكرى طفلتها، التي تخيّلتْها كجثّةٍ صغيرةٍ ذابلة، تتشبّثُ بوحشيّةٍ بأظافرها وفمها الميت بأحد ثدييها. هكذا رحتُ أفكّرُ وأنا أمشي في الشمس إلى المقبرة، على الطريق الذي تطرقه بتثاقُلٍ خادمةٌ ذاهبةٌ لتدفنَ طفلتَها الصغيرة.

راقبَ باولو عذابَ نفسها بدون أن تهتزَّ فيه شعرة.

من المؤسف أنّ الفتاةَ الصغيرةَ ماتت حالما وُلدَتْ. كانت الخادمةُ ستُعلّمها فنَّ الغناء الثنائي استعداداً للتسوُّل في الشوارع، كما تعلّمَتْ هي نفسها من أمها. في غرفتها الصغيرة، بالقربِ من نافذةٍ تُشرفُ على الباحة، كانتا ستتعلّمان بكلّ جديّةِ الغناءَ، الأغاني المؤثّرةَ الفاتنةَ التي تفتحُ القلوبَ وأكياسَ النقود. إنه فنٌّ. فنٌّ عظيم.

* * *

وقفَ ريتون على الشرفة، مُتّكِئاً على الليلِ، ينتظرُ. وعلى البُعد، وبشكلٍ متقطّعٍ، دمدمَتْ المدافعُ.

" هذه هي الأعمالُ الجليلةُ. اسعَ وراءها. أنا أعرفُ كلَّ شيء عنها "

اضطرابُ أمعائه، وفقاقيع الغاز التي سمعها تئزُّ داخله زادتْ من وحشيته. ووعيه، وهو وسط تلك العزلة الجحيميّة، بما جعلتْ تلك العزلة منه - إلهاً بربرياً لحربٍ شاملةٍ ينظرُ من علٍ إلى المدينة التي يدينها - ملأه متعةً شيطانيّةً، متعةَ كونهِ مبتهجاً ووسيماً في وضعٍ يائسٍ أقحمَ نفسَه فيه بدافعٍ شريرٍ، بدافعِ كراهيته لفرنسا (التي كان يخلطُ، وهو مُحقٌّ، بينها وبين المجتمع)، يومَ وقّعَ معاهدةً مع الميليشيا، ويومَ أجبَرَهُ احتقارُهُ لـ " إخوته " على اختيارِ إيماءات أجملَ من أي شيء آخر.

إنني أحملُ روحَ ريتون. ومن الطبيعي بالنسبةِ إلى قرصنةِ المغامرةِ الهتلرية ولصوصيّتها، التي تفوقُ الجنون، أن تُثيرَ الحقدَ في الناس المُهذّبين لكنّها تُثيرُ إعجاباً عميقاً وتعاطفاً فيَّ. وذات يوم، عندما شاهدتُ جنوداً ألمانَ يطلقونَ الرصاصَ على فرنسيين من خلفِ متراسٍ، شعرتُ فجأةً بالخجل لأني لست مع الفريق الأول، أدعمُ بندقيتي بكتفي، وأموتُ إلى جانبهم. وأشيرُ أيضاً إلى أني وأنا في مركزِ الدوامةِ التي تسبَقُ - وتكادُ تُغلِّفُ - لحظةَ الرعشةِ الجنسيةِ، دوّامةَ أشدَّ إسكاراً أحياناً من الرعشة الجنسية ذاتها، يقدِّمُ لي جنديٌّ ألمانيٌّ يرتدي زيَّ قائد الدبابة الأسود أجملَ وأخطرَ صورةٍ شهوانيّةٍ، ينزعُ كلَّ شيءٍ إليها، ولَدَها ما يشبه المهرجانَ الداخلي. ولكن مع ذلك، وبينما إريك في أعماقِ عين قابس، كانت تؤازره موسيقى مُقبِضَةٌ وعبيرُ الفجر، وهو يخبُّ على ظهرِ حصانٍ من نور (ويضعُ فأساً، ملفوفاً بقماش الكريب، إلى جانب سرجه)،

وكان الجلاّدُ المتعرِّقُ عارياً، وقد وصل من ألمانيا بعد أن عبَرَ أنهاراً، واجتازَ غابات، وبلواناً في يومٍ واحدٍ: أسمرُ البشرة، غزيرُ الشعرِ بارزُ العضل، بملابسَ ضيِّقةٍ، أنيقةٍ، موشّاةٍ بالترتر، قماشها الصوفيّ الأزرق السماوي يُبرِزُ برقّةٍ وبتفصيلٍ شكلَ القضيبِ الناعمِ، الثقيلِ، والخصيتين. انضغطت حافتا حاجبَيَّ على مؤخّرة جان، وشحَذَ صداعٌ فوريٌّ ولكن حادٌّ، رؤايَ، وفاقمها. هناك تدفَّقَتْ المباهجُ حيثُ تضافَرَ الجنديُّ الحديديُّ مع الجلاّدِ اللازورديّ، واحتشدت. حَفَرَ لساني عميقاً. عينايَ نهشَتْهما شموسٌ، أسنانٌ فولاذيّةٌ لمنشارٍ دائريّ. صدغايَ كانا ينبضان. كان ريتون يقفُ على جسرِ المشاة.

ليس بعيداً جداً، دوَّتْ طلقةُ رصاصٍ من منطقةِ بلفيل، وهمسَ صوتٌ في أُذُنِ ريتون:

"Komm schlafen, Ritone" (تعالَ لننم، ريتون)، وأمسكَ أحدُهُم برقّةٍ ذراعَه الأيمن. استدارَ مذعوراً. كانت السفينة قد غرقَتْ. ودون أن يدركَ كان قد غاصَ لتوِّه حتى قاعِ البحر، وبدأ يسمعُ اللغةَ المتداولة هناك. لم يتمكّن من الإفلات. كان سجينَ حيرةٍ عاطفيّةٍ، هي أسوأ من آليّةِ الأقفال والقوانين. في تلك الظُّلمة، عند نهايةِ أفكارِه الحالمة، حَسِبَ أنه يسمعُ، بالقربِ من أُذُنِه، صوتَه هو وللمرة الأولى. لم يكن يتّصلُ بأيِّ رافدٍ إنسانيٍّ وبدا كأنه يلفُظُ الكلمات بلغةٍ لا يمكنُ التكلُّمُ بها إلا في أعماقِ ما هو عنصرٌ خرافي وهو أيُ عدوٍّ متمثّلٍ في عائلةٍ وشعبٍ. التَفَتَ إلى اليمين. كان إريك إلى يساره، وذراعُهُ تُحيطُ بكتفِ الفتى.

أحسَّ بإريك قوياً، وغضّاً. دفعَه الاعتقادُ بأنَّ كلَ شيءٍ قد ضاعَ إلى إبداءِ الرِّقَّةِ للمرة الأولى.

كان جماله هو الذي يُملي عليه مواقِفَهُ المتعالية، وكان يمكن أن يموتَ وهو واقفٌ، مُقَدِّماً نفسَهُ، بدون شهودٍ، لوابلِ الرصاص - لا لكي يؤلِّفَ صورةً للبسالة لأجلِ الساعةِ الأخيرةِ، وإنما لأنَّ جمالَهُ الجسدي لم يسمح له، وهو المتكبِّر، إلا بأداءِ حركاتٍ من مثلِ: رفعَ رأسِه أو جذعِه، الهتافَ بلا، رميَ قنبلةٍ يدويةٍ أو حجرٍ باعتباره آخرَ قذيفةٍ، سحقَ وجهٍ تحتَ كعبه، الخ. وحركاتٍ تنسجمُ مع تحديقِهِ و مع القالبِ المتناغمِ لمُجمَلِ جسمِهِ ولقسماته. وبطولته لم تكن مجرَّدَ وقفَةٍ مُتَكَلِّفةٍ، ولا مُنتَحِلَةٍ لكي يكونَ جديراً بجماله - ليضاعفه، مثلاً - ذلك لأنه كان ينساه أثناء العمل. وإنما كان بطولياً، بالأحرى، لأنَّ ذلك الجمالَ (جمالُ الوجه والجسد) كان يتجلّى، بدون أن يدري، في أفعالِه كلِّها، يأمُرُها، يملأها.

وعلى الرغم من أنه حاولَ أن يستغلَّ الحربَ ليُفلتَ من الجلاّد في لحظاتِ الحزن - أي، وهو متمركزٌ في الخطوط الخلفيةِ أو متجمِّد في الثلج والوحل - إلا أن حاجته الماسَّة إلى الرِّقة والحمايةِ دفعَتْه إلى التوجُّه نحو صديقه، الذي كان يظهَرُ له حينئذٍ (بعيداً نائياً، في وسط العاصمة) في دور القائمِ بالعدالةِ الرابطِ الجأشِ الذي كانت حياتُهُ وعملُه يتحوَّلان باطرادٍ بالنسبة إليه إلى لغز.

لقد نَهَبَ فرنسا، شحنَ إلى ألمانيا الأثاثَ المسروقَ من المتاحف، واللوحات، والسجّادَ، والثيابَ، والذهبَ. أرادَ لقَدَرِه أن يحثَّ خُطاهُ وللموتِ أن يأخُذَهُ دون أن يندم على شيء. كان يسعى إلى انضباطه الذاتي بقسوةٍ باردةٍ. وللسببِ نفسه الذي جعله يختارُ ملابسَه الداخلية بعنايةٍ بالغةٍ ويشتري السلَعَ الجلديةَ والملابسَ الإنكليزية، أي لكي يُثَبِّتَ قدميه على الأرض، راحَ يفتِّشُ بلهفةٍ يائسةٍ عن ذريعةٍ تُبرِّرُ حياتَه

الاجتماعية - ووجدها. باختصار، منحَ نفسَه هَدَفاً، ومن أكثرها طيشاً، لأنه لم يكن ينطوي على أي إيمانٍ يمكّنَه من اختيارِ أهداف ٍجادَّة.

" هذا كلُّ ما في وسعي أن أفعله، أن أكونَ محوراً (وهو ما أنا عليه) وأحيطَ نفسي بأندرِ الزخارف في العالم لكي لا أشتهي أي شيءٍ آخر. بالترفِ وبالمالِ سأكونُ حراً ". كان عليه أن يُحقِّقَ ذاتَه بأسهلِ السُبُل. كان يكفيه أن يرى نفسَه ليومٍ واحدٍ فقط، أن يعرفَ ولو ليومٍ واحدٍ أنه كامل. هناك كتابٌ عنوانه " سوفَ أحظى بجنازةٍ رائعة ". إننا نصبوا إلى الحصولِ على جنازةٍ رائعة، على مأتمٍ رسميّ. سوف يكونُ تحفةً فنّية، بالمعنى الحرفيّ للكلمة، العملَ الرئيسيَّ، وهو بحقّ المجدُ الذي يتوِّجُ حياتنا. يجب أن أموتَ مُمجَّداً، ولا يهمُّ إنْ تعرَّفتُ على المجدِ قبلَ موتي أو بعده طالما كنتُ أعرفُ أني سأناله، وسوفَ أناله إذا وقَّعتُ عقداً مع شركةٍ للحانوتيّة كي يسهروا على إنجازِ قَدَري، على إتمامه.

" Komm, mein Ritone" (تعالَ، يا عزيزي ريتون).

وربما لأنَّ عليه أن يكتُمَ صوتَه تلفُّظَ الكلمات برقَّةٍ شديدةٍ حتى إنَّ شعوراً بالاشمئزاز غَمَرَ ريتون. لقد انتُزِعَ من عزلته المتكبِّرة. لا شكَّ في أنه كان يعلمُ أنه لن يتمكَّنَ أبداً من الاحتفاظِ بها، لكنَّهم يستطيعونَ على الأقلِّ أن يَدَعُوه يستمتع بتلك اللحظةِ الجميلةِ التي ظنَّ أنه استعدَّ لها ببراعةٍ منذ زمن طويل. فليبقَ هو واللحظة وحدهما معاً، في سموٍّ لا يُنهيه إلا انبلاجُ ضوءِ النهار.

وبسرعةِ رجلٍ يسقطُ، أصبحَ هو مرةً أخرى جندياً فاراً استُنزِفَ حتى الإرهاق. قال:

" نعم، نعم. أنا قادم ". لكنه لم يتحرك. دفقَةٌ إضافيّة من المرارة

أقعدته. وبينما كان يحاولُ بمهارةٍ فائقةٍ أن يتباهى بأنه قَبِلَ، وحدَه وبجذَل، تخلّي شعبٍ بأكمله عنه، كان يأملُ في سرِّه في أن يكون لدى الألمان عذرٌ واهٍ لتهديده، لممارسة الضغط عليه، إذ ليسَ من السهلِ الهروب من بلدٍ ملتصقٍ بك، متشبّثٍ بيديك وقدميك بحبالٍ من الدبس يستحيلُ أن تتخلّصَ منها، إذا ما حاولتَ. كان يمكنُ للتهديدات والضربات أن تساعدَ ريتون على التحرُّر. وبدلَ أن يتمسّكَ به الألماني، رفيقه في السلاح، بقوةٍ، راحَ يُكلِّمهُ بالنبرةِ التي يخاطبُ بها المرءُ إنساناً يموت. مهما يكن، كان لريتون الحقُّ في أن يعتمدَ على اشمئزاز الألمان من فرنسيٍ انتقلَ إلى جانب العدو. مثل ذلك الاشمئزاز كان سيقوِّيه، سيقوِّيه، سيجعله أقدرْ على تحمُّلِه، وذلك بدعمِ عزلته. ومنذ قتال اليوم الأول فَقَدَ كلَّ أملٍ في إنقاذ نفسه. ربما وقَعَتْ أيضاً بضعُ معاركَ أخرى فوق السطح، بضع طلقاتٍ من مسدسات رشاشة، لكنَّ فرصةَ الإفلاتِ كانت ضئيلة، بما أنَّ الرقيبَ ورجالَه رفضوا أن يستسلموا. لو أنه هو استسلمَ، لأُرديَ قتيلاً. على أي حال، لم يتبقَّ له أي وقت، إلا إذا وقَعَتْ معجزةٌ. مدى الحياةِ فترةٌ طويلةٌ بالنسبةِ إليه بحيث يُخاطرُ بقبولها باحتقارٍ تام، ولكنَّ على الأقلّ فليكفُّوا عن الحطِّ من قيمةِ تضحيتهِ بمنحهِ حناناً تافهاً.

فكَّرَ ريتون في الجنود الألمان وفي أصدقائه الذين هربوا عن طريق المجاري. كانوا يعيشون، في ظلمةٍ أخرى، حياةً كانت نسخةً تحت أرضيّة مُطابقةً لحياته فوق في السماء. كانوا يشبهون نوعاً ما انعكاسات صورنا في قاع بحيراتٍ موحلةٍ ونحنُ نقفُ على الشاطئ." مساكين، لابد أنهم يمكثون مع الجرذان. أنا أكلتُ قطاً وهم يأكلون جرذاً. لو نتقابلُ مرةً

أخرى فسنبدأ القتال... ". شعرَ بحضورِ القط في لحمه، قطٌ مهضومٌ جيداً حتى إنه كان أحياناً يخشى أن يسمعه أحدٌ يموء ويخرخر. كان يخشى أيضاً أن يخرجَ منه ويفرَّ بشكله الجديد (قطٌ أو شيطان) مع جزءٍ من لحمه. ظلَّ يحدِّقُ إلى الظلام ويدُهُ على مسدسه، وظنَّ إريك أنه يُسدِّدُ إلى شيءٍ ما. ونظرَ هو نفسه حوله بارتياب وهمس:

" أنتَ، أتريدُ أن تطلقَ النارَ؟ "

وكفَّ عن الكلام.

فجأةً مَنَعَه احتشامٌ جمٌّ من أن يُبدي أي رغبةٍ في معرفةِ المزيدِ أو قولِ المزيدِ عن نفسه. رأى نفسَه في ظلمةٍ حديديةٍ، في حضورِ مخلوقٍ غريبٍ حافي القدمين واقفٍ على الشرفة، مخلوقٍ بذراعين من اللحم يبرزُ من مشدٍّ نسويٍّ ضاغطٍ، ثقيلٍ ويتنكَّبُ كامل سلاحه وكأنه يسكنُ ماسورةَ مسدسه الرشاش؛ وكأن الرصاصُ يُقذَفُ من فمه. ونحنُ نعرفُ قوَّةَ خطم المسدس. وحين سمعتُ أنَّ جان ذهبَ إلى إحدى الحفلات على الرغم من قَسَمِه، وضَعتُ مسدسي في جيبي وغادرتُ المكانَ مع الفتى. انحدرنا إلى نهر السين. كان الظلامُ قد حلَّ. لم يكن هناك أحدٌ في الجوار. كنا نقفُ بالقربِ من حاجزٍ، تحت الأشجار. كانت ذراعي تطوِّقُ عنقه.

" حبيبي "

كان فمي على أذُنه، ولساني وشفتايَ مشغولة. راحَ يرتعشُ من فرط المتعة. وحصل لديه انتصاب. وضعتُ يدي اليمنى في جيبي وبكلِّ حذرٍ أخرجتُ مسدسي. كانت ثورةُ غضبي قد خَفَّفَتْ منها إثارتي وأرخَتْ شِدَّتها. كان الهواءُ عليلاً. ومن السماءِ هبطتْ أعذبُ موسيقى على الماء ومن الأشجار علينا. همستُ في أذن جان:

" أيها العاهر الحقير، ستمنحني نفسك، هه؟ "

ظنَّ أني أستخدمُ لغةَ عاشقٍ، فابتسمَ. كان مسدسي في يدي ونسيمُ الليل يداعبه. ضغطتُ الخطمَ على ورك الفتى وقلتُ، بنبرةٍ لا تلين:

" إصبعي على الزناد. إذا تحركتَ، تموت "

فهمَ. غمغمَ، مواجهاً النهر:

" جان! "

" لا تفُه بكلمة "

لبثنا هناك لا نأتي بأي حركة. كان الماءُ يتدفَّقُ بمهابةٍ شديدةٍ حتى لكأنه مُفوَّضٌ من الآلهة ليجعلَ مسارَ الحَدَثِ البطيء مرئياً. قلتُ:

" انتظر "

سحبتُ الخطمَ الذي كان مدفوناً في قماشِ السترةِ. وفي الحال شعرتُ أني أُعِدُّ لارتكابِ جريمة قتل. أضفتُ، بنعومة:

" افعلْ ما آمُرُكَ به. افعلْ أو أُطلقُ النار. خُذْ. الآن مُصَّ "

وضعتُ خطمَ مسدسي بين شفتيه المتباعدتين، فأطبقهما.

" أقولُ لكَ إنه محشو. مُصّ "

فتَحَ فمه فأقحمتُ طرفَ السلاح فيه. همستُ في أذنه:

" هيا، مصَّهُ، أيها العاهر الحقير "

وشدَّ كبرياؤه من حزْمِهِ. ظلَّ بلا حِراك، متماسكاً.

" ألن تفعل؟ "

سمعتُ ارتطامَ أسنانه بالفولاذ. كان يراقبُ السينَ يُتابعُ تدفُّقَه. لابدَّ أنَّ جسمه كله كان ينتظر الصاعقة التي ستقتلنا معاً، دندنةَ أغنيةِ الحبِ التي ستُلهيني، الصقرَ الموجَّه لاختطافي وإبعادي أنا، الشرطي، الطفل، الكلب.

" مُصَ أو أُطلق "

قلتُ هذا بنبرةٍ صارمةٍ حتى إنه مصَّ. كان جسمي مضغوطاً على جسمه. وبيدي الحُرَّةِ رحتُ أداعبُ مؤخِّرته.

" لابد أنَّ هذا سيُثيرُ لديك انتصاباً ما دام يعجبك "

وبِرِقَّةٍ احتَلْتُ على أن أزلقَ يدي في فتحة بنطاله، وفتحتها. داعبته، دلَّكته. قليلاً فقليلاً أُثيرَ، على الرغم من أنه لم يكن الانتصاب الذي أفخرُ بأني أستطيعُ أن أُحدِثَهُ إذا ما أردتُ.

" هيا، مُصَّهُ حتى ينطلق "

إنني أرتجفُ خجلاً لذكرى تلك اللحظة، لأني كنتُ أنا مَنْ استسلمَ. سحبتُ خطمَ المسدس من ذاك الفم المقوَّس بجمال ونقلته إلى صدر جان، عند مستوى القلب. ظلَّ السين يتدفَّقُ بهدوءٍ. وفوقنا، بَثَّتْ روحُ الترقُّب المأساوي ذاتها الحياةَ في أوراق أشجارِ الدلبِ الساكنة. وألقَتْ الأشياءُ من حولنا أسلحتَها.

" أنتَ محظوظ، يا عاهرة "

أدارَ رأسَه قليلاً نحوي. كانت عيناه تشعَّان. كان يكبحُ دموعَه.

" يمكنكَ أن تتكلَّم الآن. أنت محظوظٌ لأني لا أملكُ الشجاعةَ لأنسفَ بوزكَ الصغير المنْيَك القذر "

نظرَ إليَّ برهةً، ثم أشاحَ بعينيه بعيداً.

" اغربْ! "

عادَ ينظرُ إليَّ ثم مشى مبتعداً. ذهبتُ إلى البيت وسلاحي مُنَكَّس. وفي الصباح الباكر لليوم التالي دقَّ عليَّ باب غرفتي. لقد انتهزَ فرصةَ نعاسي الصباحي المعتاد ليُقيمَ المصالحة التي كنتُ أتوقُ إليها.

* * *

توقَّفَ الموكبُ المتعرِّجُ خلفَ عربة الموتى، لأنَّ الطريقَ كان يصعدُ تلاً ويخترقُ غابةَ صنوبر. توقَّفَ الحصانُ ليرتاح. كان تآلُف الموت مع الطبيعة نبالةً بحدٍّ ذاتها. لحقَتْ الخادمةُ، التي كانت قد أوشَكَتْ على السقوط، بالموكب، ولكنْ ما إنْ وصلتْ إلى ظلال أشجار الصنوبر وانتعشتْ برائحة الراتنج والحياةِ حتى بدأتْ الآلةُ الجنائزية بالتحرُّك استعداداً للانطلاق من جديد. وعلى مبعدَةِ مائة ياردة إلى الأمام انخلعَتْ حدوة الحصانِ على طريق الملك. كان الموكبُ يخترقُ إحدى الضواحي. رفعَتْ الخادمةُ بصرها. أولُ ما رأتْ كان مركزاً للشرطة، الذي يكونُ دائماً متموضعاً عند مدخل القرى. كان رجالُ الشرطةِ نائمين في أسرَّةٍ خفيفةٍ، وكانت البزَّات الداكنة اللون منتشرةً على البطاطين المهترئة، المُبقَّعة بالطين والمدلاَّة من جوانبِ الأسرَّة، أو المرميّةِ على كراسٍ تعلو جزَماً فارغة. كانت الأجساد الملفوفةُ بالعضلِ عاريةً، متمدِّدةً ببساطة في رطوبةِ الصيف، وثمة ذبابُ أسودُ يحطُّ عليها. كان نومُ الرجالِ خالياً من الأحلام. إنَّ القيام بجولات مكافحةِ السرقاتِ الحقيرةِ في المناطق الريفية عملُ مُهلك. ولكنْ لو أنَّ أحدهم شاهدَ الخادمةَ وهي تمرُّ أثناء وقوفه عند النافذة بقميصه المحلولِ الأزرارِ حتى منتصفه وحزامِه المُثبَّت بإهمالٍ، لما لاحظَ أنَّ أمكر السفّاحين يكمن تحت ذلك المظهر من الأسى والحزن البالغين. وعلى مسافةٍ أبعدَ قليلاً كان السجن. في الواجهة، خلفَ الجار الخارجي، كان هناك سبع عشرة كوَّةً للضوء، ومن خلال أحدها تدلَّتْ يدُ ضخمةُ وصغيرةُ متجمِّدةُ في إيماءة وداعٍ، يدُ بائسة لامرأةٍ محكومة. وأخيراً وصلنا البلدة. كانتْ النوافذُ كلُّها مُزيَّنة بالأعلام، وثمة رايات ثلاثية الألوان مرفوعةُ في وجه الشمس، والشرفاتُ الحجريةُ مزخرَفةُ على الطراز الروماني بالملاءات،

والسجاد، والأكاليل ؛ وأحرفٌ متشابكةٌ مرسومةٌ باللبلاب. ووقفَ أهالي القرية كلّهم في النوافذ ليشاهدوا مرورَ الموكب الفخيم. كان الناسُ يُلوِّحون بأذرعهم، يُصفِّقونَ، يضحكون، يصرخون من الاستمتاع. وكانت الخادمةُ من فرط الإرهاق حتى إنها أحسَّتْ أنها أضألُ من حجرٍ لا يكادُ يصلحُ لإعاقة دواليب عربة الموتى. كانتْ مرهقةً كجندي عائد من عرضٍ عسكري، لكنها تماسكَتْ، وكانت المقطوعات الموسيقية الوطنية التي تُعزَفُ خصيصاً لأجلها وحدها مارشاً للنصر تشدُّ من عزمها مع كل خطوةٍ تخطوها.

ذلك النهار سيكون طويلاً. لعلَّ الشمسَ غربَتْ وبَزَغَتْ مراتٍ عديدة، لكنَّ نوعاً من الثبات - تجلّى بشكل أساسي في التحديق - جعلَ الناسَ، والحيوانات، والنباتات، والمواد تبرزُ بصفاءٍ نقيّ. وكلّ مادةٍ احتفظتْ في داخلها بزمنٍ ساكنٍ طُرِدَ منه النوم. وهذا النهار لا يستطيل بزيادة على الأربع والعشرين ساعة: إنه يمُدُّ اللحظات، وكل شيء من الأشياء يراقبها بانتباهٍ مركّزٍ بحيث يشعرُ الإنسانُ أنْ لا شيءَ سيفلتُ من الملاحظة. إنَّ الأشجارَ خاصةً تريدُ أن تضبطكَ متلبِّساً، وسكونها يُثيرُ حنقي. وهكذا اكتسبَ يومُ جنازةِ جان سِمَةً حيّةً وبدا لي أنه باتَ مميَّزاً بموتِ جان، أو بالأحرى، بمحتويات جان الميِّت، المُدثَّر بالكفن ؛ نواةٌ نفيسةٌ تولِّدُ الحياةَ، لوزةٌ ناعمة الملمس، متماسكةٌ، تدثَّرتْ بالنهار، لفَّ خيوطَه حولها، غزَلَ شرنَقَتَه التي سكنها الميتُ، حولها عملَتْ الحياةُ مع شخصياتها - وأنا، بشكلٍ استثنائي، معها، في حين أني عادةً أكونُ تلك النواة - على الالتفافِ والانحلالِ لولبياً في كل الاتجاه. منذ أن رأيتُ جان معروضاً في تابوته (في الساعةِ الرابعةِ من بعدِ الظهر) وحتى منتصف ليلِ اليومِ التالي، هذا اليوم، الذي كانَ غريباً بالنسبةِ إلى

موقعه من الزمن ومُخيفاً بالنسبة إلى حضورِ جثّةٍ في قلبه احتلّته كلّه في نهايةِ المطاف بما أنها كانت لُبّهُ، الذي جُعِلَ موجوعاً وصعبَ الإرضاء بسبب صداقتي لجان، وانكشَفَ لي بعُنفٍ بموته، وما كان لينقضي، على الرغم من أمسيتين وشمسَين ميّتَتين، وغداءين أو ثلاثة، وعشاءين أو ثلاثة، إلا بعد أن استسلمتُ للنوم، وعندما أفقتُ كان رعبي قد خفّ، لكنه كان طوال أربعين ساعةٍ قد عاشَ، وتدفّقَ، خلال يومٍ حيّ بُعِثَت الحياةُ فيه، كانتشارِ الفجرِ حول المذودْ، بواسطة الجثة المُضاءةِ لفتى في العشرين من عمره لها شكلُ وقِوامُ لوزةٍ بيضاء بما يكسوها ويُغلّفُها. وسوف يمرُّ يومٌ آخرُ مشابه. كل شيء يُصغي بانتباهٍ شديدٍ ويبذلُ مجهوداً كي يُبرِزَهُ بملاحظته. الأشياءُ في حالةِ انتباه. سنٌّ الكولونيل الزجاجية تجعلُ بلُّورتها تُحافظُ على حالةِ التأمُّل العميق. إنها تُنصِتُ. إنها تسجِّل. يمكن للأشجار أن تتمايلَ، أن تهزَّ ريشها في وجهِ الريحِ، يمكنها أن تهدِر، أن تقاتلَ، أن تغنّي، لكنَّ هياجها مُخَادع: إنها منتبهة. واحدة منها بشكلٍ خاص تزعجني. أما الشخصيات، فهي مُسمَّمة. إنَّ هذه الصفحات كلها سوفَ يبهُتُ لونها، لأنَّ ضوءَ القمر ما يجري في عروقها وليس الدم.

على كِلا جانبيّ الشارع قامتْ بيوتٌ من الحجر الرملي تخصُّ الطبقة المتوسطة مؤلّفة من ثلاثة طوابق أو أربعة. الوجوه تبتسمُ عند أعتاب الأبواب. والناسُ يرمون القُبَل إلى الدبابة البروسيّة المُغطّاة بأوراق الأشجار. وكان جذع إريك يُتوِّجُ أعلى البُريج. كان مُبهِراً بلون زيِّه، وقسوة تحديقه، وجمال وجهه. الناس مسعورون، وفرَق السماء الموسيقية كلها تضجُّ بموسيقاها. وعلى شرفة منزل بسيط جداً ظهَرَ هتلر. نظر إلى

الخادمة. كانت تتبع الدبابة المصحوبة بضجيج هدير المدافع وأجراس الكنائس. راح يُحيّي، على طريقته، بذراعه الممدودة ذات اليد المفتوحة، لكنه لم يبتسم. إريك لم يرَ الفوهرر. كان، بنظرته الحادّة، نظرته الشيطانية، يقودُ دبّابته.

فكّرتْ الخادمة " لا شك في أنّ الفوهرر يراني ". وخفّ حزنُها قليلاً، لأنّ موتَ ابنتها كان يخدم مجد الفوهرر. إنّ أرواح أولئك الملائكة وعبير براءتهم كانت كافيةً لتدمير العالم. كان الناس ما يزالون يُهلّلون للدبابة أثناء مرورها. غادرَ هتلر الشرفة، وبعد أن صَرَفَ أصحاب المقامات من سلاح الجو، والبر، والبحر المصاحبين له من مسافة كبيرة، انسحبَ إلى غرفته.

يُطلِقُ الجواهرية على الحجر الكريم الكبير الحجم، الحَسَن الصُنع بالسوليتير (عزلة). ويتحدثون عن " ماء الحجر "، أي شفافيته، التي هي أيضاً بريقه. إنّ عُزلَة هتلر جَعَلَتْه يتألّق. وفي إحدى خُطَبِهِ الأخيرة (وأنا أدوِّن هذا في أيلول، عام ١٩٤٤)، هتفَ قائلاً:

(... سوفَ أنسحبُ، عند الضرورة، إلى قمة شبيتزبرغ "، ولكن أتُراني غادرته أبداً؟ إنّ خصائي يُجبرني على اللجوء إلى عزلة صقيعيّة، شاحبة. الرصاصةُ التي مزّقَت خصيتيّ معاً في عام ١٩١٧ عرّضَتني لعادةِ الممارسةِ القاسيةِ للاستمناء الجاف، ولكن أيضاً لُمتَعِ الكبرياءِ اللذيذة.

كانَ لجيرار، سيدُ مُتَعي السرّية، الحقُّ في الدخول بلا استئذان حين أكونُ وحدي. لذا دخلَ، دافعاً أمامه سفّاحاً فرنسياً فتيّاً شاحباً يحملُ قبّعةً بيده. لم يُدْهَش الفتى كثيراً عندما وجدَ أنّه في حضرةِ أقوى رجلٍ في هذا العصر. نهضَ هتلر واقفاً، لأنه عَلِمَ أنّ تهذيب الملوك يدلُّ على

صفقةٍ رفيعة، ومدَّ يدَه لباولو، الذي بدأ ذهوله ورعبه منذ تلك اللحظة. وإكراماً له دبَّتْ الحياةُ في عروقِ التمثالِ الشمعي الجالسِ. وعلى الرغم من أنه فعلَ ذلك، إلا أنه حافظَ على خُصْلَةِ الشعرِ الرطبة منسدلةً على جبينه، والتجعيدتين الطويلتين، والشارب، والحزام المتصالب، وكل الملحقات التي جعلَتْ من أشدِّ الرجالِ غموراً فجأةً أكثرهم شُهرةً، وكان الوحيدَ الذي أنعمَ فيه باولو النظرَ في متحفِ الأعمال الشمعية في باريسي حين كان في السادسة عشرة. إلا أنه كان حتى ذلك الحين قد اقتيدَ إلى حفلات قصفٍ وعربدةٍ كثيرةٍ، في باريس وبرلين، حيث كان يظنُّ بصدقٍ أنَّ الشواذ المُتعَبين كلُّهم في تلك الحفلات هم من الأولاد، والأمراء، والملوك، ولم يكن يخافهم. نظرَ الفوهرر إليه. قدَّرَ ثقَلَ عضلاتِ الفخذِ داخلَ البنطالِ من التغضُّنات التي عند الركبةِ حالما فُتِحَ البابُ. بدتْ له ضخامةُ العُنُق والرأسِ رائعة. ابتسمَ ونظرَ إلى جيرار.

قال " Wunderschon" (جمالٌ رائع). وقال لبابلو:

" Wie heissen sie" (من أنت؟)

قال جيرار " Er ist Franzose" (إنه فرنسي)

" أه، أنت فرنسي؟ "، واتَّسعَتْ ابتسامةُ هتلر.

قال باولو " نعم يا سيدي "، وكادَ يُضيف... " ومن بانام[١٤] "، ولكنه أحجمَ في الوقت المناسب. هذه المرَّة أحسَّ أنه يعيشُ إحدى أخطر لحظات العالم. لقد كان على السفراء، والهيئات الرسمية، والوزراء، والعالم كلّه، ممَّن لم يعوا أمرَ هذه المقابلة وما يزالون يُعدِّون لها، أن ينتظروا انتهاءها. ضاقتْ أنفاسُ باولو. كانت الغرفةُ واسعةً ولكنْ تكسوها ستائرُ مطبوعةٌ بذوقٍ مبتذل ومفروشةً بكراسيَ تيروليّة. في تلك

الغرفة كان يقعُ مركزُ العالم، المحور الماسيّ الذي يدورُ العالمُ، طِبقاً لحسابات كونيّة هندوسيّةٍ معيَّنةٍ، حوله. كانت الأبواب البرونزية المصيرية موصدة. أخذَ باولو يفكِّرُ بسرعةٍ كبيرةٍ، يتملَّكُهُ خوفٌ رهيبٌ حتى إنه راحَ يضغطُ قبَّعَته على صدره بكلتا يديه: " مع أنَّ هتلر يتصرَّفُ بصورةٍ فاتنةٍ، إلا أنه لن يدعني أُغادرُ القلعة، لأنَّ هناك أسراراً من الخطرِ المميتِ الاطِّلاعُ عليها ". وبينما هذا الهياج كله، الذي دامَ طوال ما تبقَّى من حياته، يحدثُ، لم يكد يلاحظَ باولو أنَّ الفوهرر كان يومئ إلى جيرار ويودِّعُه.

" من هنا "

ودفَعَ هتلر بالسفَّاح المرعوبِ برفقٍ إلى داخل غرفةٍ بلا نوافذ، كانت في الواقع أشبه بمُختلى يُوصِلُ إليه لوحٌ متحرِّكٌ في الجدار. كان المُختلى لا يحتوي إلا على سريرٍ ضخمٍ مُشوَّشٍ، أغطيته أُزيحَتْ كجفنٍ مرفوعٍ، وثمة بعض الزجاجات والكؤوس على طاولةٍ صغيرة. كان قلبُ الفتى يجِبُ بصورةٍ غريبةٍ جداً حتى إنَّ القلبَ أدركَ هياجَه. المُختَلى السرِّي الذي يكشفُ عنه اللوحُ كان هو المكانَ الذي يعشقُ فيه هتلر ضحاياه ويقتلهم. الزجاجات كانت مُسمَّمة. وألفى باولو نفسَه في حضرةِ الموت. دُهِشَ لأنَّ له سمةً مألوفةً لمُختلى أُعِدَّ للحب، ولأنَّ الموتَ يستخدمُ أدوات بسيطة جداً، بدا له محتوماً. وما ملأه في أول الأمر لم يكن حزنُ فقدانِ حياته وإنما رعبُ ولوجِ الموتِ، أي ولوجِ حالةِ التيبُّس الرصين الذي ينتهي بك إلى أن يُشارَ إليكَ باحترامٍ بالقول: هذه بقاياه. شعرَ أنَّ هتلرَ، بلمسه لمسَةَ عشقٍ، سيُدنِّسُ جثَّتَه. أنا لم أقُل إنَّ السفَّاحَ الصغيرَ فكَّرَ في هذا كله. هو شعرَ بالانفعالات التي خَبِرتُها عبرَ تسجيلها كما بدا لي وأعتقدُ أنه أوحاها إليّ الشعورُ التالي الذي لم يبرحني طوال يومين، وأذكرُ أنه

كان: شعوري بقدرٍ من الخجل من تفكيري في إيماءات اللّذة الحسّيةِ وأنا في حالةِ حداد. إنني أُبعِدُ صورَها عن خيالي حين أذهبُ لأتمشّى، وقد كان عليَّ أن أمارسَ الضغطَ العنيفَ على نفسي كي أدوِّنَ المشاهد الجنسية السابقة، مع أنَّ روحي كانت مُتْرَعةً بها. أقصدُ أنه بعد أن أتجاوزَ الشعورَ المزعجَ بكوني دنّستُ جثةً، فإنَّ هذه اللعبة، التي تُعتَبَرُ الجثّةُ ذريعةً لها، تمنحني حريةً عظيمة. لقد كانت هناك استغاثةٌ في معاناتي طلباً للهواء. وهذا لا يعني أني أجرؤ على الضحك، لكنّي أتمثَّلُ جان، أهضمه.

لا شك في أنَّ باولو كان خائفاً. لكنه شعرَ أنه واثقٌ من نيلِهِ حياةً أبدية. ويمرُّ المرءُ بمثلِ هذا اليقين في أشدّ اللحظات يأساً.

" لا يمكنه أن يؤذيني بأي شيء "

وعلى الرغم من أنَّ أساسَ تكوين باولو كان الخِسّة وهذا ما يوحي به أيضاً الكريستالُ وهشاشته، فإنها تُضفي صِفةَ الكذب على أي فكرةٍ مُدمِّرة.

في المرة الثالثة التي عدتُ فيها إلى شقة أم جان كان قتالُ الشوارع قد توقّفَ. ولم يَعُد سهلاً الحصولُ على الطعام. وهناك في الأعالي كانوا في حالةِ شبهِ مجاعة. حين دخلتُ بعد أن قرعتُ الباب ثلاث مرات، كما اتفقنا، تقدَّمَ إريك مني ويده ممدودة وشفتاه مزمومتان بطريقةٍ اعتبرتُها، على الرغم من أنها لم تكن ابتسامةً حقيقية، علامةً على اعتماده عليَّ، على ثقتهِ في أنني سأحضر.

" كيف الحال؟ "

" وأنت؟ "

حين هزَّ يدي انتابني شعورٌ بعدمِ الارتياح جعلني أُدركُ أنه كان أقلَّ طولاً من المعتاد. خفضتُ بصري: كان لا يرتدي غير الجورب. وقبل أن أجدَ أنَّ من الضروري أن أُبدي دهشتي لهذا (وكان في استطاعتي أن أعزوه إلى شِدَّة الحَرّ)، دخَلَتْ أُمُ جان. ابتسمتْ حين رأتني، وشعرتُ أنَّ وجهها كان مسترخياً بعد طولِ توتُّر.

قالتْ " أه! "

كانت تحملُ منديلاً صغيراً وتُكوِّره على شكلِ كرةٍ صغيرةٍ لتُجَفِّفَ به جبينها. تناولتْ يدي وقالت " ما أشدَّ الحر " وعلى الأثر مالتْ على كتف إريك. أدارَ رأسَه ونظرَ إليها مع ابتسامةٍ رقيقة.

كنتُ قد جلستُ. أخرجتُ من جيبي لوحاً من الشوكولاة الأميركية وقدَّمتُهُ إليهما، ولكنْ بدلَ أن تتوجَّه ذراعي نحو أم جان، ذهبَتْ باتجاه إريك.

" استطعتُ أن أحصلَ على هذا... "

تناوله إريك.

" أوه، هذه لفتةٌ جميلةٌ جداً منك نحن... " . وفجأةً، وبما أنَّ ظهرها كان متَّجهاً إلى النافذة نصف المفتوحة، دارتْ حول نفسها، مُزيحةً إريك جانباً. وهتفَتْ بصوتٍ مخنوق " هذا جنون "

عندئذٍ فقط أدركتُ لماذا لم يكن ينتعلُ حذاءً، ولماذا تحدَّثنا بصوتٍ مخنوق، ولماذا كانت الغرفةُ مُعتمةً وكان الخوفُ يلفُّ الجو.

" أنت الوحيد الذي نثق فيه "

ألقى إريك نظرةً سريعةً عليَّ، ثم عليها، ثم على لوح الشوكولاة الذي يحمله، وأخيراً عادَ ينظرُ إليها، وكان في نظرته من الحنان أكثر مما كانت تحويه قبل قليل.

" أنتَ لا تعرفُ أي حياةٍ نعيش هنا. أخبرتُ جولييت كي تقولَ إني متوعِّكةٌ، وإني لم أعُد أخرج. هي تقومُ بالمشتريات. وباولو أيضاً. ليتنا فقط نستطيعُ أن نهربَ في إحدى الليالي. وهو (وأشارتْ إلى إريك) يجب أن يرحل. إنه يشعرُ أنه بحقّ في خطر. ولكن إلى أين يمكنه أن يذهب؟ إنهم يُلقونَ القبضَ على الجميع. هل ذهبتَ إلى المقبرة؟ "

" نعم. القبرُ جيدٌ جداً "

" أحقاً؟ يا صغيري المسكين جان! "

التفتَتْ نحو الصورةِ الفوتوغرافيّة لجان والتي كانت موضوعةً على البوفيه، وراحت تنظر فيها فترةً لا بأسَ بها.

" يجب أن أقومَ بالإعدادِ لاستقبالِ الشتاء. الشتاءُ قادمٌ بكل حُزنِه"

لم يكن جان ليأبه بأن يكونَ له قبرٌ حسنُ الإعداد، أو حتى أن يكون له قبر أصلاً. أعتقدُ أنه كان سيُفضِّل أن تُقامَ له جنازة لا دينيّة.

" طبعاً، أعرفُ هذا جيداً، لكنَّ الأمَّ هي الأم "

على الرغم من أنَّ سلوكها كان في منتهى البساطة عندئذٍ، إلا أنَّ غَلالَةً من الحزن ضخَّمَتْ من حجمِ الكلمةِ الأخيرة: " أم ".

" ثم إنَّ هناك العائلة. كان لابدَّ أن تُقامَ جنازةٌ "

قلتُ في نفسي: " ولِمَ لَمْ تَقُل بقٌّ الفراش "، لأنَّ كلمةَ جنازة تُستخدَمُ بالطريقةِ نفسها التي تُستَخدَم بها الكلمة على لسانِ أهل مارسيليا، الذين يصرخون " تفوووه! جنازة " أو، بالنبرةِ ذاتها " بقّ ".

كنتُ قد كفَفتُ لتوّي عن الإحساسِ بأني أُدنِّسُ ذكراه وغامرتُ بإطلاقِ نكتةٍ مُقبِضَةٍ حوله.

" كان لابدَّ مما لابد منه "

" ما الذي كان لابد منه؟ "

نظرتْ إليَّ بشيءٍ من الدهشة.

" يعني... كان لابدَّ أن يُقامَ قداسٌ... رمزٌ... "

شعارُ النبالةِ الذي طُرِّزَ عليه حرف " د " باللون الفضي كان هو الدرعُ الرمزُ بالنسبةِ إلى العائلة، طوال يومٍ كامل.

" كان ذلك جديراً بأن يُثيرَ ضحكه "

" أتظنُّ؟ نعم، أنتَ على حق. لم يكن مؤمناً "

تردَّدتْ برهة. ثم قالت " لم يكن يحبُّ المال ". جان لم يكن يؤمن، لم يكن يؤمنُ بقدرٍ كاف. إلا أنَّ عقلَه، الذي خَضَعَ للتعاليم الماركسية، لم يسعه إلا أن يرتعشَ قليلاً لدى ذِكرِ الأشياءِ التي يسخرُ منها.

" هل باولو في الداخل؟ "

" لا، لقد ذهبَ لشراء البقالة. أتساءلُ ماذا سيشتري. ليتهم فقط لا يقتلونه، هو أيضاً! "

" أوه، ولِمَ يفعلون؟ "

كان إريك هو الذي طرحَ السؤالَ وارتعشَ قليلاً ووضعَ الشوكولاة بالقربِ من كأسٍ كان على الطاولة. عندئذٍ فقط أحسستُ بأن باولو لا يمكن أن يموتَ، إذ لا يمكن لأي شيءٍ أن يكسرَ صلابَتَه الفطرية. وذكَّرني مشهدُ كأسيِ النبيذ به. آخر مرة رأيتُهُ فيها في تلك الغرفة ذاتها، كان يزيلُ أربعَ كؤوسِ نبيذٍ عن الطاولة - كؤوس من النوع المُخصَّص للجرعة الواحدة. التقطَها جميعاً بيدٍ واحدةٍ، ولكن بطريقةٍ بحيثُ أنَّ ثلاثاً منها بشكلِ مثلَّثٍ هي الوحيدةُ التي لَمَسَتْها أصابعُهُ، بينما في الوسطِ كان الرابعُ مدعوماً ببساطةٍ بحوافِ الثلاث الأخرى. والمُصادفةُ هي التي

رتَّبتـهـا بتلكَ الطريقـة، وأيضـاً الإحكامُ التـصـادفيّ لليـدِ التي نَقَلَتْ الكؤوسَ الأربع محمولةً بسيقانٍ ثلاثٍ منها. وحقَّقَ باولو خلال برهةٍ أو اثنتين حالةَ التوازن، ولكن لكي يحافظَ عليها كان عليه أن يستنفرَ مهارةً غير عادية، تتطلّبُ بدورها انتباهاً غيرَ مجزّئٍ. وبشفتين مزمومتين وتحديقٍ مثبَّتٍ راح ينظرُ إلى تلكَ الوردة الكريستاليّة، الهشّة، الخفيفة. كنتُ، بجلستي القائمة عند الطاولة، صلباً كقضيبٍ من الحديد، أحاولُ أن أستعيدَ توازني، منذهلاً لأني أرى تلك الطبيعةَ الشريرةَ بأساسها ترفضُ مساعدةَ زميلتها اليدِ الأخرى ولكنها تحافظُ، ببراعةٍ فائقةٍ، على الزهرةِ الشفافة المصنوعةِ من الهواء والماءِ بإصبَعَين وتحملها بعنايةٍ فائقةٍ من الطاولةِ إلى المغسلةِ أمامَ عيني إريك المبتسم. أحد تلك الكؤوس كان هناك أمامي وذكَّرَني بأنَّ وسامةَ الفتى أكثرَ من أي شيء آخرَ هي التي جعَلَتني أعي صلابَتَه وتحمُّله المنيعَين.

أنا، ذاك الفتى السقيم، التافه، قَذَفتُ إلى العالمِ طاقةً مُستَمَدَّة من الجَمال النقي، الصرف، لشبّانٍ رياضيين، ولسفّاحين. ذلك أنَّ الجمالَ وحدَه كان قادراً على إثارةِ حافزِ الحب كذاك الذي سبَّبَ، كلَّ يومٍ وطوالَ سبع سنين، موتَ مخلوقاتٍ شابَّةٍ ضاريةٍ وقوية. الجمالُ وحده يضمنُ حدوثَ أمورٍ غير لائقةٍ كسماعِ موسيقى الأكوان، وإنهاضِ الموتى، وفهمِ تعاسة الحجارة. كنتُ في ليليَ البهيمِ قد أخذتُ على عاتقي - وهذه أفضلُ طريقةٍ للتعبيرِ عن ذلك إذا أخذنا في الاعتبار الإجلال الذي عومِلَ به جسدي - جمالُ جيرار بوجهٍ خاصٍ وبعدئذٍ جمالُ كلِّ الفتيان في الرايخ: البحَّارة بشرائطهم الجديرة بالبنات، وطواقم الدبابات، ورجال المدفعيّة، وأفضل أفراد القوى الجوية، والجمال الذي استولى عليه حبي

عـادت فَنَقَلَتـهُ يدايَ، ووجـهي السـخـيف السـمين المسكين، وفـمي الفظ الممتلئ حيوية، إلى أجملِ الجيوشِ في العالم. ماذا كان في وسع أولئكَ الفتيـان وهم يحملون مـثل تلك الشحنة التي أتت منهم وعـادت إليهم، وهم ثملون بأنفسهم وبي، غـير أن يذهبوا ليموتوا؟ أحطْتُ باولو بذراعي وأدرتُ جسـمي بحيثُ واجَهَ أحدنا الآخر، وابتسـمتُ. كنتُ رجلاً. كان محتوى نظرتي الصارمةِ منقوشاً على باولو. صرامةُ النظرةِ تلك كانت تُماثِلُ رؤيا داخليـة، انشغالاً بالحب، كانت تدلُّ على انتباهٍ إلى نوعٍ من الرغبةِ المتواصلة، وباختصار لاشتهاء ما للغير، وفقاً لترتيباتنا المأخوذة مباشرةً من إحدى الروايات؛ تدلُّ على أنَّ هذا الفتى الصغير لم يحتفظْ لنفسه بالصورة الحيّة المومئة لقرينه الواقفِ على المنبر في نورمبرغ. كانت أسنانُ باولو نظيفـةً. كان شاربي قد أصبحَ قريباً منه الآن، وباتَ في وسعه أن يراه شعرةً شعرة. لم يكن مجرَّدَ رمزٍ - مُسالم أو خطِر - لشعار النبالَةِ الباهت، الليلي، لسلالةٍ من القراصنة، بل كان شارباً. وقد بثَّ الهلعَ في قلبِ باولو. أيُعقلُ أن شارباً بسيطاً مؤلَّفاً من شعرٍ أسود - ولعله مصبوغٌ - يعني: قسوةً، استبداداً، عنفاً، غيظاً، زَبَداً، أفاعيَ سامةً، خنقاً، موتاً، مسيرات حثيثة، تباهيَ، سجناً، خناجرَ؟

" أأنتَ خائف؟ "

أجابَ باولو، وكيانه الداخلي كلّه يرتجفُ، ذاك الكيان الذي عملَ عَبَثاً، بالهربِ، على أن يجرَّ معه كيانَ اللحمِ والدمِ الذي هو سجينه، وغصَّةٌ في حنجرته. " لا ".

طنينُ الكلمةِ وغرابةُ رنينِ صوته، جعلاه أكثرَ وعياً بالخطرِ الذي يكمنُ بجسارةٍ كي يدخلَ الأحلامَ بلحمِهِ ودمه الفعليين، ويُقيمَ حواراً

سرِّياً مع مخلوقاتِ الليل - ليل القلبِ الذي انسكَبَ على أوروبا - ومع وحوشِ الكوابيس. شعرَ بنبضٍ خفيفٍ في صدغه - رأيته - نبضٌ واضحٌ كاهتزاز الكريستال، وتاقَ إلى حدوثِ يقظةٍ، أي، لفرنسا. ثم منَحَهُ تنائي فرنسا وعلى الفور الشعورَ بالهجران نفسه الذي يمكنُ أن يشعرَ به لو أنَّ أمَّهُ ماتت. لقد كانت هناك استحكاماتٌ أو بنادقُ، ومدافعُ، وخنادقُ، وتياراتٌ كهربائية تفصلهُ عن العالم الذي عشقَ فيه. كانت أجهزةُ المذياعِ الماكرة والغادرة تُهدهدُ أصدقاءه ليناموا، وتُنكِر إشاعةَ موتِه، وتصدُّ استغاثته، وتواسي فرنسا لخسارتها. شعرَ أنه سجين، أي وحيد مع قَدَرِه. كان يشعرُ بالرثاءِ لأجل فرنسا، وشمَلَ حزنُهُ الأسفَ التالي الأكثر خصوصيّة: " لم استطع أن أخبر الفتيان أني رأيت هتلر "، والرفيفُ الداخليُّ الذي رافَقَ هذا الأسف كان أروعُ تقدير وأشدَ القصائد التي قيلتْ تغنّياً بأرضِ الآباء تأثيراً.

مع ذلك، ابتسمتُ. كنتُ أنتظرُ الموتَ. كنتُ أعرفُ أنه قادم، قدوماً عنيفاً، مع نهاية مغامرتي، إذ ماذا كان في وسعي أن أرغب في النهاية؟ لا راحةَ من الغزو، فالمرءُ يلجُ الخلودَ وهو واقف. وقد استعرضتُ كافةَ السُبُل الممكنة للموت، من الموت بالسُّم يسكبُهُ صديقٌ حميمٌ لي في قهوتي وحتى شنقي على أيدي مواطنيّ، وصَلْبي بيدِ أعزِّ أصدقائي، ناهيكَ عن الميتة الطبيعية وسط مظاهرِ التشريف، والفرَق الموسيقية، والأزهار، والخُطَب، والتماثيل، والموت في المعركة، وطعناً، وبالرصاص، ولكني فوق ذلك كلّه أحلمُ باختفاءٍ يُذهِلُ العالمَ. سوفَ أنطلقُ لأعيشَ بهدوءٍ في قارةٍ أخرى، أراقبُ تطوُّرَ أسطورةِ ظهوري الثاني بين شعبي، وما سينجُمُ عنه من أذى. لقد انتقيتُ كلَّ نوعٍ من أنواعِ الموت. ولا واحدة منها ستفاجئني. فأنا قد متُّ حتى الآن كثيراً، ودائماً بطريقةٍ فخمةٍ.

أحسستُ بأسى الفتى، وعلى الرغم من رهافتي لم يخطُر في بالي أيُ شيءٍ أقوله لأشُدَّ من عزمه.

قلت " أنت فائق الجمال "

ابتسمَ باولو بوهنٍ، تلك الابتسامةُ التي تنمُّ عن إرهاقٍ شديدٍ حتى إنها لا تكشفُ عن الأسنان. لم يبعد عينيه عن عينيَّ اللتين رقَّتْ نظرتهما. والرِّقةُ التي استطاعَ أن يُميِّزها في نظرتي أقحمتني أعمقَ داخلَ منطقةِ القذارة. كنتُ كَمَنْ برزَ من مغارةٍ. بدوتُ تعيساً وأنا في العراء. وكان جليّاً من موقفي أني أردتُ أن أعودَ إلى ظلامي. إنني أُفكِّرُ في ذلك الوجارِ، عين قابس.

كرَّرتُ " أنت فائق الجمال "

لكنني شعرتُ أنَّ الجملةَ ليسَ لها الجرْسُ الولهان الكفيل بتهشيم خوفِ الفتى. ووجدتْ كياستي أني: وضعتُ كلتا يديَّ على عينيه، مُجبِراً جفنيه على الإغماض. انتظرتُ عشرَ ثوانٍ، ثم قلتُ " هل قلَّ خوفُك؟ "

كنتُ أضحكُ بعنفٍ، وفي الوقت نفسه كانت يدي اليسرى تضغطُ على كتف باولو، لتجبره على الجلوسِ على السرير. صمتُّ لأتأمَّلَ تضاعيفَ أذُنه، التي كان الجزءُ الأعلى منها براَّقاً، لامعاً. جعَلَ ضحكي ابتسامَتَه تتَّسعُ وتظهر أسنانه. تلك الابتسامة الأكثر اتِّساعاً التي تلقَّتْ الأسنانُ فيها نفَثاً من الهواء وأشاعَ الضوءُ شيئاً من الذكاء في باولو، طَرَدَتْ خوفَهُ وبعضاً من الجمال الجسَدي الذي سَتَرَ به خوفُهُ قَدَرَه. لقد كان أقلَّ قُرباً من الموت، وأقلَّ خضوعاً للشعائر التي يخترعُها القلبُ للقتل، لكنَّ جسَدَه بذلك كسبَ قليلاً من السعادة، وظِلاً من الارتياح. مهما يكن، لقد قادته أوَّلُ إيماءةٍ منه كرجلٍ وليس كشبحٍ - بوضعِ قبَّعَتِهِ

على البطانيـة - أبعدَ قليـلاً داخل النور. والصمتُ العـميقُ الذي سـادَ الغـرفَـةَ، التي عُـزِلَتْ بلا شكٍ بالفلّين، شدَّ من عزمِـه، أنْ أوهنَ ضجـيجٍ، حتى صوت المنبِّه أو تقطير الماء من الصنبور، كان جديراً لأن يُثيرَ ريبَتَه وأن يعني وجودَ أخطارٍ خفيّةٍ، خارقةٍ. أمسكتُ به من رقبَتِهِ حتى أصبحَ وجهانا قبالة بعضهما. قَبَّلْتُهُ على زاوية فمه. اجتاحه قلقٌ من نوعٍ آخر - وإنْ كـان وجيزاً: مع أنَّ الاحترامَ طبعاً جمَّدَ حَرَكَتَه، نصحتَه بألاّ يُغامر بالإتيان بأيةِ حركةٍ حميمةٍ، بأي مداعبةٍ، أو حتى بالانغماس في تهتُّكٍ رقيقٍ، بارتعاش العضلاتِ أو بتقلُّصٍ يمكن أن يُقرِّب فخذَيه من فخذَيّ، وتساءلَ إنْ كـان موقفٌ شديد الثبات لن يُحرِجَ سيّدَ العالم. هذه الفكرةُ جعلَتْ ابتسامتَه، التي حزِنَتْ قليلاً، تنغلقُ ببطءٍ على أسنانه وبالتالي تستقطبُ الرقَّةَ التي يحتويها الحزنُ كلُّه. لمسةُ ثقة أذابته، واستجابَ لمداعبتي لشعرهِ مداعبةٌ رقيقةٌ مماثلةٌ لكَتِفي الذي بدا له فجأةً، وقد شدَّ عليه القماش المتينُ، قوياً كحصنٍ مُعادٍ قائمٍ فوقَ ذُرى الألب البافاريّة. في هذه الأثناء كان يفكِّرُ قائلاً، كلمة كلمة:

" لكنَّ هذا العرضَ ليس إلا كهلاً حقيراً في الخمسين "

إلا أنه لم يجرؤ على متابعةِ المداعبةِ أو التفكير. سحبَ يده، وهذه الأمارة الوحيدة الحييّة الدالّة على اللطفِ عظَّمَتْ من امتناني. ورحتُ أُقبِّلُ بلهفةٍ حنجرته، وصدغيه، وقفا عنقه - وقد جعلته يستدير، مُسيطراً بذلك، وللمرَّة الأولى، على الموقف بأكمله وممتلئاً بثقتي بنفسي. ولما كنا جالسين على حافَةِ السرير، فإنَّ هذه الحركة جعلَتْ باولو وبطنَه على سويّةٍ واحدةٍ ووجهه مُنطرِحاً على المخمل، وظهره يدعمُ الباشا الألماني. لقد ألفى نفسَه في ذلك الوضعِ للمرَّة الأولى في حياته. ولما لم

يعُد تحديقي يشدُّ من عزمه أو يُوَجِّهه، راحَ يلهثُ باستمتاعٍ لا يرتوي. وكمَنْ يغرقُ، مرَّ شريطُ حياتهِ من أمامِ عينيه. وومضَ التفكيرُ المقدَّسُ في أمِّه في رأسه. لكنه أدركَ عدمَ ملاءمةِ هذه الوضعيةِ للتفكير في الأم، أو الأب، أو في علاقةِ حب. راحَ يُفكِّرُ في باريس، والمقاهي، والسيارات. كان الروحُ المُهيمنُ عليه كاملاً ومُصطخباً: فخذاه، وساقاه كانت تحملُ العبء الدقيق لفخذَين وساقَين. أعضاؤه قَبلَتْ الهيمنة، واستقرَّتْ فيها. كان جسمُهُ مضغوطاً بحافةِ السريرِ الناعمة. وفي محاولةٍ لتخليصِ نفسه قامَ بحركةٍ خفيفةٍ رَفَعَتْ ردفَه، فأجبتُ على ندائه بضغطٍ أكبر، وأجبرَ أَلَمٌ جديدٌ باولو على تكرارِ الحركةِ، ليُحرِّرَ ريحَه، فانضغطتُ بقوةٍ أكبر. فعلَ الشيءَ نفسَه مرة أخرى، وعصرتُه أكثر. ثم بطعناتٍ أحدَّ وأبرع حرَّرتُ الجيَشان الذي أثارَه سوءُ الفهم. كرَّرتُ الهجومَ عشرَ مراتٍ أُخَر. وعلى الرغمِ من أنَّ بطنَهُ كانت مسحوقةً إلا أنه كفَّ عن الحركةِ. كان قد حصلَ لديه انتصابٌ، وعندما قبضتُ، بعد ذلك بهنيهةٍ، على يدهِ وعصرتُها بحنانٍ، تحوَّلت تلك اليد الكبيرةُ، الضخمةُ، الثخينةُ، إلى يدٍ مُنمنمةٍ، طيِّعةٍ، ومستكينةٍ، وغمغمَ " شكراً لك ". فهمنا، يدي وأنا، تلك اللغةَ، لأني ما إن سمعتُ هاتين الكلمتين حتى انفصلتُ عن ظهرِ الفتى. وغمَرَه شعورٌ بالارتياح لأنَّ أحشاءه هدأتْ وتراخَتْ مرةً أخرى، لكنه كان يتألَّمُ لأنه باتَ يواجه كيانَه الكُلِّي المُستعاد، شخصيته الحُرَّة والمتوحِّدة، التي تكشَّفَتْ له عُزلتُها بانفصالِ الله ذاته عنها. عندئذٍ أحسَّ بغصَّةٍ يمكنُ ترجمتُها بالسؤالِ التالي، الذي أطرحُهُ نيابةً عنه: "ماذا ستفعلُ الآن، وأنتَ دون الله؟ "

وسرعانَ ما حطَّمَ ذهولَه كربُه. دفَعْتُهُ بخشونةٍ وطرحتُهُ على ظهره.

ابتسمَ باولو لما رأى ابتسامتي. الشارب، والتغضنات، وخصلة الشعر اتَّخَذَتْ فجأةً أبعاداً إنسانيّةً، وببركةِ كَرَمٍ لا يُضاهى هبَطَ الشعارُ الرائعُ لشعبِ الشيطان المختار ليشغلَ ذلك المسكنَ البسيطَ، الجسدَ السقيمَ لملكةِ عجوزٍ، لـ " منيَك ".

ثمَّ هممتُ - أقصدُ أنه لم تكن هناك أي دلالة مرئيّة على نيتي، مع أنَّ هذه الأخيرة كانت قد جعلتني أكثرَ براعةٍ في وصفِ الحركةِ من بدايتها إلى النهاية في داخلي وبذا جعلَتني أشعرُ بخفَّةٍ كانت جديرةً بدفعي إلى أن أستعيدَ الزمنَ الماضي - كنتُ أقولُ إني هممتُ بالقفزِ مُغادراً السريرَ، إلا أني كبحتُ نفسي على الفورِ واستلقيتُ، بتأنٍّ شديد، إلى جانب باولو. قمتُ بتلك الحركةِ الرشيقة، والتي بقيتْ حركةً داخليةً وكبحتُها ولم أكبحها، لأنَّ روحي كانت قد عزَمتْ على الوقوفِ على قدمِ المساواةِ مع باولو وعلى أن تكون إيماءاتي جديرةً بشخصٍ في مثلِ سنّه. عندئذٍ كان عليّ، لكي أحررِّ عُرى أزراري، أن أديرَ جسمي قليلاً نحو باولو وأدفعَ بطنَه إلى أعلى لكي تمسّ ناصيتي، المؤلَّفةُ بشكلٍ غامضٍ من الشَعْر، أنفَ باولو، الذي تجرأ على رفعِ الخُصلةِ برقّةٍ بطرفِ إصبعه، ذي الظفر الأسود المقروض. لقد كان هتلر متألِّقاً.

كان أداءً خشناً وعنيفاً - أو بالأحرى كدّاً منتظماً - حاولتُ فيه بكل وسيلةٍ ممكنةٍ أن أعودَ إلى مرحلةِ اليرقة التي بواسطتها يعودُ المرءُ إلى عالمِ النسيان. كانت مؤخّرة باولو شَعراءَ قليلاً. وكان الشَعرُ أشقرَ ومجعّداً. حشرتُ لساني فيها وحفرتُ أعمقَ ما استطعتُ. وابتهجتُ أيّما بهجة بالرائحةِ القذرة. وأخرجَ شاربي معه، مما أسعدَ لساني، قليلاً من العجينة التي شكّلها العَرَقُ والخراءُ بين شعر باولو الأشقر. رحتُ ألكزُ

بخطمي، وعَلِقْتُ في العجينةِ، بل إني عضضتُ - أردتُ أن أُمزِّقَ عضلات الثقبِ قطعاً وألجَه مباشرةً، كالجُرذ في عمليةِ التعذيبِ الشهيرةِ، وكجرذانِ مجاري باريس التي نهَشَتْ أجملَ جنودي. وفجأة استعدتُ أنفاسي، وأصابني الدوار، ومكثْتُ برهةً مُستلقياً بسكونٍ على أحدِ الردفَين كأنما على وسادةٍ بيضاء.

كنتُ واثقاً من قوتي. إلا أني شعرتُ أنَّ ذاك الجزءَ العاري مني في الغرفةِ كان مُعرَّضاً للأذى. كانت العيونُ تتجسَّسُ عليَّ من الجهات كلّها. وباتَ في إمكانِ جواسيس العدو أن ينفُذوا من خلال ذاك الثقب. كان الفتى الباريسيّ يقومُ بعمَله ببسالة. في أولِ الأمرِ كان خائفاً أن يؤذي الفوهرر. كان الجزءُ الأساسيُّ من باولو وآلة التعذيبِ هي القضيب. كان يتمتَّعُ بكمالِ آلةٍ، بقضيبِ وصلٍ دقيقِ الإعداد. معدنُهُ متين، لا تشوبه شائبةٌ، لا يفنى، مُلَمَّع من كثرةِ العملِ والاستخدام الشاقّ الذي سُخِّرَ لأجله: كان مطرقةً ومعولَ عاملٍ منجم. كان أيضاً بلا حنان وبلا رِقّةٍ، وبلا الارتجاف الذي يجعلُ حتى أعتى الأشداء يرتعشون برهافةٍ. وغمرَتْ باولو البهجةُ لشعوره بإثارةِ السعادة بسماعِ الأنين الفَرِحِ للمدام. وإدراكُهُ جمالَ عملِه جعَلَه فخوراً وأشدَّ اتِّقاداً. أصبحَ الفوهرر الآن يتلكَّأُ في عملِه مهابةً وليس بدافعِ الاحترام العادي. ولما كان باولو موضوعَ تلك العبادة، فإنَّ قضيبَه لم يكنْ أجملَ في أي وقتٍ مضى. لقد ارتعشَ بغطرسةٍ، وادُّخِرَ لتأليهه، وعندما انتهى الأمرُ، راحَ باولو، وقد أصبحَ عندئذٍ خجولاً وعادياً، يُراقبُ المراسمَ بلا فضولٍ وغَلَبَه المللُ. أخيراً، منحَ هتلر القضيبَ قُبْلَةً أكثر ورعاً. ثم أحاطَه بذراعه اليمنى وحَضَنَه في تجويفها، في الطيَّةِ المُتشكِّلَةِ في الجانبِ الداخلي من المِرفَق. هذه الحركةُ

كانت جديرةً بأن تجعلَ أيَّ شخصٍ غير باولو يدعُ أيره يتحوَّلُ إلى طفلٍ وليدٍ بين ذراعين لتحضناه. لم يرفَّ له جفنٌ ودَفَعَه الضَجَرُ إلى الفرار من المكان، لكنَّ حركةَ رأسي المُتَعلِّقة أعادته. لم يخفض ذراعيه. لم يسمح لأداته اللعوب أن تفقدَ شيئاً من قساوتها، وبقيتُ إنساناً مسكيناً، ولداً متروكاً مسكيناً تُحلِّقُ حياتُهُ عالياً في غيبوبةٍ من السعادةِ والحزن.

فكَّرَ باولو " سوفَ يقتلني، بما أنه لن يستطيعُ أن يتَّهمني جهاراً، سوف أموتُ مُسَمَّماً، أو مقتولاً. سوف يقومون بذلك على عجلٍ، في إحدى الحدائق "

* * *

خلال برهةٍ انتعشَ الأملُ في باولو، شعرَ بالثقةِ بالنفس، وبالسكينة. وفجأةً، ولدى استدارته ليُزَرِّرَ بنطاله رأى على الجدار صورةً للفوهرر، الذي يُشبه كثيراً الرجلَ الذي ما يزالُ يسمعُ حفيفَ موتِه، وأتاهُ الخوفُ، وثباً، طفراً، وقفزاً، من آخرِ العالمِ وجثَمَ على كتفيه: مشى خطوةً على البساط. كان هتلر خلفَه، مساعداً للتدخُّل. وكان باولو يُزَرِّر على مهلٍ وينتظر. شفتاه متباعدتان، وعيناه تحدِّقان. نظرَ إلى مغسلةِ الأعضاء التناسلية البورسلان الأبيض، إلى ورقِ الجدران، إلى الأثاثِ الرخيص. وسط الصمتِ كان يسمعُ الأرض تدور حولَ محورها وتتدحرج حولَ الشمس. كانَ الخوفُ يملأه. كان ينزُّ خوفاً. لم يكن يرتجف. ومن كل مسامِّه، وعبر قماشِ رداءِ الميكانيكي نزَّ بُخارٌ خفيفٌ جداً وامضٌ غلَّفَ جسمَه بأكمله بدا كأنه هو الذي يُطلقُهُ (كما تُطلقُ السُفُنُ ضبابَها الاصطناعي إلى البحر) لكي يموِّهَ نفسَه، ليختفي. وضَمِنَ الخوفُ له الاختفاء. وفي كثافةِ الضوءِ الذي كان ينكمشُ هو داخله إلى حجمٍ

غُصَين، شعرَ بأمانٍ تام. كان جلدُهُ كله ينطوي، كأكورديون، ولو أنه، بنوعٍ من الشجاعةِ الفوقِ إنسانية (ولا شك في أنها مستحيلةٌ وسطَ تلك الارتعاشات الليّنةِ والبراّقةِ بضياءٍ مُبهِرٍ)، جرؤَ على القيام بحركةِ وضعِ يدِهِ على فتحةِ بنطاله، لرأى أيره، الذي يكونُ عادةً بارزاً بمسافةٍ كبيرةٍ بعيداً عن القلَفة، متراجعاً داخل نفسه، كما يحدثُ في الأيام الباردة، ومُغطًى بأكمله بالجلدِ الخارجي. لرأى ذاك الشيءَ المُثيرَ للشفقةِ لا يكادُ يتدلّى. تقدَّمَ من النافذةِ على مهلٍ ورفَعَ الستارةَ المُخرَّمةَ حيث كنتُ أراقبُ نهرَ السين يتدفّقُ ماراً ببطءٍ.

* * *

ريتون، الذي أصابه الإمساكُ واضطربَ جهازَه الهضمي كله من فرط التعب، شعرَ بالضراط يكاد ينطلقُ. شدَّ على ردفيه، وحاولَ أن يدفعه ليتَّجِه إلى أعلى بحيث ينفجر داخله، لكنَّ درعَه كان ضيِّقاً جداً، ولم يعُد في إمكانه أن يضبطَ الغازات التي ظلَّ يكبحها بعض الوقتِ من باب الاحتشام. ضرطَ. وأحدثَ ذلك صوتاً مكبوتاً ومقتَضَباً وسط الظلام، صوتاً كُبِحَ سريعاً. كان الجنودُ خَلْفَه، في الغرفة.

قال في نفسه " إنهم ألمان. لعلهم لا يدركون "

وتمنّى ذلك. لم يكن الجنودُ يخجلون في حضوره. طوال ثلاثة أيام كان يُقاتلُ. وكَشَفَ له اتِّصاله بهم عن قُربٍ أنَّ المُحاربينَ الأكثر صرامةً في مظهرهم كانوا ربما عفنين من الداخل. وعلى الرغم من أسبقيّتهم، إلا أنَّه لم يجرؤ على نسيانِ نفسه في حضورهم، لم يجرؤ على التخلُّص من غازاته صراحةً، لكنَّ انزعاجه كان عظيماً في ذلك المساء. همسَ إريك "شش! " وهو يُديرُ عينيه وأشارَ بإصبعه ليدلَّ على أنَّ الظلامَ يمكنه أن

يسمعَ أوهى ضجيج. ثم ابتسمَ قليلاً. وشعرَ ريتون أكثر بإنسانيته. كان ما يزالُ موجوداً في عالمٍ لا يجرؤ المرءُ فيه على أن يضرط. الليلُ لم يكُن معنا. وآذان الصَديقَين كانت مملوءةً بضجيجِ جداجدِ الصمت. رنَّتْ طلقةٌ في المدى. ارتجفَ ريتون. تلك البدعة القاتلةُ كان يوجِّهها رأسٌ فائق الجمال من الشعر المُجعَّد. لاحظَ إريك ولم يُلاحظ الفتى اليافع في الشارع الفرعي. الصورة التي كان قد كوَّنها عنه ومرآه في تلك الأمسية وهو في لِباسِ القتالِ جعلَه يُشبِّهُ ريتون بحلزونٍ حديثِ الولادةِ تعيسٍ ربما قابلَه للمرة الأولى دون قوقعته، أو بناسكٍ خارجَ كهفهِ المحفور في الصخور يُعايشُ قَدَرَه. ولم يكن فتى الشارع الفرعي واللقاءات كلها قد تلبَّسَ بعد هيئته الواقعية أو ارتدى لباس الاستعراض ليواجه الموتَ به، والمجدَ، والعار. لعلَّ المخلوقَ الصغيرَ الفاتن المنتمي إلى الماضي كان له كأخت أرقّ حاشية. إننا لا نعرفُ شيئاً عن المعجزات التي تُحوِّلُ فتى ماراً يُغنِّي ويُصفِّر إلى أداة مرهقةٍ للموت تندُّ أوهى حركة عنها. ولو كانت تقطيباً، أو عَبَثاً شديدَ الأناقة بمروحةٍ خفيّةٍ، عن إرادةِ التدمير. لقد كان يقفُ أمامَ إريك ما يعتبره أي ألماني أروعَ ما يمكنُ أن يوجد: فتى يخونُ وَطَنَه، لكنَّه خائنٌ صغيرٌ مقدامٌ وشجاعٌ حتى الجنون. في تلك اللحظة كان حريصاً على أن يقومَ بالقتلِ كقاتلٍ مُتمرِّس.

غمغمَ ريتون " لا، لا شيء هناك "

" Wie؟ لا شيء؟ Nichts؟ " (لا شيء)

" Nichts" (لا شيء)

لكي يلفظَ هذه الكلمة الأخيرة التي خرجَت " Nichts"، مُحوِّراً إياها كما يفعلُ أولادُ شوارع باريس، أدارَ ريتون رأسَه دورةً كاملةً وابتسم.

وصَلَتْ ابتسامته إلى إريك، الذي ردَّها. كانت السماءُ من فوقهما مُرَصَّعةً بالنجوم. وأضفى تشعُّث خصلات شعر ريتون عليه مَظهراً أكثرَ فظاظةً، لم تُبدِّد الابتسامة. كان الظلامُ يواصلُ عمله على وجه إريك المُتعَب. كان يُثلِّمُ الحاجبَين ويُقسّي الأجزاء اللحميّة، التي بدتْ كأنما قُدَّتْ من حجر. ورمى ظلُّ الأنف بزاويةٍ منخفضةٍ جداً، ومن لحيةٍ عمرها أربعة أيام تدفّقَ ضوءٌ رقيقٌ جداً وأشقر. تبادلا النظرات بصمتٍ، يفصلُ بينهما مسدس ريتون الرشاش. اقترب الرقيبُ، الذي كان خلفهما، بقدميه اللتين تنتعلان الجوربَ، وزاد صمتُهُ، برهةً، من صمتِ الآخرين. سألَ إريك برفقٍ إنْ كان لاحظَ ما يُريبُ. لا شيء. أمَرَهُ بالدخول، وبعد أن أمسَكَ بيد ريتون نجحَ في القولِ، وهو يقوده ببطءٍ شديدٍ: " عليك... أن... تنزع عنك... أمشاط الرصاص "

حاولَ أن يشرحَ دون كلام أنه أرادَ أن يُبقي عليه درع الزَرَد، لكنَّ الرقيبَ أصرَّ. استدارَ ريتون ليدخُلَ خلفَ الرقيب، وفي تلك اللحظة وقَعَتْ عيناه على شيء غريبٍ لم يكن قد لاحظَ وجودَه حتى ذلك الحين، على ما يشبه الخرقة تتدلّى من نافذةٍ في المنزلِ القائمِ إلى اليسار. مالَ إلى الأمام، فلمَحَ العلمَ الأميركي ذا الخطوط المريضة. لا يكادُ يبدو للعيان، بل وَجَدَه بالأحرى أشبَه بإشارةٍ سرِّية. دخلَ. وبعنايةٍ شديدةٍ راح إريك والرقيب يَفُكَّان أربطَتَه الحديدية. وبينما هما يعملان في صمتٍ وبحركاتٍ حَذِرَةٍ، أبقى الثلاثةُ أفواههم مفتوحة. كانوا في حاجةٍ إلى شيءٍ من الماء ليرطِّبوا أحناكهم الجافة.

"Wasser ..." (ماء)

هكذا همسَ ريتون، وهو يُقلِّبُ إبهامَه فوقَ فمِهِ وكأنَّه صنبورٌ انقطع الماءُ منه. " أيها الرقيب... أنا عطشان... "

" لا "

" ماء... "

" لا ماء... "

" ألا يوجد في المطبخ؟ "

رسَمَ الرقيبُ تكشيراً أعرضَ بينما كانت شفتاه تُشكِّلان بصمتٍ كلمة Nicht وحرَّكَ سبَّابَته ذهاباً وإياباً أمامَ وجه ريتون. كادَ ريتون يُصرّ، دون أن يفهم لماذا حَجَبَ الماءَ عنه، لكنَّ الرقيبَ ولَجَ غرفةَ النوم. فتحَ دولابَ الملابس بصمتٍ، وأخذَ منه مِلءَ ذراعين من البياضات، وحملها إلى الحمَّام، وهناك صنعَ ما يُشبه الفِراشَ، وعادَ ليُحضِرَ ريتون، الذي أراده أن ينامَ هناك. رفَضَ ريتون، مدفوعاً بلمسةِ كبرياءٍ كدافعِ احترامِ التسلسُل الهَرَمي الألماني الذي اكتسبه لتوِّه بعدَ يومين من الحياة المُشتَركة مع الفريتز. وأصرَّ الرقيب.

" أنت صغير جداً... وفتيَّ جداً "

في الظلام، حاولَ الفتى، وهو يتشبَّثُ بذراعِ الرقيبِ لكي يُقرِّبَ فمَه من أذُن الآخر، أن يبدو حازماً.

همسَ " كلا، أيها الرقيب. أنا جندي، وأنتَ ضابط صف "

وأضافَ، ضارباً صدرَه بصفعاتٍ عريضةٍ صامتة " أنا قوي، أنا جبّار "

وعلى الرغم من أنَّ القلقَ انتابَ الرقيبَ قليلاً حولَ فكرةِ السماحِ له بالتنقُّلِ بحريَّةٍ بين الأسلحة (كانت خُطَّتُه أن يحبسه في الحمَّام)، إلا أنه تذكَّر كم كان ريتون مُخلصاً على طريق دو بلفيل، فعادتْ إليه ثقته في نفسه. أخيراً، جعله تعبُهُ يرغبُ في أخذ الفراش الصغير الذي أعدَّه لتوِّه في مغطس الحمَّام. عادَ إلى غرفة الطعام، ومرةً أخرى بهدوءٍ، ليُغلِقَ

النافذة. بحَثَ ريتون عن كأسٍ في الظلام، فعثَرَ على واحدٍ على الرفِّ فوق المغسلة، وأدارَ الصنبورَ. لا يوجدُ ماء. أخيراً أدركَ سببَ رفضِ الرقيب. وفي غمرةِ يأسه، وغضبه كولدٍ يشعرُ بالعطشِ باطراد أكبر، عادَ إلى غرفةِ الطعام. كانَ قد توفَّرَ الوقتُ للرقيبِ كي يُغمغمَ بالألمانيَّة إلى إريك، الذي كان جالساً على كرسي ومرفقاه على ركبتيه ورأسه تُسْنِدُهُ يده " سأتركك مع الفرنسي. فكُن يَقظاً "

صافحَ ريتون وعادَ بهدوءٍ إلى الحمّام. ظلَّ الفتى واقفاً بعض الوقتِ بصمتٍ بجوارِ الطاولة. رآه إريك، الذي كان موجوداً في خلفيَّة الغرفة، تُحدِّدُ الخلفيَّةَ المُضيئة للنافذة شكلَه. وأدركَ ريتون، وهو يتخفَّفُ من الرداءِ المعدني ومن سلاحه، كم هو مُتْعَبٌ. كل شيء كان يرشحُ منه في وقتٍ واحد - كبرياؤه، عارُه، حقدُه، يأسُه. لم يتبقَّ منه غير جسدِ فتى مُرهَقٍ، مسكينٍ، غَلَبَه الضجرُ، وعقلٌ متحلِّلٌ من فرط التعب. بعد انتباه دقيقةٍ إلى حركاته تحرَّكَ إلى الأمامِ نحو كُرسي إريك. تلمَّسَ قليلاً في الظلامِ، وتحسَّسَ الشعرَ، والياقةَ، والكتفَ. وعندما ميَّزَ ملمسَ شارةِ الألمانيِّ أحسَّ أنَّ شحنةً أُفرِغَتْ من ذراعه، من كتفه، من جسده كله. وتجلَّتْ بشاعة موقفه له بوضوحٍ أكبرَ في الظلامِ الحالك. لقد وقَعَ فريسةً للشارة التي كانتْ تُعْتَبَرُ، وهو صبي في الثانية عشرة قبل الحرب، دلالةً على الشيطان. لم تكشفْ أي حركة تراجعٍ عن كربه. ولدى أول لمسةٍ من يده لشعر إريك أجفَلَ هذا حين تعرَّفَ على فتى الميليشيا الصغير. انتظر دون أن يُبدي حراكاً ليتعرَّفَ على نوايا الفتى. وفي الظلام عَثَرَتْ اليدُ الباحثةُ على إحدى يديَّ إريك وعَصَرَتْها. وحين مالَ إلى الأمام حتى داعبَتْ أنفاسُهُ كالنسيم عُنُقَ الفريتز، تمتمَ برقَّةٍ أخذت تتَّخذُ شيئاً فشيئاً نبرةَ صوتِهِ الاعتيادية " Gute nacht , Erik" (تصبح على خير يا إريك)

" Gute nacht، تصبح على خير يا ريتون "

" تصبح على خير "

بالحَذَر نفسه تراجعِ ريتون عائداً إلى النافذة واستلقى على البساط بهدوءٍ شديدٍ ويداهُ متشابكتان خلف رأسه. إثارةٌ خفيفةٌ جداً ضخَّمَت إيره عندما أصبح بالقربِ من إريك، ولكنّه ما إن تَمدَّدَ حتى لم يعُد يشعرُ إلا بنعيمِ كونِهِ في ذلك الوضع. وداخَلَتْه السكينة. ولكي يُطيلَ من أمد استمتاعه بها أبقى عينيه مفتوحتين في الظلام ورَفَضَ أن يستغرقَ في النوم. وازدادَ ثِقَلُ أعضائه وجسده المُمدَّد من فرط التعب. واستلقى جَسَدُهُ الضخمُ على البساط، الذي يغدو مادة حياته نفسها، ذلك لأنَّ النهارَ كله كان سقوطاً طويلاً. وجمَّعَ شعورٌ بيقينِ حضوره شتاتَ جسمه من أطرافِ الأفق كله، ووجَّه نداءً للتسلُّح إلى نقطةٍ مثاليّةٍ في منتصفِ نفسهِ بحملهِ إليها، على متْنِ موجةٍ سعيدةٍ، من نهايةِ أطرافِ أصابعِ يديه وقدميه إلى تلك النقطة غير الدقيقة من الجسد (وليس القلب) حيثُ تلتقي خطوطُ القوة، رسالةَ سكينةٍ وانتظامٍ، والأطراف، والرأسِ نفسه. بالمقابل، حررَّ يقينُ الوجودِ ذاك الأعضاء من عملها، أعفاها من كل مسؤولية. حضوره وحده كان يقظاً، ولم يعُد لعضلاته وجود. كان الهدفُ من ذلك النهار، من التمدُّد على البساط، قد تحقَّقَ. وفَّرَ ذاكَ المضجع المؤقَّتُ للفتى من الراحة أكثرَ مما قد يوفِّر، سريرٌ ناعمٌ وثيرٌ. شعرَ بالأمان فيه. كل نقطة من جسمه وَجَدَتْ دعماً مؤكَّداً فيه. وأيضاً عملَ الصمتُ، والظلامُ، وحضورُ إريك النائم، الذي باتَ أقوى بفضل نومِه، على حمايةِ راحَتِهِ بجدرانٍ سميكةٍ تضمُّ داخلها، لسوء الحظ، ولا يستطيعُ أحدُ أن يُبدِّد، قلقاً مخيفاً: والذي كان يسكنُ ذاكَ المقرَّ الخالي الكائن في أعلى

بناءٍ ملغومٍ، في كل طابقٍ منه، رجالٌ فرنسيون مشحونون بالحقد ينوون على أعظمِ الشرورِ، وكان مستعداً لنسفِ البناء أو لإضرامِ النارِ فيه من أجل قتلِ حفنةٍ من البوخ، سرب الدبابير المتشبِّثين بقمّته؟ ما كانوا ليغادروا كومةَ النفايةِ سالمين. ملجأه الوحيد هو أن يثقَ بإريك. كان عرضُ صدره الداكن البشرة وقوّته، والشعرُ الذي رآه ريتون من خلال فتحةِ القميص، واضحاً أمامَ عيني عقله. وتمنّى ريتون أيضاً، خلال فترةِ حلمِ يقظةٍ وجيز، أن يصبَحَ السكانُ كلهم مناصرين للألمان وأن تكونَ مُهمَّة العَلَم المُعلَّق على النافذة فقط إبعادَ الناس. بل إنه تمنّى أن يكونوا مُهذَّبين وألاّ يبلّغوا عنه المتمرِّدين. وتجرَّأ على تصوُّرهم يتَّصفون بعَظَمَةِ روحٍ أكبرَ من الحياة. ولكن ما إن شعَّتْ هذه الآمال حتى انطفأت.

" إننا هالكون، لا محالة. إذا لم نقُم بالمهمَّة غداً، سوف نقومُ بها بعد غد "

بعد ذلك بعشرين ثانية استلقى إريك، الذي لم يكن مرتاحاً قط في كرسيه، بصمتٍ إلى جوارِ ريتون. كان إريك منهاراً من فرط النعاس. ولما انحنى ليستلقي إلى يمين الفتى وكان قد عَبَرَ جسمَه، صرَّ قليلاً جلدُ حزامه الجديد.

فكَّرَ ريتون " لدنٌ بحق "، دون أن يعرف إنْ كان يقصد بكلامه الجلد أو جذع الجسم الرياضي. والصريرُ، الذي استفزَّ القوةَ العضلية، وقوة الفخذَين اللدنين الضخمين، والحركةَ الحُرَّةَ المثاليّة للمفاصل، طمأنته وأزعجته معاً. تمدَّدَ إريك على طوله وانقلبَ قليلاً على يمينه لأنَّ مسدسه كان في جرابهِ على اليسار ويمكن أن يكونَ عائقاً، لكنَّه أبقى ساقيه مستقيمتين ومتوازيتَين. كان بقدميه ذواتي الجورب. وكانت ذراعُهُ

اليمنى مُثبَّتةً في الأسفلِ، مسحوقةً على الأرضِ تحت عبءِ جسمه، وأصبحتْ يدُهُ اليسرى تعي، أثناء شبه إغفائه، قوَّتها وهي تُداعبُ عنقَه الرهيبَ، وتحيطُ به، كأنما لتصقلَه، مع أنها كانت حريصةً على أن تعي ما تفعل. وظلّت واعيةً لوجود ذاك العنق العضلي تحت كفِّها واستمدَّتْ المتعةَ من قفاه. داعبَتْ وجهه القاسي، الذي رقَّ باللحية الشقراء، ثم عادتْ واستلقتْ على صدره، وهناك بقيَتْ، منشورةً منبسطةً، وقد دخلَ قدرٌ قليلٌ من أطراف الأصابع في فتحة السترة والقميص لتلمس بشرتَه والشعرات الشُقر، وتفحَّصَ إصبعان نوعيّةِ غرانيت تلك البلاطة الكبيرة. واستغرقَ إريك في نومٍ عميقٍ، وقد هدهدَ اتِّصالُهُ الوجيز مع هذا الجسد. كان في إمكانه أن يموتَ في اليوم التالي ما دامَ قد تعرَّفَ إلى جمالِهِ في تلك الليلة. وما كاد ينتبهُ إلى أنه استدارَ نحو ريتون، وفي الوضعيّةِ التي وصَفتُها لتوِّي استغرقَ في النومِ من فوره، تقريباً. وفي الظلام، جعَلَتْ بعض الشعرات الشُقر التي نَمَتْ فوقَ قمة أصابع قدميه المرفوعةِ أمواجَ النومِ والصمتِ السوداءَ تتكسَّرُ فوقَ الجندي الميِّتْ. كان جسَدا الفَتَيَان يتلامسان. كان ريتون، المستلقي على ظهرِهِ، موجوداً على شاطئ إريك. ولو أنَّه أُصيبَ بنوبةِ دوارٍ لسَقَطَ فيه وغاصَ في الدوامات العميقة التي أحسَّ أنها تتدحرجُ من الصدرِ إلى الفخذَين، وكانت السببَ الأكثرَ غموضاً لبقائه حياً تحت ذاكَ الرداء الجنائزي الذي يُخفي أيضاً مُعدَّات (كتلك المخبَّأة بلا شك خلفَ ستارة سوداء في بيوتٍ معيَّنةٍ) من شرائط، وأحزمةٍ وابزيمات فولاذيّة، وسياطِ سائقي الخيول، وجزمات، ذكَّرَه بها صوتُ صريرِ الجلد، والفخذان اللذان استمدَّا قوتهما من افتتانٍ بالموت. استلقى ساكناً على ظهره، ينظرُ أمامه مباشرة إلى الطرف البعيد من

الغرفة التي كانت عيناه تتعوّدان على ظُلمَتها. كان يتملّكه الخوفُ، لأنه لم يكن قادراً على رؤيةِ أي شيء من إريك، مع أنَّ جسمَهُ كله كان يُسجِّلُ حضور جسد الآخر. وتيبّس من القلق. لو أنه كان مستلقياً على جنبه الأيمن، أي مُعطياً ظهرَهُ للجندي ولا يمسُّه، لما كان الأمرُ نفسه (وَضَعَه الملتفُّ إلى أعلى كان سيُتيحُ له أن يبقى إريك الذي يعرفه ضمن مجاله). لو أنه استلقى على ظهره لرآه بالتفصيل ولاستطاعَ في الوقت ذاته أن يبقى عميقاً داخلَ نفسه، ولكن بغضِّ النظر عن أن قوة ذاك الحضور كانت أعظم بكثير بالنسبة إليه من أن تثيره، فإنَّ وضعَهُ تركه مكشوفاً، أعزلَ، في وجهِ الأمواجِ المتدفِّقة التي كانت تتدحرجُ نحوه من جسد إريك وأثارته حتى أصابه الدوار. وحصلَ لديه انتصاب. ليس بسرعةٍ مفاجئةٍ، وإنما ببطءٍ. بدأ منذ اللحظة التي وعى فيها بعمقٍ قلقهُ، أي عندما رقدَ إريك، الذي كانت ملابسه تلمسُ ملابسهُ هو، بهدوءٍ تام، ولدى أول بوادر الإثارة، أول دفقة من العنف الأقصى تهزُّه، وعى شهوته. انقضَتْ نصفُ ساعة قبل أن يتوصَّل ريتون إلى قرارٍ أو أن يبدأ باتخاذ أول تحرُّك، مع أن وجهه استدارَ نحو وجه إريك. وفجأةً تجلّى له المعنى الحقيقي لخيانته. إنْ كانت البنادق الفرنسية مصوَّبة نحوه منذ أيام طويلةٍ، فذلك لمنعهِ من عزلِ نفسهِ فوقَ الصخرة التي رأته العيون كلها وهو يتسلَّقها مع متسلِّق الجبال الخارق ذاك.

" وماذا في ذلك؟ "

لقد كان يعشقُ الرجل. ارتعشَ متعةً من فكرةِ كونهِ شديدَ القُربِ من الهدف.

" أحبه بجنو... "

حتى بالتفكير لم يُكمِل كلمة " بجنون ". والولَه المشحون في كلمتي "أنا أحبه" استمرَّ، وتزايدَ بسرعةٍ جامحةٍ وقَطَعَتْ أنفاسه في منتصف الطريق للفظه تلك الكلمة المدوِّخة التي انتهتْ بالارتعاشة ذاتها التي تسارعتْ في بدايتها، هازَّةً جسمَ ريتون كله وهو يتأمَّل، للمرةِ الأولى، ولكن بنهم، بشيءٍ من اليأس، قضيبَ إريك. كان من شدة الإثارةِ بحيثِ لم يتخيَّله بدقَّة. كان انتفاخُ منفرجِ ساقيه من تحت البنطال الداكن اللون هو كلُّ ما رآه. وفجأةً صارَ يخشى أن يعرف إريك بما يجولُ في فكرِهِ فثارَ لمثلِ ذاك التفكير، لكنَّ افتخاره بجماله استعاد على الفور تقريباً ثقته في نفسه.

" ما دامَ لا توجد فتيات في المكان، فلعلّي أُقدِّم له خدمة. كان يمكنه أن يعثر على فتيان أقلّ جمالاً مني "

بتلك الفكرة وحدها كان يخلَعُ جَسَدَه على الجندي. أدرك ذلك، وكان يرغبُ بشعورٍ لذيذ، وساذج أيضاً، في أن يتَّخذ أي وضعيّةٍ ليُمتعُهُ. فجأةً، راحَ يفكِّرُ في خطورة تلك المغامرة: كان يخشى أن يرغبَ كلُّ الجنود في المباشرة معه. إنهم ألمانٌ ضِخام الرؤوس، خشنو التقاطيع، وهو، الأصغر سناً والأضعفُ، وحيدٌ وفرنسي.

حاولَ أن يستحضر أير إريك بدقَّة أكبر، تخيَّله ضخماً وثقيلاً مطبقاً عليه بيده. قام بحركةٍ خفيفةٍ ليمُدَّ ذراعه، لكنه تركَ يدَه ملقاة على فخذه. هذه المغامرة بالقيام بالإيماءة الأولى قطعَتْ أنفاسه. إنَّ المرء قد يفتح باباً عادياً فيوقظ خلفَه تنيناً ملتفاً حول نفسه لفَّات عديدة. وإذا نظرتَ في عيني كلب بتركيزٍ زائد فقد يُلقي على مسامعك قصيدةً مذهلة. وقد تكون مجنوناً منذ زمنٍ طويل ولا تدركُ ذلك إلا في تلك

اللحظة. أيمكنُ أن تكون هناك حيَّة في الحقيبةِ المعلَّقةِ في حاملِ المعاطف؟ حذارِ. فمن أصغرِ بقعةِ ظلٍ، من بقعةِ ظُلمة، يبرزُ فجأة جوّاسون مدجَّجون بالسلاح حتى أسنانهم يوثقونك ويخطفونك. انتظر ريتون قليلاً ريثما يلتقطُ أنفاسه. كان جسدُ إريك بأكملِه من الرأس حتى القدَم ملتصقاً بجسده. وتكشَّفَ أمرُ حبه له؛ في إحدى أخطر اللحظات منحه قوةً عظيمة حتى إن ريتون شعر أنه من القوة بحيث يسحقُ التنانين. فالخطرُ لا يكمنُ في الموتِ وإنما في الحب. لقد كان من شدَّةِ الذكاء بحيثُ يدَّعي النوم. كان يتنفَّس بصوتٍ مسموع. وأصبح خياله ممسوساً بصورةِ أير إريك، وودَّ، والدموع تكادُ تطفرُ من عينيه، لو يمدُّ يدَه اليسرى، ولكنْ قبل أن يتقدَّم على أي حركةٍ أدركَ، وهو ينفِّذها في عقلِه، أنه سيكونُ صعباً عليه أن يفتحَ فتحةَ البنطال. والتفَّ قليلاً على جنبه الأيسر.

" الفتحة، هذا كلُّ ما أحتاجه! "

ماذا في ذلك! ماذا يهمُّ ريتون استنكار هذا النوع من الحب مادام أنه سيموت في اليوم التالي، وماذا تهمُّ الحياة مادام يحبُّ إريك؟ وببراعةٍ فائقةٍ تظاهرَ بأنه يتقلَّبُ أثناء نومه ووضعَ قدمَه اليمنى، التي ترتدي جورباً رمادي اللون ناعماً، فوقَ إريك. قامَ بالإيماء بصورةٍ طبيعية جداً، وبدون أي خوفٍ، لكنه شعرَ أنَّ أول مرحلة نحو العناق هي التي تُقرِّبُ المرء من الألفة الحميمة، ثم، وبِنَفَسٍ مكبوتٍ، مدَّ يدَه اليمنى على طولها ووضعها على فخذ إريك، ولم تكدْ تلمسه.

" إذا عرفَ، فستقوم القيامة! "

وماذا في هذا؟ غداً سنُقتَلُ! يومٌ من العذاب لا يساوي شيئاً.

ضغَطَ يدهُ إلى أسفل برفقٍ، ثم بشدَّةٍ أكثر قليلاً. ولما لم يكن قادراً على أنْ يرى البقعة، حاولَ أن يُخمِّن مكانها. وعلى أساسِ تضاعيفِ القماشِ وموضعه قدَّرَ أنه عند منتصف الفخذ. ولو أفاقَ إريك في تلك اللحظة فقد يظنُّ أن النومَ وحده هو المسؤول. وتحرَّكَ عبر القماش، أو بالأحرى عبر المنطقة، وهو يكادُ يُصابُ بالجنون من شدَّةِ الخوفِ ومن جراءتهِ. كان إريك غارقاً في سُباته.

" إنَّ المرءَ لا يحدثُ لديه انتصابٌ إذا كان نائماً "

تحرَّكتْ اليدُ نحو الأعلى بالرهافةِ نفسها. وصلتْ إلى فتحةِ البنطال وميَّزتها. عانى ريتون من صعوبة التنفُّس. ها قد عثَرَ على الكَنز. يده الخفيفة المخيفة بقيَتْ برهةً من الزمن كما لو أنها معطَّلة. لا صوتَ في الغرفة. وسمع طلقة أخرى، آتية من بعيد.

فكَّرَ: " إنه قتالٌ في شارع بوينس أيريس. ما أبعده عن هنا ". اتَّخذتْ يده وضْعَ الهيمنةِ العظمى وكانت تباركُ أو كانت تشرفُ على العش في الأسفل. لابد أنَّ قلوبَ الألمان السبعة كانت تخفق. إنَّ ريتون سيُقتَلُ حتماً في اليوم التالي، ولكن قبل ذلك سوفَ يصرعُ عدداً كبيراً من الفرنسيين. لقد كان عاشقاً.

" أولئك البلهاء الملاعين. ماذا يعنون لي بحقّ الجحيم، ما هم إلا حفنة من الحمقى. سوف أصرعُ عدداً كبيراً منهم... "

بتلك اليد اليمنى ذاتها قامَ بحركةِ ضغطِ الزناد، رغماً عنه، بسبابته. ارتطمَ خنصره بالقماش - وكان هذا يعني أن يتركَ بابَ الظلام ينفتحُ على الموت. وأبقى قبضته المضمومة حيث كانت، جاعلاً ضغطها أولاً خفيفاً ومن ثم تركها تغوصُ تدريجياً بثقلِ وزنها داخل الطحلب.

كان الهلاكُ يتربَّصُ بالبناء. ثمة وجهٌ، قَدَرٌ، صبيٌّ، محكومٌ عليهم بالموت. لابد أنَّ علامةَ الهلاكِ محفورةٌ في مكانٍ ما، علامةٌ خفيّةٌ، فلعلَّها موجودةٌ في أسفلِ بابٍ في الزاويةِ اليُسرى، أو على زجاجِ نافذةٍ، أو في ارتعاشِ أحد المقيمين. لعلَّها شيءٌ يبدو للوهلة الأولى مسالماً - لا تعينكَ نظرةٌ ثانيةٌ على تقصِّيه - لعلَّها خيوطُ عنكبوت على الشمعدان (كان هناك شمعدانٌ في غرفة الجلوس) أو هي الشمعدان ذاته. كان المنزلُ يفوحُ بعبقِ الموت. كان يندفعُ نحو الهاوية. إنْ كان هذا هو الموت، فهو لذيذ. لم يعُد ريتون يخصُّ أحداً، ولا حتى إريك. وانتشرتْ أصابعُ يده كوريقاتِ نباتٍ حسَّاسٍ أمامَ الشمس. كانت يده تأخذ قسطاً من الراحة. كان قد دعمَ رأسه بذراعه اليسرى، وكانت روعةُ ذاك الوضع تنفُذُ إلى روحه. لم يكن قد قَتَلَ عدداً كافياً من الفرنسيين، أي لم يدفعْ الثمنَ الباهظَ الذي تستحقُّه هذه اللحظة. إذا نُسِفَ المنزلُ فهذا يعني دماره الكامل. وإذا أُحرِقَ فالحبُّ مَنْ أحرقه. وبرهافةٍ متناهيةٍ أخرجَ ريتون منديله من جيبه، بلَّله بصمتٍ باللعاب، ثم زلَقَه خلال فتحة بنطاله وبين ساقيه، اللتين كان قد رفعهما قليلاً لكي يستطيعَ أن يُنظِّف " عينه البرونزية " جيداً.

" أتظنُّ أنه سيغرزه فيَّ؟ أه، حسن، من يدري ". أراد أن يكون استعداده للعمل أقلّ من استعداده للحب. وفركَ قليلاً، ثم أخرجَ المنديل ليُبلِّله ثانيةً، وفرحَ بالرائحةِ التي نَفَذَتْ إلى منخريه وبما تخلَّفَ من عبقِ العرقِ والخراءِ على شفتيه. هذا الإعدادُ الكتومُ والحذرُ سَحَراه.

حول البناء وداخله، الذي خرّبته حشراتٌ غامضة، كانتْ الأمةُ مشغولةً، كما كان يرغب. أكاليلُ ورقيّةٌ متعدِّدةُ الألوانِ سُمِّرَتْ على

النوافذ ووصلتْ أزهارٌ بأسلاكٍ كهربائيّةٍ، ومُدّتْ أعلامٌ مُثلّثةٌ ومصابيحُ على حبالٍ من نافذةٍ إلى نافذة، وقماشٌ صُبِغَ في الظلام، وكانتْ النسوة تُخيطُ رايات، والأولاد يُعدُّون البارود والطلقات النارية لإلقاء التحية. كان الناسُ ينششون حول المبنى نعشاً علِقَ وسط المزيج الصبياني للشرائط الثلاثية الألوان بانضفارٍ أشدٌّ تعقيداً من انضفارِ حواشي زخرفة الأرابسك والمسمّاة بـ " الاحتفاليات ". في الظلام، نصفُ باريس كانت تُشيِّدُ بصمتٍ مِحرَقةً جنائزيّة جديدةً للذكور السبعة والفتى. والنصف الثاني كان في حالة ترقُّب.

قامتْ يدُهُ بالفتح. طيّةٌ أكثر قساوة جعلتْ ريتون يظنُّ أنه كان يلمسُ الأير. وهبطَ قلبه. " إذا حصلَ لديه انتصابٌ فهذا يعني أنه ليس نائماً. في هذه الحالة، أكلتُ خراءً ".

قرَّرَ أن يدعَ يدَه تتظاهرُ بالموت. وكان وجودها هناك متعةً لا يُستهانُ بها، ولكنْ كان للأصابع حياةٌ خاصةٌ بها وظلّتْ تبحثُ، على الرغم من القماش القاسي والحافّة المتيبِّسة لفتحةِ البنطالِ حيث توجد الأزرار. أخيراً استشعرتُ كتلةً ناعمةً دافئة. باعدَ ريتون ما بين شفتيه. ظلَّ هكذا بضع هنيهات، وهو يستنفر ذهنَه لكي يعي استمتاعه بشكلٍ كامل.

" لديه أخطبوط هناك بين ساقيه "

" سأبقى هكذا "

لكنَّ الأصابع أرادتْ الحصولَ على كامل التفاصيل. فحاولتْ بكلِ دقّةٍ أن تميِّز مختلف أجزاء تلك الكتلة التي أرضاه استسلامها بين يديه. إنَّ قوةَ إريك كلها موجودةٌ في تلك الكومة الصغيرة، التي كانت تشعُّ، وإنْ بهدوءٍ وثقةٍ، على الرغم من موتها. وكلَّ جبروت ألمانيا كان موجوداً

في تينك المخزنين المقدّسين والمستكينين، وإنْ كانا ثقيلين ونائمين، القادرين على أشدّ أنواعِ الإيقاظ خطورة. كانا مخزنين منتبهَين يكنزهما ملايين الجنود في مناطق متجمِّدة وملتهبةٍ لكي يفرضوا أنفسهم بالاغتصاب. وبمهارةِ شاغلِ المخرَّمات كانت اليدُ المُخيِّمة فوق القماش القاتم قادرةً على تنظيم فوضى الكنز المُلقى هناك مُلخبَطاً. قدَّرْت روعتَه أثناء العمل وستُها، هي الفتاةُ الصغيرةُ النائمةُ، في مخلبي الغوليّ. كنتُ أحميها. وزنتُها في يدي وفكَّرتُ " ثمة كنزٌ مخبَّأ هناك ". تصلَّبَ أيري من مجرد الإحساس بالودّ. كنتُ جديراً بها. عَصَرَتْها أصابعي أكثرَ قليلاً، بحنانٍ أعظم، ثم عادتْ تلاطفها. أزعجتْ حركةٌ خفيفةٌ من ساق إريك سكونَه. كنتُ مملوءاً بخوفٍ هائل، ثم حداني على الفور أملٌ، لكنَّ الخوفَ جاء أولاً. وحاولَ حشدٌ من صرخات الخوفِ متصاعدٍ من بطني أن يفتحَ حنجرتي وفمي غصباً، حيثُ كانت أسناني القويّة المُطبِقة بإحكامٍ متيقِّظة، ولما لمْ تجد تلك الصرخات لها منافذَ ثقبَتْ عنقي، فانبجسَ منه فجأةً عشرونَ سيلاً أبيض من خوفي تدفَّقَتْ على شكلِ عشرين قرحةٍ قرمزيّة متَّخذةً أشكالَ وردٍ وقرنفل. أبقيتُ الأير في يدي. إذا استيقظ إريك سوف أنتهزُ فرصتي. حتى إني تمنَّيتُ أن يفعل. ضغطتُ أكثر قليلاً، وحالما فعلتُ دُهشتُ إذ شعرتُ أير الفريتز ينتفخُ بين أصابعي، وبقسوةٍ وسرعان ما ملأَ يدي. كففتُ عن الحركةِ، لكني أبقيتُ يدي هناك ميّتةً وترقصُ. لعلَّ ملاطفتي كانت قد سبَّبَتْ لدى إريك انتصاباً ضخماً، استيقظَ، ولم يثُر. انتظرتُ هنيهاتٍ رائعةٍ، والغريبُ أنه لم ينبثق من ذاك الانتظار، منذ لحظةِ بدء يقظةِ الأير وحتى ذروة السعادة، أروع الأبطال قاطبةً، كانبثاقِ سيف كريساور من دم الميدوزا، أو أنهارٍ جديدةٍ،

ووديانٍ، وأوهامٍ. قافزةٍ إلى مسكبٍ من زهورِ البنفسج، والأمل ذاتُه بسترةٍ ضيّقةٍ حريريةٍ بيضاء ويعتمرُ قبعةً ذات ريش، وصدرٌ ضخمٌ، وقلادةٌ من أشواكٍ ذهبية، أو ألسنةٌ من اللهب، وإنجيلٌ جديدٌ، وفجرٌ شماليٌّ يشرقُ على لندن أو فريسكو[١٥]، وسوناتا ممتازة، أو من المذهل أنَّ الموتَ نفسَه لم يظهر كالوميض بين العاشقين. عصَرَتْ يدي الأير مرة ثانية، فأصبحَ ضخماً هائلاً.

" إذا غرزَ البضاعةَ كلها في ثقبي فسوفَ يُخرِّبُ العمليةَ كلها "

عصَرتُ أقوى قليلاً. لم يُبدِ إريك حِراكاً، لكنّي كنتُ واثقاً من أنه لم يكن نائماً، لأنَّ انتظام تنفُّسه كان قد توقَّفَ. ثم غامرتُ بملاطفته من فوق القماش، ثم مداعبةٍ أخرى، وفي كلّ مرة كانت حركتي أكثر دقَّة. لم يتحرَّكُ إريك، ولم يَفُه بكلمة. ملأني الأملُ بجرأةٍ أذهلتني أنا نفسي. زلَقتُ رأسَ سبابتي في أحدِ الشقوقِ الصغيرةِ بين الأزرار. لم يكن إريك يرتدي شورتاً للأعضاء التناسلية ولا شورت الملاكمين. تحسَّسَ إصبعي أولاً الشَعْرَ: تحرَّكَ فوقَه، ثم فوقَ الأير، الذي كان صلباً كقطعةٍ من الخشبِ، لكنه حي. الاتصالُ هزَّني. ففي حالةِ النشوةِ ثمة أيضاً عنصرُ خوفٍ مع احترامٍ للإله أو لملائكته. الأيرُ الذي كنتُ ألمسه بإصبعي لم يكن فقط أيرَ حبيبي وإنما أيضاً أيرَ محاربٍ، محاربٍ من أشدِّهم وحشيّةً وهولاً، أيرَ إله حربٍ، وشيطانٍ، وملاكٍ مدمِّر. كنتُ أقومُ بتدنيسِ شيءٍ مقدَّسٍ وكنتُ واعياً لذلك. ذاكَ الأيرُ كان أيضاً سلاحَ الملكِ، سهمَه، أداةً من تلك الأدوات الرهيبة، الـ v-1[١٦] التي يعتمدُ عليها الفوهرر. لقد كان الكنزَ الأكبرَ والأنفس للألمان. كان الأيرُ مُتَّقِداً. أردتُ أن أداعبه، لكنَّ إصبعي لم يكن حراً بما يكفي. خفتُ أن يخدشه ظفري إذا ضغطتُ. لم

يكن إريك قد أتى بأي حركة. ولكي يجعلني أظنُّ أنه نائمٌ تظاهرَ بأنه يتنفَّسُ بانتظام. وبينما هو بدون حراكٍ وسطَ حالةٍ من الصفاءِ الكامل – الخارق إلى حدِ أنه خشي للحظةٍ أن يشُعَّ نقاءُ رؤياه إلى خارجه ويُنيرَ ريتون – تركَ الفتى وشأنه وتسلّى بعبَثِه. سحبتُ إصبعي وبمهارةٍ فائقةٍ نجحتُ في فكِّ زرَّين. هذه المرة أدخلتُ يدي كلها. عصرتُ، وأدركَ إريك، لا أدري كيف، أني كنتُ أعصرُ بحنان. ولم يُحرِّكْ ساكناً.

كان القمرُ محجوباً. مشيتُ، حافي القدمَين، أولاً على أطراف أصابعي، ثم ركَضتُ، وارتقيتُ دَرَجاً، صعدتُ منازلَ لكي أبلغَ أشدَّ تقاطع طرق ساحة البيسين خطورةً. الكلُّ في غرناطة نائم. حفنةُ الغجر الذين كانوا يجوسون في الليل لم يتمكّنوا من لمحي. كدتُ ما أزالُ أنجرفُ على مساري. ولكن لمّا لم يكن هناك مخرجٌ من الساحةِ استمرَّتْ حركتي ضمن دوّامة خرساء، على أطراف أصابعي. مع ذلك، شعرتُ أنَّ أحدَ الغجرِ قد استيقظ: ربما على مبعدةِ عشرة منازل، تحت شُرفة. كان جسده الضخمُ النائمُ قد تململ على الملاءة الصوفية البُنّية، كان يزحفُ. تلمَّسَ الجدران، اجتازَ أزقّةً، نهضَ واقفاً، تقدَّمَ ليُقابلني، وأخيراً قفزَ داخلَ الظلام. كنا وحدنا في الساحة، والقمرُ ما يزالُ محجوباً، ولكن بغلالةٍ رقيقةٍ جداً. أمسكَ الغجري بي من وسطي، كسرني، رماني عالياً، ثم تلقّاني بسلاسةٍ وصمتٍ بين ذراعيه. التطريزات والتخريمات البيضاء لتنورتي دوّمَتْ في الظلام. وبنقرةٍ من أيره أطاح بي الغجريّ عالياً في السماء. ومن أرجاء أرضِ الأندلس كلها، من كل زخرفةٍ، من كلِّ خُصلةِ شعرٍ تصاعدتْ موسيقى راحتْ تداعبني. حدثَ ذلك كله في الصباح، كانت بضعُ خيوطٍ من ضوءِ الفجرِ تقومُ بالحراسة فوق التلال،

وأغانيها الزرقاء ما تزال غافيةً مغلّفَةً بحناجرِ الرعيان، سقطتُ منفرجَ الساقين على أير الغجري. انتشرتْ تخبُّطات أطرافِ تنورتي عبْرَ أصقاعِ الريفِ كالطحلب. كنا في نيسان، والقمرُ يُنيرُ امتداداً شاسعاً من أشجارِ اللوزِ المُزهِرِ حولَ غرناطة.

مهما يكُن، لمّا تأكّدتُ تماماً من سكونِ حركةِ إريك، هززتُهُ بسرعة. كان بدون شك يُفكِّرُ في رأس تلك الفتاة الذي يُتوِّجُ ذلك الجسد القوي الرقيق الذي يحملُ رداءً من طلقاتِ الرصاصِ المُدلّى فوق المدينةِ الفزِعَة. راحَ يُمضي الوقتَ بإعادة تركيبِ وجهها في مخيّلته. لقد وُهِبتْ له السعادةُ القصوى، بما أنَّ الفتى نفسه هو الذي لبّى نداءه السرِّي وجاءَ ركضاً ليُخوزِقَ نفسَه. وأقحمتْ هلوسةُ طفولتي القديمةُ نفسها، وأستطيع أن أترجمها فقط بالصورة التالية: " أنهارٌ راكدةٌ لا تنمزجُ ". على الرغم من أنَّ منبعها واحدٌ، وتتدفّقُ إلى داخلِ فمه، تنتشرُ فيه وتملأه. أصدَرَ أحدُ الجنودِ قليلاً من الضجيج. وخشيةَ أن يُبعِدَ ريتون يدَه، أمسكَ بها إريك، ضغطها إلى أسفل، وأبقاها في مكانها. وتناهى ضجيج آخر. وانتظرا برهة.

* * *

أنا قتلتُ، سلبتُ، سرقتُ، خُنتُ. يا للمجد الذي حقّقت! لكني لم أدعْ أي قاتلٍ عادي، أو لصٍ، أو خائنٍ، يستغلُّ مُبرِّراتي. عانيتُ آلاماً مبرّحة لأظفَرَ بها. إنها صالحةٌ فقط لي. هذا التبريرُ لا يمكنُ لكلٍّ مَنْ هبَّ ودبَّ أنْ يلجأ إليه. أنا لا أحبُّ مَنْ ليسَ لديهم ضمير.

لقد أرسلَ الفوهرر أجملَ رجاله ليلاقوا الموت. كانت تلك طريقتَه الوحيدة لامتلاكهم. كم من مرةٍ رغبت في أن أقتلَ أولئك الفتيان

الوسيمين الذين كانوا يزعجونني لأنه لم يكن لديّ عددٌ كافٍ من الأيور لأخرقهم بها في وقتٍ واحد، ولا ما يكفي من المني لأحشوهم به! أشعرُ أنَّ طلقَةً من مسدسٍ كانت خليقة أن تُهَدِّئَ من غلواء قلبي وجسدي وغيرتهما. كانت ألمانيا خازوقاً مشتعلاً نُصِبَ لأجلِ ريتون، خازوقاً أجملَ من خازوقٍ من لهبٍ، وقماشٍ، وورق. وخلال نوباتٍ وفتراتٍ قصيرةٍ، بلا انتظام، كان اللهبُ، والجمرُ، والجُذى[١٧]، تكسبُ عيشَها وموتها، تعضُّ، هنا وهناك، وتُهدِّدُ هتلر. إنَّ تلاعباً بسيطاً جداً - بعد تخليصهِ من السخرية اللفظيّة - يكفي الفكاهة كي تكشف عن مأساةِ وجمالِ حقيقةٍ ما أو روح. هذه اللعبةُ تُغري الشاعرَ. وقبلَ الحربِ، كان رسَّامو الكاريكاتير يرسمون هتلر بصورةِ فتاةٍ ذاتِ ملامح تهريجيةٍ ولها شاربٌ جديرٌ بممثِّل سينمائي هزلي. وكانت التعليقات عليها تقول: " إنه يسمعُ أصواتاً "... فهل شعرَ رسَّامو الكاريكاتير أنَّ هتلر كان جان دارك؟ لقد كانوا مدركين لأوجه الشَبَه، وأبرزوها. لذا، فنقطةَ البداية للملامح التي كانوا يخلعونها عليه كانت ذلك الشبه الكبير، بما أنَّهُم فكَّروا فيه، بوضوحٍ أم بشكلٍ مشوَّشٍ، وهم يُنفِّذون رسوماتهم ويكتبون تعليقاتهم. وأنا أعتبر أنَّ ذاك التمييز أقرب إلى الثناء منه إلى التهكُّم. ومكمنُ السخريةِ فيها هو الضحكُ الذي تنتزعه لأنه واخزٌ ولكي يثقبَ الهياجَ الذي قد يدفعك إلى البكاء في لحظاتٍ مُعَيَّنةٍ من تغلُّبِ العواطف عليك. إنَّ هتلر سيفنى بالنار إذا طابَقَ نفسَهُ مع ألمانيا، كما يُلاحظُ أعداؤه. إنه يحملُ جُرحاً دامياً يقعُ عندَ مستوى جرح جان دارك نفسه الظاهر على رداء سجنها.

ومثلُ فتيانِ الرايخ كلِّهم كان وجهُ إريك يحتفظُ بقدْرٍ من طرطشاتِ

منيّ مَلَكيّ- شيء يَشبهُ الخجلَ، وسلَبَ البكارةَ، وهو في الوقت نفسه ثُريًا برأقةُ ضبابيّةُ معاً (كما هو حالُ اللؤلؤ)، نفيسةٌ ومُنتشيةٌ، ومتلألئة، أعتقدُ أني تذكّرتُها حين رأيتُ حبّاتِ العرقِ على جبينه، حسبتُها دموعَ المني الشفّاف. لا شكّ في أن النازيّةِ هي السببُ في أنَّ إريك يحملُ تلك الغلالة الرقيقةَ من الخجلِ والنور، لكن الجلاّد في الواقع أفرغَ شحنتَهُ ذات مرة في وجهه، فأصيبَ إريك على الفور بدوارٍ وأخذَ يغوصُ داخلَ فكرةٍ كان ثِقلُها يُغْرِقَه:

" إنّه يُظلِمُ سمائي! "

كنا في السرير. ولدى مرأى الطائرةِ النفّاثة سرى فيه شعورٌ وجيزٌ جداً بالإعجاب، أما شعوري فكانَ بمسحةٍ من الخوف الذي بدلَ أن تضْرِبَ سندياَنَتَه صاعقةٌ، أطلقَتْ هي البرقَ، ولكن حين لمسَتْ القطراتُ، التي كانت ما تزالُ دافئةٌ، وجنَتَه وجذعَه، رأيتُ ومضةً من الكراهية في عينيه.

تبدَّتْ الصورةُ المعتادةُ في عينيّ الفوهرر: مهداً أبيضَ رائعاً. ولكن حالما رأى التخريمَ ولحافَ الموسلين، لاحظَ، حولَ الوسادة ويُغطّيها، إكليلَ الورود البيضاء واللبلاب الذي يُزيّنُها، بما أنها تضمُّ طفلةً ميّتةً. نهضَ هتلر واقفاً. مسحَ أصابعَه بمنديله. وكما يفعلُ دائماً بعد أن ينتهي من عَبَثِه، فكّرَ في جلاّده، الذي يجبُ عدمُ الخلط بينه وبين جلاد المجرمين، قاطعِ الرؤوس، الزائدةِ الطبيعية لحيوانٍ فظٍّ، غدّة السُّم والسهم، هو الذي أعدمَ له ضحاياه كلها - من السياسيين أو غيرهم - ولكن في كل مرة كان يتعاملُ معه، أي كثيراً جداً، كان يعتقدُ مكروباً أنه لعلَّ هناكَ لائحةً ما أو دفترَ ملاحظاتٍ يحتوي معلوماتٍ مُربِكَةً يحتفظُ به هذا القاتلُ حتى الآن، قتلاً للوقت.

بعد أن زررَ فتحة بنطاله، توجّه الفوهرر إلى غرفةِ الاجتماعِ، حيثُ كان الجنرالات، والأميرال، ومجلس الوزراء، في انتظاره. كانت حياةُ الفوهرر الأنيقة والبسيطةُ على وشكِ أن تُطلَق إلى العالمِ أعمالاً رهيبةً، أعمالاً سوفَ ترتفعُ إلى مستوى أشدّ الكوابيس إعجازاً في ازدهارها أنجزها وحدَه وبلا أي عون. أحاطَ به أصحابُ مقاماتٍ عاليةٍ، وشخصياتٍ نبيلةٍ جداً، رؤوسهم وأكتافهم غُطِّيَتْ بالذهبِ، صانوه كما يصونُ الكهنةُ ذهبَ أثَرٍ مقدَّسٍ. كان لهتلر أسرار. كان في مقدوره، وهو الساحرُ الأكبر، أن يطفو على السجاد ويتنقَّلَ خلال عدَّةِ غرفٍ جدرانها تحتوي ثقوباً من أجلِ مواسير البنادق.

فكَّرَ " ما أنا إلاّ مستحاثّة عتيقة "، وهو في طريقِ عودته من الاجتماع. شعرَ أنه مستحاثة مُغبرَّة. لقد استنزفته ممارسةُ الحب. لم يجرؤ على مسحِ أنفهِ أو حتى أن يُدخِلَ إصبعَه فيه. أواثقٌ أنا من أني أحكُمُ العالمَ؟

ريتون لن ينتحر... إلا إذا... سوف نرى. أنا مُصرٌ على أنْ يستمرَّ حتى آخر جزءٍ من الثانيةِ، في التدمير، والقتلِ - أو باختصار، في أعمالِ الشرّ بلُغَتِكَ - لإرهاقٍ، وبهدفِ بلوغِ نشوةٍ تتعاظمُ باطراد - أي الرِفعَة - الكيانِ أو الفلز الاجتماعيّ الذي ستخرجُ منه أشدُّ الأحجارِ الكريمةِ بريقاً؛ العزلةُ، القداسةُ، وهي أيضاً عبَثُ حريّته، المُبهمُ، البرّاقُ، والذي لايحتمل. وأودُّ أن أقولَ لكلِّ مَنْ يمكن أن يشيرَ إلى أنَّ ريتون وحيدٌ بما أنَّه عاشقٌ، إنه لولا ذاك الحب لما وصلَ إلى الذروة. إنَّ الضرورةَ ذاتها هي ما دفَعَ رجالَ الميليشيا - وخاصّةً ميليشيانا - إلى إطلاقِ النارِ على الفرنسيين، ولكنَّ الأمرَ الوحيدَ المهمّ هو هذا: أن تُمْنَح العزلةُ وتُقبَل. إنَّ رفضَها حين تكونُ حتميّةً هو يأسٌ، إثمٌ يتعارضُ، كما أعتقد،

مع الفضيلةِ اللاهوتيّة[١٨] الثانية. على أي حال، إنني أكتبُ هذا الكتابَ وأقترحُ هذه الأشياءَ، وبينما أرتقي مُتَعثِّراً وغالباً ما أقعُ وأنا في طريقي إلى أعلى نحو صخرةِ عزلتي إذا بصداقتي، إلى جانبِ عشقي الجنسي لأنقى المراهقين وأشدُّهم استقامةً، قديسٌ بمفهومِ الناسِ، تستحضرُ صورةَ خائنٍ مُبجَّل. إنني وأنا تحت سيطرةِ موتِ جان الحديثِ العهد، مصبوغاً بذاك الموتِ وبشعارِ حزبِهِ، أكتبُ هذا الكتاب. لعلَّ الأزهارَ التي أردتُ أن أُغدقَ في نثرها على قبرِهِ الصغيرِ الذي ضاعَ وسطَ الضبابِ لم تُذبِّل، وقد لاحظتُ لتوِّي أنَّ أهمَّ شخصيةٍ مجَّدَها سردي لأساي عليه وحبي له سوف تكونُ ذاك الوحشَ المُضيءَ المُعرَّض لأروعِ عزلةٍ، ذاكَ الذي انتابني في حضورهِ ما يُشبه النشوةَ لأنه أفرغَ شحنةً من نارِ مسدسه في جسده.

تابعَ ريتون مسيرةَ قَدَرِهِ التعس الذي لن يُخرِجَهُ أبداً من بؤسٍ مخيفٍ تحتويه مزهريةٌ رائعةُ الجمال. حين انضمَّ إلى الجماعةِ كان ما يزالُ جميلَ الطلعَةِ، ومع ذلك كانتْ حياتُه بشعةً. وسطَ هذه الظروف، وهو تعِبٌ، ينضحُ عرقاً ويعلوه الشحوب، أخذَ القطَّ ووضَعَه داخلَ حقيبةٍ من قماش الكانافا، وأغلقها: ثم راحَ، وبكلِّ عزمِه، يدقُّ تلك الكتلةَ الغريبةَ الشكلِ، الغامضة والكئيبة. ولم يمُتْ القط. واعتقدَ أنَّ الرأسَ قد تهشَّمَ، فأخرجَ الحيوانَ الذي كان ما يزالُ يرتعشُ. أخيراً، ثبَّتَهُ بمسمارٍ في الجدارِ الذي ذكَرتُهُ في وقتٍ مُبكِّر وقطعه. استغرقَ منه العملَ وقتاً طويلاً. والجوعُ الذي كان قد بارحَ ريتون بعض الوقتِ عاد يمضُّ معدته. كان دفءُ القط ما يزالُ يشعُّ منه حين نزَعَ اثنين من قوائمه وغلاهما في قدْرٍ. وأمام البقايا المتنوِّعة، والجلد الذي كان قد انقلَبَ داخلُهُ إلى الخارج كقفَّازٍ وقد غطَّاه الدمُ، أكلَ بضعَ قطعٍ كانتْ تقريباً نيئة، وكان طعمُها تَفِهاً، إذْ لم

يكن لديه ملحٌ، ومنذ ذلك اليوم وريتون يعي وجودَ كائنٍ سنّوريّ يتركُ علامةً على جسمه، أو بعبارةٍ أدقّ، على معدَته، كالحيوانات المطرَّزة بخيوطِ الذهبِ على ثيابِ النساءِ في العصور الغابرة. ولأنَّ القطَّ كان مريضاً - وصلَ إلى حافةِ الجنون - بسبب ما تعرَّضَ له من عذابٍ، أو لأنَّ لحمَه لم يكن قد بردَ بعد، أو لأنَّ المعركةَ أيضاً سبَّبَتْ الاضطرابَ للفتى، انتابت ريتون آلامٌ في معدته ورأسِه أثناءَ الليل. ظنَّ أنه تسمَّمَ، ورفعَ صلوات مُتّقدة إلى روح القط. في اليوم التالي انضمَّ إلى الميليشيا. ويسعدني أن أعرفَ أنه موسومٌ هكذا، في أعماق لحمِه، بالختم المَلَكي للجوعِ. كانت حركاتِه شديدةَ الرشاقة وكانت تنمُّ أحياناً عن منتهى عدم الاكتراث حتى إنه هو نفسُهُ كان يظنُّ أحياناً أنَّ القطَّ الذي يحملُهُ في داخله يُحرِّضه، وكان يحمله حين قابلَ إريك. فيما بعد، سيعترفُ لي أنَّ الكلابَ في برلين كانت تنبحُ عليه عندما تنتابه حالةٌ من غضبٍ مكبوحٍ أو ظاهر.

" تتقدَّمُ الكلابُ وتشمُّني، وتتقافزُ من حولي وتحاولُ أن تعضَّني "

إنْ كان إريك أصبحَ، بسبب غضبِه، حيواناً مزعجاً للكلاب كالقنفذ أو العلجوم، فإنَّ وجودَ القط داخل ريتون كان يمكن أن يجعله يظن أنه تحوَّلَ، أو تشوَّه، حتى بات يُفرِزُ رائحةً سنّوريّة.

* * *

تابعَ الموكبُ مسيرهُ، وحين وصلَ إلى القبر المفتوح تلفَّظَ الكاهنُ بضعَ صلواتٍ أخرى، وردَّدَ أولادُ الجوقةِ بعدَه. ثم أنزلَ حفّارا القبر التابوتَ الصغيرَ. وطُمِرَتْ الحُفرةُ على عجل. ثم غادرتْ عربةُ الموتى مع الكاهنِ المكان. وتراجعَ أولادُ الجوقةِ قليلاً وجلسوا على العشب تحت

قوسٍ من الغرانيت ليأكلوا شطائر لحم الخنزير. الوحيدان اللذان بقيا مكانهما كانا حفّاري القبر والخادمة الصغيرة. ظلّتْ هي واقفةً تواجه القبرَ بوضعيّةِ طائرِ الهازجةِ نفسها عندما يبقى معلّقاً في الهواء، تدعمُهُ رفرفةُ جناحيه السريعة، ويحافظُ على سكونِ جسمه في وضعِ الطيرانِ الغريب الذي يُثبّتَه في مستوى واحد مع الغصن مواجهاً العشَّ حيث تزقزقُ صغارُهُ بينما هو يرقُبُها. تُجْفِلُهُ رِقّةٌ عظيمة. فكّرت الخادمةُ الصغيرة "قد يقتنصه طائرٌ مفترسٌ". كانتْ تطيرُ. كانتْ تُعلّمُ الطيرانَ. هزّتْ صلاةٌ مرتعشةٌ روحها وحلّقَتْ بها " على أجنحةِ الصلاة "، كما يقولون. كانت تنصحُ ابنتها بعذوبةٍ أن تتحلّى بالشجاعةِ، تناديها كي تقفَ عند حافّةِ العش. أوقفتْ حركاتِ جناحيها، لتُعطي الطفلةَ الميتةَ درسَها الأول. ثم خَلَعَتْ قبّعتها. ووضعتها على الأرض، وجلسَتْ على المقعد الحجري بجوارِ القبر. وبما أنها لم تكن تبكي، ظنَّ حفّارا القبر أنها ليست أمها. قال أحدهما:

" الجو حارٌ حتى بالنسبةِ لشهر تموز، هه؟ كأننا في الجزائر "

كانَ قد التفتَ بسذاجةٍ نحو زميلِه العامل، لكنَّ نبرةَ صوتهِ دلّتْ إلى أنه كان يُخاطبُ الخادمة. وبيديه في جيبيه وصَدره المرتدّ إلى الخلف، راحَ يسحقُ الأرضَ بكعبِ حذائه، فطقطقَ على التربةِ الجافّة.

قال الآخر " الجو حارٌ فعلاً "، وغمزَ بعينه إلى زميله بطريقةٍ توحي بأنه إنما تفوّهَ بملاحظةٍ مشحونةٍ بتضميناتٍ مُثقَلَةٍ بالمعنى.

" ما نحتاجُ إليه الآن هو المطر. إنَّ الجوَّ حارٌ حتى على الخضروات "

" ونحنُ، نحنُ نحتاجُ إلى نبيذ، ألا تظن؟ "

ضجَّ الاثنان بالضحك، وأزاحَ ذلك الذي تكلّمَ أولاً، ذو الشعر

الطويل البُنّيّ البالغ ثلاثينَ من العُمر وكُمّا قميصه مرفوعَان إلى أعلى، والعينان الضاحكتان، والأسنانُ براقة، الإكليلَ الذي على شكل نجمةٍ، الموضوع على المقعد الحجري وجلسَ بالقربِ من الخادمة.

" تبدين مُتْعَبَةً يا فتاتي "

بدتْ وكأنها تبتسمُ، بما أنَّ التعبَ رسمَ تعبيراً على فمها. وخِلافاً لباولو الذي كان دائماً متجهِّماً، كان ريتون يبتسم. كان مرِحاً بطبعِه. حين كان يقومُ بإيماءاتٍ معيَّنةٍ كركوبِ دراجةٍ وقيادتها بسرعةٍ وجسمُهُ محنيٌّ فوقَ المقودين، أو حين يميلُ على الدرابزين، أو يُراقبُ الفتيات بشكلٍ عابر، أو ينخَعُ بنطاله إلى أعلى، كان الرجالُ في الشارع ينظرون إليه مذهولَين. وحين كان يدركُ أنَّ ثمة مَنْ ينظرُ إليه يبتسم بروحٍ مرحةٍ، وبابتسامةٍ مرسومةٍ على وجههِ يعمدُ إلى إبرازِ وقفَتهِ وينجحُ بهذا في أن يكونَ لعوباً تماماً. ولكن لنعُد إلى الخادمة. هذا الكِتابُ صحيحٌ وهو هراء. سوف أنشره فلعلَّه يُعزِّزُ مجدَ جان، ولكنْ أيُّ جان؟ لقد رفعتُ عالياً موتَ بطلٍ ولوَّحتُ به مُهدِّداً، كرايةٍ من الحرير مُسلَّحةٍ بنسرٍ ذهبيٍّ يُتوِّجُ الظلام. كانتْ الدموعُ قد كفَّتْ عن التدفُّق من عينيّ. والحقيقةُ هي أني أرى أسايَ السابقَ خلفَ مرآةٍ لا يمكنُ أن يُصابَ فيها قلبي بجرحٍ بليغٍ، حتى وإنْ تأثَّر. ولكن يُريحني أنَّ حزني، بعد أن كان مُثيراً للشفقة، ينتصرُ بقدرٍ عظيم. لعلَّه يساعدني على أن أكتبَ قصةً قاسيةً وجميلةً لا أكفَّ فيها عن تعذيبِ أمِّ ابنة جان.

إنَّ أي تعبيرٍ على الوجه، إذا ما تمَّ تفحُّصه بدقَّةٍ، يتَّضحُ أنه يتألَّفُ من حشدٍ من الابتسامات، مثلما يحتوي لونُ وجوهٍ معيَّنةٍ مرسومةٍ على حشدٍ من الظلال، وما رآه حفَّارا القبر كان إحدى تلك التغضُّنات. لم

تُجِب الخادمةُ. واستمرَّ في داخلها ما يشبه الغمغمة، مع أنَّ التفكيرَ كان غريباً عليها: فكَّرتْ في قدمِها التي تؤلمها، وفي أنَّ المدام في تلك اللحظة بالذات، تُنظِّفُ المائدة.

قال الرجلُ الثاني " إنها كما ترى حزينة "

"لا أبداً، الموتُ ليسَ أمراً جاداً أيتها الشابة. نحن نراه في كل يوم"

وضعَ يدَه الكالحةَ، ولكنْ العريضةَ والجميلة التكوين، على رُكبةِ الخادمة التي يكسوها الثوبُ الأسود. كان منتهى اللامبالاة يشُلُّها وكان في وسعها أن تتركَ رَقَبَتها تُذبحُ بدون أن تفكِّر في تأديبٍ يتجاوزُ ما يلي:

" حسنٌ، حسنٌ، ها قد حانَ وقتي "

ازدادتْ جراءة الرجل. أحاطَ خصرَها بذراعه. لم تُبدِ حراكاً لتُبعده عنها. وعلى ضوء ما بدا أنه رغبةٌ من جانبها، نَدِمَ حفَّار القبر الثاني لأنه لم يشترك في المرح، وجلسَ على الحجرِ على الجانبِ الآخرِ للخادمة.

قال ضاحكاً " أه، إنها فتاةٌ صغيرةٌ لطيفةٌ جداً "، وأحاطَ عُنُقَ الخادمةِ بذراعه وجرَّها نحوه، إلى صدرَه. ولا شك في أنَّ توسُّلاً نشأ داخلها، لكنَّها لم تعثُر على أي كلمةٍ تساعدها على صياغته. جرأة زميلِ الرجلِ الأول المفاجئة أثارتْ هذا الأخير، فمال عليها وقبَّلها على وجنتها. ضحك الرجلان وازدادت جرأتهما، وتابعا نبشها. وبالقربِ من قبرِ ابنتها الصغيرة سمحَتْ لهما بإساءةِ معاملتها، بفتحِ ثوبها، بملاطفةِ عشِّها المسكين اللامبالي ومداعبته. لقد جعلها الأسى متبلِّدة الشعورِ حيال كل شيء، حيال الأسى نفسه. رأتْ نفسَها واقفةً عند نهاية مداها، أي على شفا أن تطيرَ بعيداً عن الأرض مرة وإلى الأبد. وذلك الأسى الذي تسامى لم ينشأ فقط عن موتِ ابنتها، وإنما عن مجمل مآسيها

كامرأةٍ ومآسيها كخادمةٍ، ومآسيها الإنسانيّةِ كلها التي سربلتْها في ذلك النهار، لأنَّ المراسم، التي بدورها ساهمَتْ فيها، استخلصَتْ تلكَ المآسي كلها من شخصها حيثُ انتشرَتْ. والمراسم السحرية، التي تكمنُ في أن تستقطبَ حول أدواتها كافة الأسباب التي تتوفَّرُ للمرءِ ليكونَ في حالةِ حِداد، كانتْ عندئذٍ تُسلِّمها إلى الموت. فكَّرتْ قليلاً في ابنتها وقليلاً في حظِّها العاثر. تلاقت أيدي الرجلين تحت ثوبها. وحين كانت شهوتهما تستعرُ، كانا يضحكان بصوتٍ عالٍ جداً، ضحكاً كان في الغالب مُقَطَّعاً وأشبه بقرقعةِ الموت. لكنهما لم يرغبا في التحديد في خرقها. كانا بالأحرى يعبثان معها كما لو أنها حيوانٌ سهلُ الانقياد، وتتويجاً لهذا كله، وأثناء عبثهما معها، وضعا إكليلاً من الكُرات الزجاجية ضَغَطَه الطويلُ القامةِ بينهما إلى أسفل بربتاتٍ من قبضتهِ، بينما ضَغَطَه صديقُهُ، بربتةٍ أخرى، لينزلَ حتى أذنيها، وهناك ظلَّ حتى مساءِ ذلك اليوم، عند الزاويةِ البارزةِ التي يعتمرُ عندها أحياناً رجالُ الميليشيا والبحّارةُ البيريه، والقوادون قبعاتِهم، والفريتز القلنسوات العسكرية البسيطة السوداء.

* * *

تُذهلني الأزهارُ بسبب الأسلوب الفاتن الذي وظَّفْتُها به فيما يخصُّ الدفنَ، وخاصةً، فيما يتعلَّقُ بالحُزن الناتج عن الموت. أعتقد أنها لا ترمزُ إلى أي شيء. وإذا كنتُ أردتُ أن أُدثِّر تابوتَ جان بالأزهار فذلك ربما وببساطةٍ كلفتةٍ تَدلُّه. فالأزهار هي ما يمكنُ تقديمه إلى الموتى دون التعرُّض للخطر، فإذا كانتْ هذه العادة لم توجد بعدُ، فيمكنُ للشاعرِ أن يخترعَ هذه التَقْدمة. إنَّ الإغداقَ في نثر الأزهار يخفِّفُ قليلاً من حزني.

وعلى الرغم من أنه قد مضى على موتِ الفتى بعضُ الوقت، إلا أنَّ الملاحظات التي بَنَيتُ على أساسها هذا الكتاب - الذي من المفترض أنه تقديرٌ لعَظَمَته - تُعيدُ حزنَ الأيام الأولى، لكني أجدُ ذكرى الأزهار حلوة. وحالما غادرتُ المدرَّج المُصقِع، لم أعدْ أرى الوجهَ الشاحب، الناحل، المخيف، والأربطةَ تحيطُ به وبجسده مع بياضاتٍ أخرى، ورأيتُ بدلاً عنها صورةَ ذلك المشهد المزخرفة، المنمَّقةَ، المعطَّرةَ والمؤثِّرةَ. وحالما اعتراني الذهولُ والنقمةُ أمامَ جفافِ تلك البقايا وفقْرِها، وتألَّمتُ لذلك، رأيتُها وأردتُ لها أن تتغطَّى بالأزهار. واندفعتُ، وعينايَ ما تزالان مملوءتين بالدموع، إلى أقربِ بائعٍ للأزهارِ وطلبتُ باقاتٍ ضخمة.

فكّرتُ، وقد هدأ روعي، " سوفَ تُسلَّمُ غداً، وستُنثَرُ حول جسده ووجهه"

إنَّ ذكرى تلك الأزهار الجنائزية، التي تؤلِّفُ خوذةً للجنودِ الفارِّين وسطَ ضحك الفتيات، اللاتى يملأنَ المدرَّج، تُضفي شكلاً على أجملِ تعبيرٍ عن حبي. فإذا كانوا قد عشقوا جان، فإنهم سيظلون على عشقهِ في ذهني. إنهم شهودٌ على حناني، الذي جعلهم يقفزون بفعلِ أير إريك الرائع. كان الفجرُ يبزغُ، أي فجرٍ رائعٍ كانَ يُطلِقُهُ أيرٌ تُطوِّقه هالةٌ من تحتِ سروالِ سفَّاحٍ، ما أروعه من فجرٍ كئيب!

لا يحقُّ لي أن أكونَ فرِحاً. الضحكُ يُدنِّسُ آلامي. الجمالُ يُلهي عقلي عن التفكير في جان، الذي يُعيدني إليه مرأى الشر. أصحيحٌ أنَّ الشرَّ له صلة وثيقةٌ بالموتِ وأني أتفكَّر بتركيزٍ شديدٍ في أسرار الشرّ بنيَّة سبر غور أَسرار الموت؟ لكنَّ هذه الشرور كلَّها لا تعينني على التفكير. فلنجرِّب مفتاحاً آخر: أولاً، أيُعقَل أنه إذا تلاشى أسايَ وأنا أتأمَّلُ في الشرّ (الذي أرغبُ في الوقتِ الحاضرِ في أن أسمِّيه شراً وِفقاً لمفهوم

الأخلاق التقليدي) فذلك لأنَّ البونَ أقلّ اتِّساعاً بين هذا العالم المتفسِّخ بفعلِ الشرّ وجان المتفسِّخ بفعلِ الموت؟ إنَّ الجمالَ، الذي هو نظامٌ ارتقى إلى ذروة الكمالِ، أبعدني عن جان. إنَّ مخلوقاً حياً جميلاً أفضلُ من جمادٍ جميلٍ، ويزداد تألُّمي. وأبكي إذا لمْ أربطْ جان بهذا العالم الذي يعيشُ فيه الجمال.

مع ذلك، وعلى الرغم من أني أستمدُّ متعةً من مرأى أشياءَ كثيرةٍ قبيحة أجعلها حتى أشدَّ قُبحاً بالكتابة عنها، من ذلك المشهد الذي ألهَمَني موتُ جان بكتابته، فثمة أمرٌ صادرٌ بألاّ أقوم بأي عملٍ شرير. ألأنَّ الحياةَ تأمرني بأن أطلِق موتاً ما مع حياةٍ ما، أي مع خيرٍ ما (وهي كلمةٌ تُستَخدَم أيضاً بمعناها الاعتيادي)، لموازنة الموتِ مع الحياة؟ ولكن إذا كنتُ أبتهجُ بتفحُّص الأشياء الشريرةِ والميّتة أو التي تلفظُ أنفاسها، فكيفَ يمكنُ القول عندئذٍ إني أُنجِزُ حياةً؟ وبالنسبة إلى الإجلال الذي أظنني أقدِّمه إلى جان حين أحزنُ، حين أبكي، أليسَ ذلك لأني أُقرِّبُ وضعي من وضعه، لأنَّ كلَ شيء في داخلي يغدو مُقفراً وعزلتَه هو أقلُّ فداحة، عزلةٌ يُطابقها الموتُ مع فُجاءةٍ قد تُجمِّدُ قلبَ الميِّت؟ ذلك العالم الخالي من المرح أو الجمال الذي أستلُّهُ ببطءٍ من ذاتي بِنيَّة نظمهِ كقصيدةٍ أُقدِّمها لذكرى جان، ذلك العالم عاشَ داخلي، وسطَ مشهدٍ بلا شمسٍ، بلا سماءٍ، بلا نجوم. والأمرُ لا يبدأ اليوم. إنَّ اشمئزازي وحزني العميقَين كانا يرغبان في أن يُعبِّرا عن نفسيهما منذ زمنٍ بعيد، وقد أتاحَ موتُ جان أخيراً لمرارتي فرصةً لتتدفَّقُ، وفسَحَ لي موتُ جان المجالَ، بواسطة الكلمات التي تُمكِّنني من التحدُّث عنه، لأعي بحدَّة أكبر عاري فيما يخصُّ الخطأ التالي: تفكيري في أنَّ عوالمَ الشرِّ أقلُّ من

عوالمِ الخيرِ وأني سأكونُ هناك وحدي. بعد بضع صفحاتٍ من هنا سيظلُّ موتُ جان يواجهني بعلاقاتٍ تبدو قائمةً، من جهةٍ، بين الشرّ والموت، ومن جهةٍ أخرى، بين الحياة والخير. ونحنُ نعرفُ صيغةَ الأمر التي يتضمّنها حزني: افعلْ ما هو خير. إنَّ ميلي إلى العزلةِ يدفعني إلى البحثِ عن أكبرِ الأراضي عُذريّة. ولدى انتكاسي المُحبَط لمرأى شواطئ الشرِّ الخرافيّة أجبرني ميلي هذا على الانكفاء وتسخيرِ ذاتي للخير. إنني منزعجٌ لمواجهتي هاتين الذريعتين اللتين قُدِّمتا إليّ لأحيدَ عن سبيلٍ اتّخذتُهُ بدافعٍ من كبرياءٍ، بدافعِ تفضيلِ الفرديّةِ، غير أنَّ هذا الكتاب لم ينتهِ بعد.

* * *

منذ أن شرعتُ في تدوين هذا الكتاب، المُكرَّس بأكمله لعبادةِ شخصٍ ميِّتْ أُقيمُ معه صلاتٍ حميمةٍ، وأنا أعيشُ إحساساً بالإثارةِ يغمرني، متدثِّراً بحُجَّة غياب بهاء جان، بحياةٍ تزدادُ كثافةً ويأساً باطراد، كان يدفعني نحو جرأة أعظم. وأشعرُ أنَّ لديَّ من القوَّةِ ليس فقط لأقومُ بسرقاتٍ أكثر جرأة وإنما أيضاً لأهينَ دون وجلٍ أنبلَ المؤسساتِ الإنسانيةِ بهدفِ تدميرها. إنني ثملٌ بالحياةِ، بالعنفِ، باليأس.

* * *

إنَّ طبيعة العصرِ عوَّدتنا على حدوثِ تحوُّلاتٍ سريعةٍ كتحوُّل اللصوصِ إلى رجالِ شرطةٍ والعكسُ بالعكس حتى إنَّ القارئَ لن يُدهَشَ حين يعلمُ أنَّ أحد حفَّاريَّ القبر، بعد أن قَذَفَ، أخرجَ مسدساً من جيبه وصوبَّه إلى الفتاة، في حين أطبَقَ الثاني، الذي كان يعبثُ منذ بعض الوقت بزوجٍ من الأصفاد، على رسغيها. لم تشعر الخادمةُ بالخوف. ظنَّتْ

أنَّ كلَّ ما كان يحدثُ لها هو ما يحدثُ عادةً في المقابر وأنه مُخصَّصٌ للحوّاد[19] الذين يتخلّفون بعد انتهاء مراسم الجنازة ويجلسون على المقاعد الحجرية. كلُّ ما قالته:

" أتسمحُ لي يا سيدي بربطِ حذائي؟ "

لكنَّ اللّصَين دفعاها إلى الأمام وأهاناها. نعتاها بالعاهرة الرخيصة والمنافقة الحقيرة. ظلا يلكزانها وينخسانها حتى وصلا إلى باب أحدِ تلك المعابد الصغيرة، وهي كنائسُ صغيرةٌ يُذكِّرُ طرازها المعماري (على الأقلّ طراز هذه) ببناءِ المحكمةِ الشرعيةِ، على مستوى أقلّ بكثير. كان مدفنُ عائلةِ شيملا-راتو. أجبَرَ الرجلانُ الفتاةَ على الدخولِ ثم أوصدا الباب. أصبحتْ سجينة. أدركتْ ذلك. كان ينبغي عليها قبل أن تجلسَ على مقعد الحجرِ أن تنظرَ إلى قبّعةِ أحد حفّارَي القبر. كان عليها نجمةٌ فضّيةٌ تميِّزُ حُرّاسَ السجن. لم تفكِّر في خلعِ قبعتها، لكنها كانت ما تزالُ تضعُ الإكليلَ ذا شكل النجمة المثبَّتْ على إحدى زوايا رأسها. في ذلك الوقت كانت الوشايةُ شائعةً. وهذا التعليقُ يحثُّني على أن أقولَ بضعَ كلماتٍ أخرى عن نفسي ونحن في منتصف الجملة المُركَّبة. أنا أحبُّ الباريسيين، الذين يبدون رائعي الجمال بشكل مُهيِّجٍ وهمْ يفرُّون من البوخ. الإنسانُ يكون جميلاً وهو ينجو بنفسه (إنني أتحوّلُ إلى استخدامِ كلمةِ " جميل " بدلَ " عظيم "، التي كتبتُها أولاً). هذا الجمالُ لمْ يَدُمْ إلا فترةً وجيزة، فقط بضعة أيام من الخطر والإيمان كان الحبُّ خلالها سيداً. كان الألمانُ عندئذٍ قد أجازوا الوشايةَ، وحين أخرجهم الجنرال كونيغ أوصى بالإعلان عن ذلك برفعِ المُلصقاتِ في كل مكان من باريس. ومن المستحيل أن يفشلَ هذا الأسلوبُ في التفكير في التلاؤم مع ميولِ عصرٍ بأكمله.

والمرءُ بالأحرى يُفضِّلُ أن يخونَ و " يبيعَ ". إنه يضعُ يدَه على قلبه مُقسماً ويتكلَّم. والكلامُ يقتلُ، يُسمِّمُ، يبترُ، يشوِّهُ، ويلوِّثُ. وما كنتُ لأشتكِي منه لو أني قرَّرتُ أن أقبلَ الشرفَ لنفسي، ولكن بما أني اخترتُ أن أبقى خارجَ عالمٍ اجتماعي وأخلاقيّ بدا لي فيه أنَّ دستورَ الشرفِ تنقُصُه الاستقامةُ، والتهذيبُ، وباختصار تنقصه المبادئُ التي تُعلَّمُ في المدرسةِ، فقد حَسبتُ أني بارتقائي إلى مستوىً من الفضيلة، لأستخدمها لصالحِي، وهي مُناقضةٌ للفضائلِ الشائعة، يمكنني أن أُحقِّقَ عُزلةً أخلاقيةً لن ينضمَّ إليَّ فيها أحد. اخترتُ أن أكونَ خائناً، لصّاً، نهّاباً، واشياً، حاقداً، مُخرِّباً، مُحتقراً، وجباناً. وباستخدامِ الفأسِ والصرخات قطعتُ الروابط التي وصَلَتني بعالمِ الأخلاقياتِ المُتَعارف عليها. أحياناً كنتُ أحلُّ العُقَد منهجيّاً. لقد انفصلتُ عنكم، عن عالَمِكم، عن مدنكم، عن مؤسساتكم، انفصالاً هائلاً. بعد أن كنتُ قد خضَعتُ لإبعادكم القانوني، لسجونكم، لحرماناتكم الكنسية، اكتشفتُ مناطقَ أشدّ قفْراً وهناك شعرتْ كبريائي براحةٍ أكبر. بعد ذلك المجهود - غير المُكتمل - الذي تطلَّبَ الكثيرَ من الضحايا بينما كنتُ أُلِحُّ أكثر فأكثر على تسامي عالمٍ هو الجانبُ السفليّ من عالمكم، بتُّ أعرفُ الآن الخجلَ من أُناسٍ، مُعاقين وينزفونَ، اقتربوا مني وهم يتألَّمون على شاطئٍ أشدّ ازدحاماً بالسكّان من الموت. والناسُ الذين قابلتُهم هناك أتوا إليَّ بسهولةٍ، بدون التعرُّض للخطر، بدون أن يقطعوا أي شيء. إنهم متآلفون مع العار كتآلُف السمك مع الماءِ، وكل ما عليَّ أن أفعله لبلوغِ العُزلَة أن أستديرَ وأتزيَّنُ بفضائلَ كتبكم. في وجهِ سوءِ الحظّ هذا تبقى هناك الدموع أو الغضب. وأصبحت الخادمةُ أسيرة.

* * *

ولكنْ كان لتلك الحياة في الشقَّة التي سُمِحَ لي باللجوء إليها معوِّقاتها. ففي اليوم الذي دُعيتُ إليها كانت أمّ جان قد لبِسَتْ وتأنَّقَتْ بدقَّةٍ مهملةٍ على طريقة امرأةٍ شديدة البدانة فاحشة الشراء. ولمْ يكن حقدها على الخادمة قد فارقها عند الظهيرة. كانت تنتظرُ إريك، الذي كان يتوانى في غرفته.

غمغمتْ " خادمة! خادمة! ولكن، اللعنة، ماذا يعنيني إنْ حبلَها جان؟ أنا سيدةٌ محترمة "

كانت قد فَرَشَتْ الطاولة بمفرشٍ أبيضَ وضعتْ عليه صحافاً من البورسلين الأبيض ذات حوافٍ ذهبيةٍ، وأمام الصحاف، كؤوسُ نبيذ حُفرَتْ على كريستالها أزهارٌ. كانت الآن تضعُ الأواني الفضّية. سمعتْ طرْقاً على باب المطبخ. كان فتىً من محل الأزهار. قبل أن يضعَ سلّتيه على طاولة الخشب البيضاء، زعقَتْ به " وماذا عن الخبز؟ أنتَ لا تأتيني بالخبزِ أبداً. اذهبْ وأحضره ". وخافَتْ من صوتها ذاته. وتملّكها غضبٌ من الابن الميِّت شلّها بضع ثوانٍ، جعلها حادَّةً كالزجاج: كان غضباً من افتقارها للسلطة التي تُخوِّلها زجَّ أصحابَ الدكاكين في السجن مدة أسبوع، ثم أخذتْ تتمالكُ نفسها شيئاً فشيئاً.

قالت لنفسها " سوف تثورُ أعصابي على المائدة "

عادت إلى غرفةِ النومِ التي لم تكنْ قد نافذتها طوال فترة الصباح، واستلقتْ على السرير قليلاً، بملابسها المُخرَّمة، وأخذتْ تُطلِقُ ضراطها كلّه، الذي انتشرَ مُشكّلاً طبقاتٍ أكثف فأكثف ومُبدِّلاً رائحته مع مرورِ الوقت. وفجأةً سمعتْ مَنْ يمشي في غرفةِ الطعام ووقْعَ أقدام يتقدَّم من غرفة النوم. وفي لمحْ البصر أدركتْ أنَّ عشيقَها وجدَ البابَ مفتوحاً. مسَّها الرعبُ لفكرةِ أنه سيشُمُّ عبقَ الرائحةِ حين يدخل.

" سوف يخرجُ عائداً وقد ملأه التقزُّز ". ورأته بعينِ عقلها يُمسكُ أنفَه ويخرجُ مترنِّحاً من الغرفةِ، مُدَّعياً أنه يكادُ يختنق. ثم سمعتْهُ يقولُ " إنهم يسقطون كالذباب "، وفكَّرتْ، أيضاً بسرعة، في رشٍّ العطور في المكان، لكنَّ ذلك سيستغرقُ زمناً... ثم إنها قد لا تقتلُ الرائحةَ. كان المفتاحُ في الداخل. قفزَتْ أمُّ جان نحو الباب ورَمَتْ بنفسها عليه في الوقتِ الذي أدارَ إريك المِقبَض، بعد أن قرعَ الباب.

زعقَتْ " لا تدخُل! لا، لا تدخُل! "

ضغَطَتْ نفسها على البابِ بقدمها المنتعلةِ خفّاً من الساتان القرمزي.

" ولكن، حبيبتي... افتحي... افتحي... هذا أنا "

ظلَّ عشيقُها الملحاح يدفعُ، لكنَّ الأم صَمَدَتْ وأدارتْ المفتاح.

"أنا لا أفهم... أنا لا أفهم. لماذا... ماذا يجري. يا إلهي، ماذا يجري؟"

من خلفِ البابِ كان إريك يتفوَّه بالكلمات نفسها التي تفوَّهَتْ بها في حضورِ الجثَّةِ المقدَّسة. كان الموتُ قد أوصَدَ البابَ. وعلى الرغم من أني تساءلتُ وساءلتُ الموتَ مُحمِّلاً صوتي أنواع الحيطة كافّة، فإنَّ ذلك البابَ العملاق ولكن المثالي كان يحتفظُ بسرٍّ لا يسمحُ إلا لرائحةٍ خفيفةٍ جداً مُقزِّزةٍ للنفسِ تطفو فوقها الجثّةُ، رائحةٌ ذات رهافةٍ مدهشةٍ دفعَتني مرة أخرى إلى التساؤل عن الألعابِ التي تُمارَس في غُرَفِ الموتى، أن تتسرَّب. إذا أدارَ الموتُ المفتاحَ، ماذا يمكن للمرءِ أن يجد؟ وكرَّتْ الثواني. كاد إريك أن يبكي. شعرَ بالموتِ يتسرَّبُ إلى حبه. سمعَ نافذةً تُفتَحُ وبعد ذلك مباشرةً سَمِعَ المفتاحَ يدورُ في القفل. دفعَ البابَ بعُنفٍ، واقتَحَمَ الغرفةَ التي كانت مفعَمَةً بعَبَقِ الكولونيا واندفعَ نحو النافذةِ المفتوحةِ ليرى ظهرَ وربما وجهَ غريمِهِ الفارّ. كان الشارعُ خالياً إلا من فتاةٍ

صغيرةٍ تحملُ على ذراعها رغيفَ خبز. مالَ إريك أكثر. شكٌّ في وجودِ انعطافٍ عميقٍ كالطاس وكافٍ لإخفاء المُذنب، ومن ثم، وقد باتَ أشدَّ ريبةٍ وليس يقيناً، وانتابه شعورٌ بأنه قد خُدِعَ، شدَّ قامَتَه وعادَ إلى خليلته. كانت واقفةً بالقربِ من السرير، تستنشقُ الهواء النقيّ من منخريها، وقلقةً حتى الموت مخافةَ أن يكونَ ما يزالُ قادراً على شمِّ العَبَقِ وفهمِ سرِّ المشهد كله، وقد جَعَلَتْها هذه الفكرةُ تبدو بحقٍ كامرأةٍ مُذنِبَة. وتقدَّمَ منها.

" لمَ لمْ تفتحي الباب؟ "

رَبَضَتْ المرأةُ على صدرِ عشيقها لكي تُقحِمَ كتلةَ شعرها المُعطَّر على أنفه. انتهى المشهدُ بالطريقةِ التي تنتهي بها كلُّ المشاهد التي يكون الشكُّ سببَها: باضطرابِ الطَرَفِ الغيور. وفجأةً كان العناقُ الكلاسيكي، والجسدُ المتحرِّق شوقاً، والفمان المتعشِّقان، والأذرعُ المتشابكة، والصدران المنسحقان معاً، والعضوان التناسليان اللذان يعيقُ نشاطَهما عنفُهُما وجيشانهما. فتحتْ الأمُ عينيها. نظَرَتْ إلى عشيقها. ها قد انتصرتْ. ثم قادَتْه من ذراعِه، وقد ابتعدَتْ عنه قليلاً، وقالتْ بوقار " والآن، يا حبيبي... "

لمْ يُجِبْ.

كانتْ جوليت شاهدةً، لكنَّها لم تشعرْ بأي حَسَدٍ تجاه ما جرى بين إريك وخليلته. لم تحزن على جان ولا على ابنتها. ببساطةٍ نامَتْ. حين أُعِدَّتْ وجبةُ الغداء لم تأتْ وتجلس على مائدتنا. اكتفَتْ بخدمتنا.

" لعلَّ مِنْ الخير بالنسبة إلى الفتاة أنَّ طفلتها ماتت. ما كانتْ لتستطيع أن تربّيها "

عَمَدَ صوتُ أمٍّ جان إلى أن يكون شفوقاً رقيقاً. ولما كانتْ هي المرأةَ الوحيدة على مائدةِ الغداء، أُوكِلَ إليها أمرُ إبداءِ تعاطُفٍ عميقٍ. وَصَفَتْ بكلمة " طفلة" تلك التي اعتبرتْها سراً " المزعجة القذرة ". أنصتَ عشيقُها إليها. أترتيلةٌ أجملِ حبٍّ هي ما صَدَحَتْ به إيماءاتُ خليلته له؟ هل تؤلِّفُ طريقتُها في لفِّ المعكرونة حولَ شوكتها، وابتلاعُها، والتنشُّقُ الخفيف لمنخرها الرطب باستمرار، والسرعةُ التي أمسكتْ بها الفوطةَ التي انزلقَتْ عن حجرها، باختصار، كل شيء، هل كلُّه يؤلِّفُ ترتيلةً على شَرَفِه، وأُغنيةً؟

باختصار، هل أُحبُّها بما يكفي؟ "، وتوسَّلَ سراً " ربِّي، أخبرني إنْ كنتُ أُحبُها كفاية "

عادوا إلى التحدُّث عن الخادمة. لم يُدافع باولو عنها. لاحظَتْ جمودَ قسماتِه ونظرتَه الوضيعة. فَتَحَتْ الأمُ فمها، وسقطَتْ عصائبُ المعكرونة إلى صحنها.

" على أي حال، اليوم لم تبصُق في الطعام "

" جيزيل! "

لا يهمُّ أيُّ الرجلين أطلَقَ صرخةَ التقزُّز تلك. لأنَّ الآخر أطلقها بالعنفِ نفسه.

" في البيض المقلي. لا تدافع عن الخدم. إنَّهم يبصقون في الطعام "

ليسَ معروفاً إن كانت جولييت قد سمعتها أم لا. بدَتْ لا مبالية بحديثنا ولا مبالية بالانطباع الغريب الذي خَلَقَتْهُ. كان يكفي وجودُها هناك ليغدو المشهدُ الأكثر روعةً موحِشاً كنبات الخلنج في الشتاء. ومجرَّد حضورها في غرفةِ الطعام الصغيرة تلك عرَّى الأشجارَ كلَّها من

أوراقها. لم يتبقَّ غير حبّات برقوق السياج والتوت البرّي الأحمر الذاوي على أغصانٍ قاتمة. واكفهرَّت السماءُ. أصبحَتْ الأقدامُ تبتلُّ في الماء الموحل للمستنقعات التي عبرَتها تلك الجنّية الجذّابة وهي مُتحجِّبةٌ بغلالاتِ الحزن. عندما دخَلَتْ تحملُ صحناً من الكرنب يتصاعدُ منه البخار، بدا وكأنَّ الإيقاعَ الرتيبَ العميقَ المتصاعدَ من كل إيماءةٍ من إيماءات إريك وحتى من سَكَناته يطفو فوق مستنقعات بريتون منبعثةً من بِرَكِ الوحلِ التي عَكَسَتْ مشهداً متجمِّداً لِشَفَقٍ لازورديّ، ونباتِ الرتم، وشجيراتٍ ذات أشواك. وبجوارِ إريك حرَّرَ ذلك المشهدُ كله، المُجَنَّح كشعرٍ ميِّتْ، موسيقى رخيّة عُلويّة. كانت الخادمةُ تُغنّي. وَضَعَتْ الصحنَ على المائدة. كانت المستنقعات ما تزالُ حولنا، لكنَّ الجنَّ كانوا ما يزالون يتنقَّلون بسرعةٍ خلالها. كان باولو شاهداً صامتاً جامداً لذاك المهرجان، ولو أني رغبتُ في المشاركةِ لما زَرَفْتُ أكثرَ من دمعةٍ واحدة.

أضافَتْ الأمُ وهي ترفعُ شوكتها إلى مستوى ارتفاعِ صوتها، "ويمكنني أن أعرف. يمكنني أن أعرفَ متى تبصقُ. إنني أُميِّزُ المذاقَ المُرَّ، مذاقَ فمِ خادمة، المذاقَ المُرَّ الذي يختصِرُ المرارةَ المتجمِّعة في قاعِ بطونِ كل خادمات الطبقةِ الراقية... "

سَرَتْ في باولو ارتعاشةٌ. كانَ يأكلُ نصيبَه من المعكرونةِ والخبز. ابتلعَتْ أُمُّه ملءَ فمٍ ثم أردَفَتْ، وهي تُراقبُ عشيقَها:

"... خادمةُ الطبقةِ الراقية هي خادمةٌ منحلَّةٌ تماماً، أي هي خادمةٌ بكل معنى الكلمة. لهذا ترى أنك إذا طلَبتَ منهنَّ أن يلزَمنَ الهدوءَ، لكي لا تشمُّ رائحة أحشائهن القذرة. إنني أكره... ". فتحتْ فمها واسعاً، وأقحَمَتْ فيه ملءَ شوكةٍ كانت مُعَدَّةً له. وحين امتلأ الفمُ:

" الخادمات، أجسادهنّ بلا انسجام. يمررن بكَ. تمرُّ بهُنَّ. لا يضحكنَ أبداً، بل يبكين. حياتهنّ كلها بكاء ويلوِّثنَ حياتنا بجرأتهنّ على الاندماج فيها من خلال اطّلاعهنّ على ما يُفترضُ أن يكونَ أخصّ الخصوصيات، وبالتالي على ما لا يُفشى "

* * *

وسطَ الظلام الخَطِر بدا كأنَّ الأغنيةَ تدمجُ إريك مع ريتون. ودَّ كلٌ منهما لو يتلوّى من السعادةِ، لو يُقَبِّلُ، لو يتمعَّجُ من فرط المتعة، لكنّ أصواتاً أخرى، بالإضافةِ إلى الانتظارِ، جَعَلَتْ القلقَ والنومَ يحرمانهما من الارتواء، وهما مُتَّصلان معاً في الظلامِ بيدِ ريتون.

أصحيحٌ أنَّ كلّ طفلٍ، وطفلةٍ، وعجوزٍ في باريس كان جندياً في الخفاء؟ مسَّ الخوفُ إريك لكونِهِ وحيداً مع أسلحتهِ وسطَ شعْبٍ من الوحوش مدجَّجين بصورةٍ غامضةٍ بالسكاكين والمفاتنِ ويعرفون فناً في التمويه حتى صارَ الفنُّ الذي يستخدمه الجنودُ الألمانُ للتخفّي كسحالي، كحميرٍ وحشيةٍ، كنمورٍ، كقبورٍ شاقوليّةٍ متحركةٍ تحفَظُ جثّةً شقراءَ زرقاءَ العينين، رشيقةَ الخُطى، وحديثةَ العهد. لم يستطع أن ينفضَ عنه ذكرى جنديٍ يرتدي جورباً حريرياً بلونِ اللحمِ وثوباً قرمزياً، وجنديّ يبلغُ خمسة عشر عاماً من العمر، يرتدي ثيابَ خبّازٍ متجوِّل، أو ذكرى دبابة تهاجمُ محاربينَ غرباء كثيراً ما مرَّ بهم في الشارع، محاربين بسيقانٍ عارية وسترات عاريةٍ غالباً بأحذية خفيفة، محاربين بوجوهٍ رقيقةٍ شاحبةٍ تحدوها إرادة قتلِ البوخ، بأيدٍ رهيبةٍ رقَّتُها تستجلبُ الدموع. لطالما كشَفَتْ عن مجدِ الأممِ كلّه روعةُ الزيّ العسكري، والبريق الأحمر، والذهبي، واللازوردي للقوات المُسلَّحة، والقفازات البيضاء، والعيون الكحيلة خلفَ

مقدَّمات الخُوَذ المورنَشَة، والأكتاف الفخمة، والجذوعِ الملفوفة، والخيول، والأكفالِ، والسيوف التي تنمُّ غطرستها ذاتها عن ولائها. وعندما أضحتْ فضيلةُ الحَرَابي[20] رتبةً أصبحتْ هي أعظم فضيلة للجندي. لقد كان الخداع والنفاق (وباللغةِ التقنيّة، التمويه) كاملين إلى حد أنهما منحا فرنسا مظهرَ حديقةِ منزلِ قسٍ هادئ وودّي. وبما أن الألمان يدركون أنهم سادة الحربِ المتهندمةِ، لم يخطر ببالهم أنه في إمكان المرء أن يُغيّرَ وجههُ، أن يضعَ شعراً مستعاراً، أن يُلوِّنَ عينيه، أن يرتدي كالفتيات، أن يتعرّى، أن يدع ذكَراً يخرقُهُ، وأن يحزَّ عنقَه بعد أن يغلبه النعاس، حتى بدون أن يمسح كسَّه أو عينه البرونزية. إنني أتسلّى هنا بلعبةِ تسجيلِ عارِ بلدٍ أنتمي إليه بسببِ اللغةِ وبخيوطٍ خفيّةٍ تشُدُّني إلى قلبه ويثيرُ الدموع في عينيّ عندما يتألّم. ويسرّني أنَّ فرنسا اختارتْ ارتداء ثوبِ التنكُّرِ الفاتنِ لعاهرةٍ مُتديِّنة شنيعة وهو الأفضل، مثل لورينزتتشيو بدون شك، لقتلِ قوّادها.

وقفَ هتلر حزيناً فوقَ ذرى جبالِ الألب البافارية، في قفصٍ زجاجيٍّ لدارةٍ مُحصَّنة، يستشرفُ التاريخ. لم يقتربْ منه أحد. أحياناً كان يتقدَّم حتى حافَّةِ الأرضِ المستويةِ المتراميةِ التي تفصله عن هوّةٍ تنتصبُ حولها أعلى القممِ في العالم.

***

جان! يا شجيرةً بأفخاذٍ من ماء! يا سفينةً تحملُ شعارَ النبالة! في تجويف مرفقكَ يجري قصفٌ مُعربدٌ لا ينتهي. يا كتف البارثينون. يا برسيماً أسود. أنا حشوةٌ من الكتّان مغروزٌ فيها دبابيسُ ذهبيّة. مذاقُ فمك: بغلٌ يشقُّ طريقَه في أعماقِ وادٍ يلُفُّه الصمتُ متدثِّراً برداءِ غفارةٍ

أصفر اللون. جسدُكَ نفخُ بوقٍ بكى فيه الماءُ. وحبُّنا! أتذكُر. أضأنا حظيرةَ الماشية بشمعدان. أيقظنا الرعيان المستعدين بملابسهم لحضور قداسهم. أنصتُّ إلى أغانيهم ممزوجةً بأنفاسٍ زرقاء خفيفة! نقَّبتُ في عينك! السماءُ فُتِحَتْ أبوابها. رَقِّقْ نومي على جبينِ الأطفال المولودين موتى، رَقِّقْ حبَّنا فوق العالم، رَقِّقْ العالمَ على أسرتنا. ارحلْ على متنِ عَرَباتك المُحجَّبَة. أنامُ تحتَ بابك. الريحُ تنامُ واقفةً. هذه الأفكار كلها كان في وسع صوتي أن يستعينَ بها للبحثِ عنكَ! جان، إنني أتخلّى عنك. النيرانُ تتحرَّكُ من تلقاء ذاتها. أنتَ تعيشُ في مكانٍ آخر، أقوى مني أنا الباقي هنا بين الأمواتِ ولم أولَد بعد. طوال نهار أمس وأنا أزخرِفُ كلباً بحناني لأجلك، على طريقةِ سان برنار، شديد البياض وشديد القوة. خشيتُ للحظةٍ ألاّ يكونَ لديَّ ما يكفي من التول[21] والورد. علبةُ الكبريت كانتْ أسهل. اليوم سوفَ تكون غصناً من نباتِ البهشيّةِ عثرتُ عليه، لا شك في أنَّ راهباً شاباً كَسَرَه على بلاطةِ رصفٍ، مغطّاةٍ بالطحالب. لم أضعكَ في مزهريةٍ أو خلفَ إطار، وإنما بمساعدةِ إحدى الستائر المُخرَّمة صَنَعتُ ما يشبه المذبح على مائدة المساء ووضعتُكَ هناك. أعرفُ أنَّ هذا الكتابَ مجرَّد أدب، ولكن فليجعلني بما هو عليه قادراً على أن أمجِّدَ حُزني لكي يبرُزَ من تلقاء ذاته ويتلاشى - كما تتلاشى الألعابُ الناريّةُ بعد أن تنفجر. الأمرُ الرئيسي بالنسبة إلى جان وإليَّ في ذلك هو أن أربحَ. ولعلَّ كتابي سوف يعمل على أن يُبَسِّطَني. أريدُ أن أجعل نفسي بسيطاً. أي أن أكونَ رسماً بيانياً. وسيكونُ على كياني أن يكتسب مواصفاتِ الكريستال، الذي لا يوجد إلا بفضلِ الأشياء التي يمكن رؤيتها من خلاله. إنَّ الأسمال، والفقر، وحتى الطريقة

المهملة أو المشوَّشة في ارتداء الملابس، تسمحُ للشفقةِ بالدخول بسهولة، بسهولةٍ أكبر، إلى الحياة اليومية. إنَّ الترتيبَ الكاملَ. المثالي. أمرٌ مستحيلٌ تماماً. إذا أردتَ القداسة، فلتأتِ برمَّتها من الداخل! ثمة تيارٌ يجري داخلي من رأسي إلى قلبي ويتوزّع. شريطٌ عادي جداً. أكره أن أرى جعْدَةً، منديلَ جيب حريرياً، جعْدَةً مكويّةً بشكلٍ سيئ، حذاءً بالي الكعبَين يفسحُ لي المجال لأقلّ رثاء للذات، لأبسط مصادفةٍ فيما يتعلّقُ بالتزمُّت، تجعلُ التمرُّدَ أسهل. حيثُ كنتُ مُثقلاً بالكثيرِ من الفرو! حيث عَزَلَ الثلجُ الواحدَ منا عن الآخر - نحن اللذَين عشنا، مع ذلك، في حلكة ظلامٍ دبابةٍ واحدةٍ - وسطَ مدى مترامٍ من الصمت.

" لقد عذَّبوا النساءَ والأطفال "

هذا ما تقوله الصُحُف الفرنسية عنا. في روسيا زَرَعْتُ بُقُعاً من الغابةِ بين أسنانِ النساء. كان علينا أن ندفَعَ الفتيات الروسيات وأخاهم (البالغ سبعة عشر عاماً) إلى الكلام. كنا أربعة: ملازمٌ أوّل، وعريِّف، ومُرافقه الجندي، وأنا. لم تتفوَّه الفتيات بكلمة. ولا الفتى.

قال الملازم الأول لي " اصفعه "

كنتُ لتوّي أبتسم قليلاً لأنَّ أولئك الروس كانوا قد أرهقوا الضابطَ. ومع ابتسامةٍ أكثر اتِّساعاً وجّهتُ للفتى صفعةً قويةً، مُدويّةً، على خدِّه. وقامَ بحركةٍ ضعيفةٍ، ضعيفةٍ جداً ليردَّ لي الصفعة. فلم يجرؤ.

" تكلّمْ "

بقيَ صامتاً. أعطيتُه أخرى، وما أزالُ أبتسمُ. وحافظَ على صمته. استدرتُ نحو الضابط. كان العريف والجندي الآخر أيضاً يبتسمان، ربما لأني كنتُ أبتسم.

" قُمْ بالمثل مع الفتيات "

صَفَعْتُهُن. ترنَّحن، وإحداهنَّ سقطَت. لم يرفَّ للفتى جفْن.

قال الملازم الأول " الشاب الصغيرُ ليس شهماً كبيراً "

ضحِكنا، وانغمسَ ثلاثتنا في لعبةِ صفعٍ مرحةٍ، يستخفُّنا الابتهاج. طرحنا الفتيات أرضاً ورحنا نركلهنَّ بأعقاب أحذيتنا. تسلَّينا بأوضاعهن المثيرة للسخرية، وبشعرهنَّ الشعث، وبفقدانهمَّ أمشاطهنَّ، وبأنينهنَّ. مزَّقنا ملابسهم. وأصبحتْ الفتيات مع الفتى عرايا. شعرتُ وأنا في غمرة ثمالتي المرحة بالحضور الجليل ذاته للمسةِ الحزن. شعرتُ بها بدقَّةٍ إلى حد أني عرفتُ أنها يمكن أن تصبح " الحَزن لعدم القدرة على الانغماس في الشفقة ". وتابعتُ الركلَ، ولكن مع ابتسامةٍ لم تعُد هي ذاتها: أضحَتْ الآن دلالةً جامدةً على استمتاع مُلطَّخٍ بسوءِ حظٍ يجبُ إخفاؤه. وبسبب تلك الابتسامة ظلَّ لعبُنا مجرَّد لعب، بدا لنا غير مؤذٍ. نتفنا منهم كُتَلاً من الشعر، من شعرِ عانةِ النساء، وقَرَصنا، ولوينا خصيتي الأخ. كان الشركاء الثلاثة قد انضمَّوا إلى اللعبة ؛ لم يكونوا يضحكون، لكنَّ رقصهم وتكشيرهم كان أسوأ من الضحك: كانوا الجزء المُتمِّم لثمالتنا، ويأساً جلياً جوهره الامتعاض. وكنتُ أعلمُ أنَّ عليهم أن يطلقوا العِنان لتكشيرهم ذاك لأنه كان يتهدَّدُ شعورهم بالامتعاض خطرُ أن يُصبحَ " لا مبالياً بالشرّ، إلى درجةِ شعورهم بالشفقة على مَنْ يرتكبونه ". ولا شك في أنَّ الضابطَ، الواقف خلف الطاولة ويراقبنا وهو يبتسم، كان أيضاً يدرك ذلك. ولم يكن لديَّ أي وقت للشعور بذلك كله، بما أنه كان يجرفني معه، ويُهيمن عليَّ، لكنَّ الضابطَ كان لديه الوقت الكافي لتلقّيه كله. كان حاضراً ليعلم أننا ربما في اليوم التالي سنكون

في عِداد الأموات. كان أيضاً يمثِّلُ ميتات بطوليةٍ عديدة، والكثير من المنازل، والأطلال، والأحزان، والمآسي التي يتصاعدُ منها الدخان، وقد أدركَ أنه في استطاعتنا أن ننغمسَ في اليأسِ المرح. واخترعنا قفشات مُسلّية جداً حتى إنها دفعتنا إلى الضحك...

* * *

أحد أوضاع إريك: وضعُ إبهامه في المسافة بين اثنين من أزرار فتحة بنطاله. مثل نابوليون الذي تعوّدَ أن يشبكَ إبهامه بصدارته. رجلٌ مريضٌ يخشى اندفاعَ الدمِ إلى يده المُضمَّدة.

* * *

إنْ كانت خِسَّة باولو قد منعتْهُ من ارتكابِ الخيانة، فإنَّ الرقَّةَ والحنانَ هما اللذان دفعا بييرو إلى الخيانة. فقد اقتَحَمَ نزلاء السجن أبواب الزنزانات ووضعوا أيديهم على بعض الأسلحة وأصبحوا، طوال يومين، سادةَ السجن، المكان الذي ستغدو فيه القوةُ المطلقةُ هي القانون. وأدخلوا الخوفَ إلى أنفسهم. هرب الحرّاس، وأغلقوا البوابات الخارجية، ووقعنا نحن في الفخ، عاجزين عن اجتياز الجدران التي يقفُ خلفَها جنودُ مدجَّجون بالسلاح ورجالُ الشرطة في انتظارنا. إذا أظهَرَ أحدنا نفسه في المنوَر صوبّوا نحوه وأردوه قتيلاً. وبالكاد كان معنا ذخيرة. كنا مذعورين ولا نعرفُ مَنْ نحارب. كانت الجدران تجعلنا في متناول أيديهم ؛ وقد استهلكنا لتوِّنا كل المؤن الموجودة في المخزن ؛ وقُطِعَ عنا مصدر المياه من الخارج. وكان الحُرّاس يُطلقون النار من البوابات على كل خيالٍ يلمحونه في الممرات. كنا على الدوام نتحرّكُ ببطءٍ، بحذرٍ، ونحن نحملُ أمامنا حشيّة سميكة من القش لنحتمي بها قليلاً. كنا في شَرَكٍ، وكان

في إمكانهم أن يتركونا نموت جوعاً، أو عَطَشاً ؛ أو أن يرموا علينا قنابل يدوية. كان في إمكانهم أن يملؤنا دخاناً حتى نخرج. وبين القاصرين، دفعَ الخوفُ وسموّ المغامرة، وغرابتها الاستثنائية، واقترابُ وقتِ العقاب، الذي افترضوا أنه سيكون قاسياً، دفعَ الفتيان إلى أن يعشق بعضهم بعضا، وأيضاً إلى أن يبحثوا عن المتمرِّسين ليرتموا بين أحضانهم متظاهرين بأنهم يساعدونهم في قتالٍ أوشك على الانتهاء. أنا كنتُ تواّقاً إلى الخيانة. شعرتُ باستمتاعٍ أني أُنقلبُ، كما يحدثُ عندما تُحوِّلُ أنغامُ تانغو معيَّنة الملهى إلى سفينةٍ بخاريةٍ تغرقُ وسطَ رائحةِ أزهارٍ تتعفَّن. وزارتْ روحي بيبيرو. وحين رفرفَ العلمُ الأبيضُ عند طرفِ العصا، دخلَ رجالُ الميليشيا، وزجّوا بالسجناء في بضع زنزانات، وطلبوا المذنبين منهم. استجوبَ رئيسهم بضعة سجناء، واحداً إثر آخر. بعض الفتيان لم يكونوا يعرفون أي شيء عن بداية التمرُّد.

" أهم سجناءُ سياسيون؟ "

كان الرئيسُ يطرحُ أسئلته مع رفع رأسه فجأةً ورسمَ شبحَ ابتسامةً تدلُّ على اشتراكٍ في الجريمة عند زاوية شفتيه.

" لا أدري، يا ريِّس. لم أرهم "

" خذوه. سوف نرى فيما بعد. اللي بعدو! "

وأجابَ فتى آخر:

" كنتُ نائماً يا سيدي "

قبضَ عليه الرئيسُ من كتفيه وهزَّه وزمجر " ماذا تظنني؟ "

وأطاحَ به بصفعةٍ واحدةٍ إلى الجدار المقابل.

" اللي بعدو! "

ودخلَ فتى.

" أكنتَ نائماً أنت أيضاً؟ "

" لا "

" أوه، هذه مفاجأة. حسن، ماذا تعرف؟ "

لزمَ باولو الصمتَ. نظرَ أمامه مباشرةً. كان وميضُ نظرته صارماً كوميضٍ معدنيّ. وبدون وعيٍ منه توجَّهَتْ يداه إلى جيبيه، ولكن لمْ يدخُل إلا إبهاماه، متعلِّقاً بالفتحتين. وبقيَ واقفاً دون حِراك.

" حسنٌ؟ "

بدا جلدُ وجهه الصغير كأنه مشدودٌ على إطارٍ لا يبلى من العِظام.

راحَ الرئيسُ يُقرقعُ مفاتيحه بصبرٍ نافد وقالَ " يجب أن أحصل عليهم. أريد قادة المجموعة. وإلاّ، سوف أُعطي السجناءَ أكثرَ مما يتوقّعون! "

في الحال، بَدتْ نظرةُ باولو المعدنية المتوتِّرة كأنما تُزيِّنُها براعمُ ربيعيّةٌ هشَّةٌ. وأضاءَ وجهُهُ قليلاً بطريقةٍ غريبةٍ: أي، أصبَحَ أكثرَ تجهُّماً. أدركَ باولو أنَّ صمتَه سوف يُسبِّبُ للرئيسِ الكثير من المتاعب؛ بل يمكن أن تحدث كارثة. لم يفكِّر في شيءٍ مُحدَّد وإنما استسلمَ بابتهاجٍ حسّيّ لموجةٍ من الرفض. قال، من خلال أسنانٍ مُطبَقَة بإحكام، " ماذا تريد مني أن أقول؟ فَتَحَ أحدهم زنزانتي... "

" ما رقمها؟ "

" ٤٢٦ "

" ثم... "

هذه الـ " ثم " شدَّدَتْ عليها حركةُ القَدَم التي ركلَ بها الرئيسُ قطعةً صغيرةً من الخشب كانت على الأرض إلى الجدار المقابل. كانت

حركةً جديرةً بلاعبِ كرة قدم. شعرَ باولو على الفور بوخزٍ واهٍ من الخجل ذكَّرَه بأنه ليسَ رياضيَّ البُنية.

" لا أعرفُ شيئاً عن الأمر "

نظرَ الرئيسُ إلى باولو. حدَّقَ آلياً إلى جسر أنف الفتى حيثُ رأى ملتقى الحاجبين الذي أضفى على الوجه مظهراً حروناً مما عنى أنه لن يتمكَّن من الحصولِ على أي شيءٍ منه.

" اغرب عني إلى الجحيم! "

وغادرَ باولو. ثم جاءَ دورُ بقيّةِ الفتيان، واستُجوبوا برفقٍ أو بعنفٍ. لا أحد منهم باحَ، إذ لم يكن أحدٌ منهم كان على علمٍ بأي شيء. ودخلَ بييرو. اتَّهمَ النزلاء الثماني والعشرين الذين أُعدموا. ثم قامَ يرافقه آمرُ السجنِ، ورئيسُ الميليشيا، ورئيس الحرس، وأربعةٌ من السجّانين، بجولةٍ على الزنزانات كلها. ودلَّ في كل منها على الأشخاص الذين أعدُّوا للعملية، وعلى الفتيان الذين كانوا أوَّلَ مَنْ قرعَ الأبواب. وأولئك الذين كانوا الأكثر حماساً - مُشعِلي الشرارة، الشجعان، البواسل، العنيفين. وقفَ الرئيسُ وآمرُ السجن جانباً لا يرفُّ لهما جفن. ولجَ الفتى الزنزانة المزدحمةَ - لأنَّ النزلاء كلهم كانوا قد سُجِنوا على عجلٍ داخل مساحاتٍ صغيرةٍ لعشرين زنزانةٍ مُخصَّصة لرجلٍ واحد - ثم وقفَ على أطراف أصابع قدميه ليرى الوجوه الخلفية، ولأنه لم يكن يعرفُ اسم أي منهم، راحَ يُنحِّي جانباً الرجالَ المحشورين وسطَ عَرَقِ شهرِ تموز وحَرِّه، والرائحة، والظلِّ، يرتطمُ بركبِهِمْ، وصدورهم، ومرافق أيديهم. ومن الزاوية الأشدِّ ظُلمةِ للزنزانةِ أخرجَ وجهاً كان موجوداً في نهايةِ جسمِ فتى سحبَهُ من سترتهِ أو قميصه، وأخذهُ السجّانون الأربعة جراً.

في الليلة التي سَبَقَتْ تدويني لما يلي رأيتُ حُلماً، سجَّلتُهُ متأخراً جداً: " كنتُ أسجنُ أيرَ فتى في حزامٍ خاصٍ للعفَّة له خمسة مفاتيح. وبدافعٍ من كراهيتي (أذكرُ أنَّ الشعورَ الذي دفعني إلى القيام بالعمل الآتي ذُكرُه كان الكراهية) ومن حبي لما لا يمكن تعويضه، أطحتُ بالمفاتيح إلى سيلٍ من الوحل "

لمْ ينتقمْ بييرو. كان من بين أوائل مَنْ أسَرَهُم رجالُ الميليشيا، ولما سألَه الرئيسُ، كما سألَ الأسرى كلهم، عمّا إذا كان يعرفُ قادةَ المجموعة، قال، وهو وحده قال، إنه يعرفُ. لكنّه لم يكن يُحفظ أي أسماء.

قالَ " لو أراهم فسأدلّ عليهم "

كانَ قد قبضَ عليَّ مع الآخرين، ولكن عندما أُطلِقَ سراحي شعرتُ بفرحٍ غامرٍ، بامتنانٍ شديد، حتى عجزتُ عن ضبطِ نفسي. وفي تلك اللحظة اتَّسعَ فرحي حتى إنَّ الرئيسَ - أكانتْ تلك مصادفةً أمْ نتيجةَ ملاحظةٍ دقيقةٍ جداً أو تكهُّنٍ بارعٍ؟ - سألني إنْ كنتُ أعرفُ قادةَ المجموعة. لم أكنْ خائفاً.

لم يكن الأمر بالنسبة إليّ أني استسلمتُ للتهديد وإنما، على العكس، أني كنتُ في حالةٍ من السعادةِ يُعَدُّ الرفضُ فيها جريمةً، هي واحدةٌ من تلك الحالات التي تَمنَحُ وأنتَ فيها إحساناً لشحّاذ... ولما كان النزلاء ما يزالون محجوزين في القسم الأعلى، لم يزعجني أحد. كنتُ آمل في أن ينسوا أمري. كنتُ آمل حقاً، لكنَّ آمر السجن كان قد دوَّنَ اسمي. بعدها بثلاث ساعات، بعد انتهاء التمرُّد، أتى الحارسُ ليأخذني. سدَّدَ الرئيسُ المسدسَ إلى صدغي وقال" إما أن تدلّني على قادةِ المجموعة أو أنسفك "

بالنسبةِ إلى عاشقٍ للعدالة قد يبدو هذا الأسلوب بغيضاً. إذ كانَ سيُخشى أن أتَّهمَ رجالاً أبرياءَ لكي أُنقذَ نفسي. والقائدُ أرادَ فقط أن يعدم الرجالَ ليجعلهم عِبرةً لغيرهم، كإجراءٍ انتقاميّ، وعلى الأخصّ ليُثبِتَ لنفسه أنه شجاعٌ بما أنه تجرأَ على تطبيقِ عقوبةِ الموت. وقد أثبتَ هذا الأسلوب أنه ناجع. الاثنا عشر الأوائل الذين أُدينوا كانوا قادةً فعليين للمجموعة. وتفسيرُ ذلك كما يلي: إنَّ وجهَ القائدِ المرعِب ونبرة الصوتِ وبرودةِ فوهةِ المسدس، الذي كان مُعَداً للإطلاق على صدغي، جعلتني في رعبٍ شديدٍ حسبتُ معه أني ميّتٌ لا محالة. شعرتُ كأني أغدو شاحبَ اللون من رأسي إلى قدمي أو كأنَّ كياني كله ينزُّ مني. وعلى الفور تشكَّلَتْ داخلي قصيدةٌ وداعٍ غنائيّة لكلّ ما أحببت. وتغيَّرَ معنى ما حولي كله. وفجأةً حضَرَتْ الغاباتُ، والصخورُ، والسماءُ، والنساءُ، واللهبُ، والبحرُ. أضاءتْ الشمسُ السجنَ. لاحتْ أمامَ عينيَّ الأزهار، الأسيجةُ النباتيةُ، آلاتُ أكورديون، رقصاتُ الفالس، ضفّةُ نهر المارن، وفي الحالِ أسِفتُ عليها حتى درجةٍ من اليأسِ لا تنجعُ فيها أي دموع. الأكورديون! من خلال الأكورديون صرخَ جسمي وهو يُنشَرُ متألّماً.

" إنهم يجعلون أحدَ طرَفيه يتمعَّج، إلى اليمين واليسار "

على الفور تبدّى كلُ شيءٍ لبييرو نائياً، يخصُّ عالماً آخرَ، خاضعاً لقوانين أخرى. ثم، في تلك اللحظة بالذات، انتهتْ حياتَه. ومن خلال زجاجٍ سميكٍ رأى وسمعَ أشياءَ وأناساً، كل شيء ما عدا القائدَ، وموته، ووجهَه، وإيماءاته، و " ناره المُثلجة " . فتحَ بييرو فَمَه ولم يفُه بشيءٍ. التَهَبَ جفناه. استبدّتْ به الفكرةُ التاليةُ: " القائدُ حانقٌ. أي شيء يمكن أن يدفعه إلى إطلاق النار ". وللتو رأى الخطرَ. ونطقَ بصعوبة:

" سأحاولُ أن أرى إنْ كنتُ أتعرّفُ عليهم "

انغلقَ فمه على الفور، وتدلّتْ زاويتاه، وكأنه مرسومٌ بطريقةٍ جافّة. وجهه، الذي كان قد باتَ شاحباً شحوباً يُسمّى، كما أعتقد، اخضرارَ الخوفِ، أصبحَ أشدَّ قُبحاً بعد أن تدلّى اللحمُ. كدتُ أقرأ فيه ألماً محضاً مثل ذلك المُتبدّي في منظرٍ طبيعي يُمثّلُ ضباطاً ألماناً يقفون تحت الأشجار في عزبةٍ، يدفنون ملابسَ، وخوذَ، ومسدسات مجموعةٍ مدحورةٍ تشتّتَ شملُها. شعرَ الفتى أنَّ حياتَه مرتبطةٌ بيقينٍ قاسٍ بالإصبعِ الموضوعِ على زند المسدس الذي لم يكن يراه، لأنه لم يجرؤ على تحريك رأسَه. كان يخشى أن يُفهَمَ من أدنى حركةٍ تندُّ عنه أنها حركةُ تمرُّد. كان خاضعاً لما يُشبه النوم المغناطيسي. كانت قسوةُ القائد منحوتةً بشدةٍ بإرادةِ الموتِ ولهذا اهتزّت قليلاً. هذا الاهتزاز كان خطيراً. كان يمكن أن يدفعه إلى الظن أنه يعيشُ حُلماً وأنه لن يَقتُلَ أحداً بإطلاقِ النار عليه. ثم عاد إلى رشدِه. نظر إلى بييرو بمرونةٍ أكثر. رأى وجهَهُ الرقيقَ، ورموشَه الطويلةَ، ونَمَشه، واستدارة شفتَيه، ورأى اليأسَ مرتسماً عليهما كوردةٍ ميتة. فكّرَ في نقلِ فوهةِ سلاحهِ برفقٍ ووضعها في فمه.

فكّرَ " هكذا يفكُّ رجلُ الميليشيا عقدةَ اللسان، وهذا سيجعلُه يُغيّرُ رأيه "

جَعَلَه وجودُ آمرِ السجن يشعرُ بعدمِ الارتياح. أخفضَ المسدسَ. وهكذا انكسرتْ اللحظةُ التي استمرّتْ يعلمُ اللهُ كمْ منَ الوقتِ، وكانتْ حياةُ بييرو معلّقةً في الهواء. وتلاشى أيضاً طابعُ اليأسِ الخارقِ، الذي رَفَعَه، بتجميدِ مشاعره، فوقَ مستوى جسَده، وتركه بدون عقل. رأى آمر السجن يبحثُ عن سيجارةٍ، شعرَ كأنه واقفُ على ساقيه المتيبّستين،

في وضعِ الانتباه العسكري. ثنى ربلة ساقه اليمنى قليلاً ليرتاح على تلك الساق. أصبحَ جسمُهُ أكثر ليونة قليلاً، ووضعَ يداً في جيبه. ولكن على الزغم من أنَّ الموتَ لم يتمكَّن منه في لمح البصر (احتاجَ القائدُ الآن إلى بعضِ الوقتِ ليُسدِّد إلى الصدغ)، كان حاضراً، متيقِّظاً، مستعداً لانتهاز الغلطة الأولى ولكي ينجح في ذلك كان عليه أن يبقى في حالةِ نومٍ مغناطيسي لا يمكنُ إلا لأعلى درجات الخطر أن تضعه فيها.

" تعالَ معنا "

غادروا المكانَ إلى الزنزانات التي زُجَّ في كلٍ منها عشرون من السجناء. لا شك في أنَّ حركات الساقين وضرورة انتقاء الدَرَج جعلته يُدرك من جديد أنه كان ما يزال في عالمٍ يعاني فيه المرءُ وينزفُ. كانت بدايةُ ذاك المسير بالنسبة إليه هي توجُّه معاً نحو الموتِ نحو النور. ولكن، خلافاً للضحيةِ التي تُوقظ عند الفجر والتي يكونُ مسيرها الأخير هو إلى النور وإلى الموت، شعرَ بييرو، بدافعٍ من الأمل الذي عادَ فأحيا جسمَه، أنَّ الغَلَبَة ستكون للنور. على أي حال إنَّ قوةَ جذبِ العملِ الذي كان يوشكُ أن يؤديه، بما يكتنفه من جلالٍ، ويزدادُ عظَمة بإيماءاته المألوفة، ووقار اللحظة الذي سما به، دون أن يقضي على خوفه، بتدمير كل ما يحيطُ به، وسمحَ بتغذية فقط الحدَّ الأقصى لكيانه وتذكُّر يأسِه، دون القضاءِ على رغبتِه المذعورة وذلك بتركِه مُتَبلِّد الحسّ حيالَ العواقب، أي، حيالَ الحياة خارجَ الذات بما أنها قد أصبحتْ قضيةً، تقابلتْ جميعاً في داخلِه في اللحظة نفسها وجعلتْ من عملِه محض فعل إيمان. حتى الموتُ الحاضرُ بكل معنى الكلمة الذي كان ما يزال ينتمي إليه دعاه ليكون صادقاً، ليكون صريحاً. الموتُ مقدّس. وكل كيانٍ يلمُسُهُ، حتى

ولو بطرفِ جناحِه، يصبحُ مُحرَّماً. إنه يعرفُ أنَّ الموتَ أقوى منه، ويباركه لأنه أبقى على حياتِه، ولكي يُروِّضه أو ربما ليُحبِطه، عندما يصبحُ شديدَ القرب منه، صنعَ لنفسه درعَ سلحفاة مكوَّناً من ألمع الفضائل، وخاصّةً من العدل الذي يجعلُ الإنسانَ حصيناً. على أي حال، ظنَّ بييرو أنه ستَثْبُتُ صحّةُ اتّهاماته. دلَّ، بدون أن يرتكبَ أخطاءً في أول الأمر، على المسؤولين. لم تسمَح له قوةُ جاذبيّةِ فعلِه شبه الآلية بأنْ يهتم جدّياً بسخطِ أصدقائه. وهو لم يلحَظ احتقارَهم إلا من خلال غشاوةِ صفائه. قَبِلَ القائدُ وآمرُ السجن قراراتِه بدون تمحيص. رأيا فيها اختيار السماء: إصبع طفل. لعلّهما كانا واقعَين تحت تأثير سيطرته النضِرة والنقيّة. لقد كان الفتى يلعبُ دور البندول لأجل هذين الوحشَين. وزاد صمتُه ذاته من الطابع الاستثنائي لحالته، وجرَّدَه من إنسانيته. في الزنزانات الثلاث الأول - وكانت عشرين في مجموعها - انتقى بييرو عشر ضحايا. عندما وصَلَ إلى ذاك الرقم، تمنّى لو أنَّ القائدَ يكتفي به. لقد كان يتوقّع آخرين: لم يفه بكلمة. التردُّد القليل جداً الذي انتابَ بييرو في أول الأمر عندما تعرَّضَ للتهديد بالمسدس وظنَّ أن المسألة هي تقديم حياةِ عدةِ رجالٍ في مقابل حياته هو، كان قد تلاشى.

وفكَّرَ " مستحيل أن يذبحوا هؤلاء الشبان كلهم، سيكونُ الأمرُ مجرَّد عقوبة جماعيّة! "

منذ تلك اللحظة أخذَ يعيشُ إحساساً مؤكَّداً بالعار. شعرَ بالتقصير لأنه لم يُرسِلْ عدداً كبيراً من الرجالِ إلى المشنقة وبذا قلَّ إحساسهُ بالخوفِ من نفسِه ومن فعْلَتِه. أحسَّ أنَّ قدميه تحترقان، ليس كما لو أنه يسيرُ على جمرٍ يتلظّى، وإنما بحرارةٍ بطيئةٍ، ملحاحاً تصاعدتْ على طولِ

ساقيه. فمع مرور الخوفِ يتسارعُ توزُّع الدم. ورحتُ أُفكِّرُ في عهد شبابي أثناء فصل الشتاء. حين كانت أمي تملأ قبقابي بالجمر، قبل توجُّهي إلى المدرسة، وتهزُّه حتى يدفأ الخشب، وبعدئذٍ أمشي بخُطى مُجهِدة أخوضُ في الثلج في شوارع يحفُّ بها الوحل. في الزنزانة السابعة دلَّ على الضحيّة ببساطةٍ بإيماءٍ من ذقنِه، لكنها كانت من فرط الغطرسة بحيث استطاعَ أنْ يتحدّى عشرة آلاف سنة من الأخلاق ويتخلَّص منها. عندما فتّشَ الزنزانات الأخرى، بدت له كل إشارة، ونظرة، وتنهُّد من الرجال المحشورين مشحونة بالاحتقار. وعندما غاصَ وسط تكتُّلهم الدافئ الرطب، بدا أنَّ التقزُّز هو ما يباعد بينهم ليمرّ. كانت الزنزانات المزدحمة أشبه بنفقٍ للمشاة خلال ساعةِ الازدحام، واجتهدَ بييرو ليشُق طريقه. نفذَ في الحشد، يلاحقه الاشمئزاز. كان جو الزنزانات بالنسبة إليَّ أشدّ شبهاً بنَفَقِ المُشاة ليلةَ قابلَ ريتون إريك هناك بحيث لا أتحدَّثُ عنها. كان ريتون في السابعة عشرة. كانت الليلة نفسها التي أُعدِمَ فيها المتمرِّدون الذين خانهم بييرو. وقُبيل الساعة الحادية عشرة ابتاع تذكرةً من محطة لاشابيل ليعود إلى الثكنة. ولما كانت الحافلات تسيرُ فوقَ الأرض في تلك المحطّة كان عليه أن ينتظرَ حلولَ الظلام بسبب التعتيم العام. إلا أنَّ ريتون استطاعَ أن يُميِّز وجهَ سائق الدبابة الألماني الذي وقفَ خلفَه. وجهُ شابٍ في الثانية والعشرين، ذي عينين نافذتين، وشعرٍ أشقر جَعِد. كان ضخماً، كما قلتُ لتوّي، ومندفعاً مباشرةً إلى أعلى من البزّة الخالية من الياقة السوداء حتى الحذاء. كان إريك يحملُ زوجاً من القفازات البنّية، ويقفُ خلفَ ريتون مباشرة، والذي كان يميلُ بمسافةٍ من العمود المركزي، قِبالة الباب. كان الحشدُ غفيراً، والناسُ ينضغطُ بعضهم على بعضٍ في

صمت، وعلى الرغم من الصمت استطاعَ ريتون، وقبل أن يلجَ القطارُ الظلامَ، أنْ يرى على الوجوه كلها تعبيراً ينمُّ عن امتعاضِ شعبٍ بأكمله. كان وحيداً، فتيّاً، وقد بدأ يعي عزلته وقوّته، وكبرياءه أيضاً. وما إن انحدرَ القطارُ إلى الطريق السفلية حتى جعلِ اهتزازُ العربة بطنَ الفريزو (كما كان الألمان يُسمُّون) تلتصقُ بظهرِ ريتون. في أول الأَمر لم يُخامر الفتى أيُ شك. ثم دُهِشَ لاستمرار الإحساس بالثِقَل والحرارة عليه. ولكي يتحقّق من ظنّه غامرَ بالّتلوي للتخلُّص، مع أنه أرادَ أن تكون حركته وجيزة جداً لكي لا يُثبِط هِمّةَ الجنديّ إذا اتّضَحَ أنّ ظنّهُ صحيح. وضغطَ الجنديُّ نفسَه أكثر من ذي قبل، وحصل لديه انتصاب. لزَمَ ريتون السكونَ. كانت العربةُ عند كل محطة تُضاء، ولكن لم يُلاحظ أحد أي شيء، لأنّ كل ما كان في الإمكان رؤيته هو رؤوسٌ وأيد متشبِّثةٌ بالعمود. وفي أسوأ الحالات كان مشهدُ الفتى يُثيرُ التقزُّز، الذي حلَّ محل التفكير وحالَ دون الملاحظة. كان إريك يُحدِّقُ أمامه مباشرة. ولما كان رأسَه مُنحرِفاً قليلاً لكي لا يبدو أنه يُقبِّل شعرَ الفتى أو قُبّعته، كان تحديقه يمرُّ من تحت ذراعٍ نادلٍ كان يتّكئ على أحدِ الأعمدة.

" يجب أن يشعرَ بانتصابِ قضيبي "

ثم لم يستطع أن يتخلّص من الفكرةِ، وتمنّى أن يشعرَ الفتى بانتصابه وخشيَ ألاّ يشعر. ولم يجرؤ على أن يُغالي في الضغط وفي الوقت نفسه راحَ يكبُسُ بقوةٍ كبيرة، لأنه كان يحتفظ بصورةِ العُنُق - الأكثر إثارة في الظلام - النحيل، المقوّس قليلاً الذي نجحَ في أن يلمحه عند المرور بكلّ موقف محطّة.

" حتى وإنْ لمْ يُحِبْ هذا لأني ألمانيّ، فلن يجرؤ على إثارةِ فضيحة"

وتوالتْ المحطات. حاولَ إريك أن ينفُذَ بذراعه اليسرى (التي رفعها فوق الركّاب) داخل الكتلة البشرية. وهبطتْ الذراعُ ببطء. نقّبَتْ اليدُ عن فراغٍ بين كتفَين بأسلوبِ الذكاءِ الحَذِر لرأسِ حيّةٍ تبحثُ عن فجوة. تلوّى ريتون بردفيه مرة أخرى. لم يكن تقريباً يُفكّر. استسلم للانجرافِ مع تيارِ سعادةٍ كانت في عمقها خَدَراً رقيقاً. لقد هيمَنَ عليه الذكَرُ، الجنديُّ، والألماني. وكان هناك توقُّفٌ؛ مُضيٌ. إنها محطّةُ جوريه. ترجّلَ بعضُ الركّاب. وبفضل تفاهُمٍ كان قد تمّ التوصُّل إليه بينهما، لم يأتِ ريتون ولا الفريتز بأي حركة، فيما عدا أنّ ريتون أخرجَ يده اليمنى من جيبه.

واندفعَ القطارُ داخلَ الظلام. لم يتحرك. وللمرة الأولى منذ ذلك الصباح أحسّ بما يشبه السكينة. لعلّ ما كان الجندي الألماني يمنحه إياه لم يصبح بعد عاطفة. مع ذلك، استكان ريتون في ذلك الدفء والقوةِ الجسدية، ونسيَ أمرَ جريمتَه الشنيعة.

" سوف يفهمني "

أبعَدَ إريك بطنَهُ عن ظهر ريتون، مُحافظاً على وضع أيره أفقيّاً – ولكن من خلفِ فتحة بنطاله المزرّرة – وتركَ قضيبَه ينقادُ بحركاتِ العربة. وهكذا، كانت كل رجّة تجعله يغرزه بين فخذَيّ الفتى. وفي كل مرة كان ينقطعُ فيها الاتّصالُ يتولّدُ لدى ريتون وعيٌ بعزلته. وعندما يعودُ من جديد يُهدّئ من غلوائه ويبثّ فيه الثقَةَ، ويجعله يشعرُ أَنَه على وئامٍ مع العالم.

" القضيّة هي، إلى أي حدّ سيتمادى؟ "

يقول إريك: " سوفَ أتبعُهُ حين يترجّل "

راحَ نفقُ المشاة يمرُّ بسرعةِ وثقةِ بأفريزٍ يُطوّقُ معبداً إغريقياً. وارتجَّ القطارُ رجّةً عنيفةً ولكي يستعيد إريك توازنه وضعَ يدَه اليسرى – تلك

التي كانت تحملُ القفاز - على كتفِ ريتون. أحسَّ الفتى أنه ينوخ تحتَ ثِقَلْ ألمانيا. مالَ برأسِهِ إلى الأمام قليلاً لكي يلمسُ خدّه إصبعُ من القفّاز مسّاً رفيقاً.

وتساءَلَ إريك " أهو يبتسمُ أم يبدو عليه الانزعاج؟ "

كان يودُّ لو أنَّ ريتون يُبوِّز قليلاً. ومع ذلك، شعرَ إريك، من دلائل غامضة، مما يشبه القوة المتزايدة المتعاظمة داخله، من يقينٍ، من الجهد الأعظم، من حبات العَرَق على صدغيه، وأيضاً من انخفاضِ الثقة في قضيبه، شعرَ أنه يُحقِّق الفوز. لقد وقعَ الفتى في الفخ. كان يهبُ أعزَّ كنوزه. وإنْ كان قد تمنّى أن يرى تبويزةً نكدَةً على وجه ريتون، فذلك لكي يُمزِّق آخر حُجُب الاحتشام، ولأنَّ البوزَ كان سيتماشى مع جمالِ شعرهِ، ومع القبّعة المائلة على أحد الجانبَين مثل أُذُنٍ كبيرةٍ لكلبِ صيد. وحدَثَتْ رجّةٌ أخرى، استغلّها إريك ليُطبِقْ صدرهُ تماماً على ظَهر ريتون.

" الفتى يستسلم لأحاسيسه. ماذا سيظنُّون بي إذا أُضيئتْ الأنوار؟"

هذه الفكرة لم تزعجه. بل إنها في الحقيقة منَحَتهُ ما يشبه المتعة، لأنه تمنّى أن يتعرّض للشُبُهات وأن يُضطرّ إلى مواجهةِ مزيدٍ من التقزُّز بشجاعة. وكانت رجّةٌ أخرى وتشابَكَ فخذا الألماني بفخذَيه بإحكام.

"ولابدَّ أن الفتى يستمتع بنفسِه وهو بزيّ الحداد. ولا أدري أين سينزل!"

وأضيئت الأنوار. كانت العربةُ شبه خاليةٌ، وتركَّزَتْ الوجوه كلها على الجنديين اللذين مَنَعَ الخوفُ منهما أيَّ شخصٍ من تعنيفهما وكانا مُلتصقَين معاً ظهراً إلى بطن، وقد ضُبِطا وسطَ مغامرتهما الغرامية نجِسَين وهادِئين ككلبين في ساحةٍ عامة. وعلى الفور أدركَ إريك وريتون معاً وضْعَهما البذيء. ودون أن يتبادلا كلمةً واحدة، نزلا. كانت محطّة

بارمنتيير. إنَّ يقينَكَ بجمالك يمنحُكَ ثقةً عُظمى، كالقوةِ العضليّةِ، ومن خلفك، كجدارٍ واقٍ تتّكئ عليه، كاملُ ثِقَل الرايخ القاتم والكئيب يدعمُكَ. ومع ذلك فحالما خطا إريك خارج القطار إلى الرصيف شعرَ بشيءٍ من الحياء. وكان ريتون هو مَنْ أخذَ المبادرة وتكلّمَ أولاً. كان قد قفزَ من القطار وهو ما يزالُ يتحرّكُ. والقفزُ والركضُ الوجيزُ على الرصيفِ جَعَلاه يشعرُ بالارتياح ومن ثم أمدّاه بالبهجة. خلَعَ قُبّعَته ضاحكاً، وهزَّ رأسَهُ بقوةٍ وهو يُمرِّرُ يدَه خلال شعره، وقال، وهو ينظرُ إلى إريك، " الجو حارّ، هه؟ ".

وقال إريك مُبتسماً " هو ذاك ". تكلّمَ بفرنسيّةٍ ممتازة، بنبرةٍ ثقيلةٍ نوعاً ما. وراح يُعَدِّل من شأنِ سترته السوداء القصيرة، ونطاقه، ومسدسه. مرَّ بآلةٍ لبيع الحلوى ورأى كُمَّه الأسود منعكساً على مرآة ضيقة: ها قد أُضيفَ إلى الحقيقةِ الساميةِ لكونِه سائق دبابةٍ في الجيش الألماني تلألؤ اسمه. وعميقاً داخلَ الكتلةِ السوداءِ لجسمِهِ المرتدي ثياب الحِداد كان يعملُ على صيانةِ ذاك الاسم: إريك زايلر، المتبوع بتعبيرٍ سحريّ، وحولهما كانت تجري مغامرةٌ مذهلةٌ بأكملها، وإنْ بدقّةٍ أقلّ، لأنها كانتْ مجرَّد ذريعةٍ للاسم ليومض، أعدَّتْ في برلين. والتعبير هو: عشيق الجلاّد. لم يكن إريك يتّصِفُ بأي غرور. سُمْعَتُهُ بسبب علاقاته الجنسية الفاضحة كانت تُرضيه في الماضي، لكن ذلك كان لأنهم مَنَعوه من الانحرافِ عن مسارِ قَدَرِه الفردي.

" أنا، وحدي، إريك زايلر ". هذا اليقينُ كان يجعلُهُ يُحلِّقُ. كان واثقاً من أنْ لا أحدَ تعرَّفَ إليه في الشارع، لكنه عَرفَ أنَّ الجمهورَ كان يعرفُ بوجود إريك زايلر، الذي لا يمكن لغيرِه أن يكونه. الشهرةُ تكفي،

حتى وإنْ كانتْ من النوع المُشين وعليه فهي عكسُ المجد، إذا فرضنا أنَّ كلمة fama تعني المجد. كان يكفي لتحقُّق مجده أن يكونَ عشيق الجلاّد. لقد كان مشهوراً، فتيّاً، وسيماً، ثريّاً، ذكياً، مُحبّاً، ومحبوباً. باختصار، كان يملكُ كلَّ ما يتضمَّنه، وما يدلُّ عليه قولُ الناس " إنَّ لديه كلَّ ما يوفِّر السعادة ". لذا ما كان في إمكان تعاسةِ أو آلام ذاك الكائن الاستثنائي إلا أنْ تكون ذات منشأ نبيل. كانت آلامه من منشأ ميتافيزيقي. وكما أنَّ الآخرين كانت تعزلهم عِلّةٌ ما، كذلك هو كان معزولاً بتلك الباقة من المواهب المُركّبة. ومن عُزلتهِ نشأتْ نوباته المفاجئة حول مشكلةِ الشرِّ، وكان قد اختارَ الشرَّ بدافعٍ من اليأس. ورؤيته لنفسه - وإنْ بلمحةٍ خاطفةٍ - في مرآةِ آلةِ بيع الحلوى حصَّنه ضد الصورة التي يحملها عن نفسه. لقد كان في حماية جلاّدِ ألمانيا، قاطع رؤوسٍ بفأسٍ، ولدى خروجه من القطار النَفَقي إلى ظلام الشارع، داعَبَ رَقَبَة رجلِ الميليشيا الرقيقة، فالتفتَ الفتى برشاقةٍ نصف التفاتٍ ووضعَ إحدى ساقيه بين ساقي إريك.

* * *

لم يكن بييرو مُكلّفاً بتطبيقِ العدالة بل تاجراً. كان يخشى مما قد يظُنّه باولو إذا سمعَ بمغامرته. وسوف يسمعُ بها حتماً. وأخذَ شيئاً فشيئاً يفقدُ مجدَه. كانت استقامتُهُ السامية تخذله. وكان الموتُ يتراجع. وكان هو يمشي على الأرض. في الوقت نفسه، انشغلَ ذهنه، وأخبره ذكاؤه أنه من المستحيل على أي إنسان أن يُحقّق في اختياره. لقد دلَّ على الوجوه التي كان يكرهها عندئذٍ وهناك، ولما كان هو ذاته قاصراً، فإنه لم يدلَّ في قسمِ الأحداث إلا على أصغر الفتيان. وأصبحَ احتقار الرجال كلهم -

خاصّةً احتقار البالغين الذين رأوا الخيانة تمرُّ بهم مقنَّعة بثوبِ الشبابِ والجمال - جليّاً أكثر فأكثر. ولكي يبدو عابراً لامبالياً بدوره وبالاحتقارِ الذي أثاره وهو يُشيرُ إلى الضحيةِ، راحَ يشقُّ طريقَه خلال قطيعِ البهائم ويداه في جيبيه. ولكي يتجنَّب تحديقهم، أي لكي لا تلتقي نظرتُه بتحديقِ شخصٍ أشدُّ منه صرامةً، وعنفاً، شدَّ يديه معاً داخل جيبيه حتى كادتا تلتقيان فوق بطنِه، بحيث أن قماشَ بنطاله ضاقَ حولَ مؤخَّرته مما جعله يدور حول أحد كعبَيه بحركةٍ رشيقةٍ جداً حتى إنَّ خصلات شعره تشوَّشتْ وصَفَعَت حاشيةَ لفاعةِ وجه رجلٍ عجوز. وبينما كان يفقدُ باطراد صرامته المتعجرفة، كانت ثقةُ القائدِ العمياء به تنحدرُ. ولعلَّ القليلَ من التردُّد، والكثير من السلوك المتنمِّر، والإيماءات التي كانت أكثرَ وقاحةً بسبب الاحتقار الذي كان يجب إزاحته جانباً، كانت بمثابةِ إشارات تحذيرٍ للضابط من أنَّ الفتى يكذب. وفكَّرَ برهةً في أن يتقصَّى الأمر، لكنَّ تكاسله، في المرتبة الأولى، ولا مبالاته بحياةِ الآخرين جعلاه بشكلٍ ما يتخلَّى عن الفكرة.

قال في نفسه " يا له من عاهرة هذا الفتى! ". لم يكن يستطيع أن يكفَّ عن عشقه، عن تكوين حلفٍ سرِّي معه. بل إنه كان ممتناً للفتى لأنه ذكَّره بأن الميليشيا تلعبُ في حياةِ فرنسا الدورَ نفسَه الذي يلعبه الفتى في حياةِ السجن الحاليّة. كان يعرفُ أكثر من أي شخصٍ آخر أنَّ الميليشيا وُجِدَتْ لكي تمارس الخيانة. كانت تحملُ عبءَ العار. كان على كلِّ رجلٍ من الميليشيا أن يتحلَّى بالجرأة ليحتقرَ الشجاعة، والشرف، والعدالة. وهذا صعبٌ أحياناً، لكنَّ الكسلَ يساعدنا كما يساعدُ القديسين. والفتى كان جديراً بأن يكونَ رجلَ ميليشيا. وبينما كان يُتابعُ

هذه الأفكار، وإحدى يديه ساكنةٌ في جيبه على حاملِ مفاتيحه والأخرى ترتاحُ على جراب مسدسه الجلديّ الأصفر، لوَى فمه فيما يشبه الابتسامةَ، لكن الضحكَ في الحقيقة تواصل داخل فمه المُغلَق مع صوتٍ ضعيفٍ متهكّمٍ يسخرُ من تلك الفكرة، وفجأة تركّزتْ عيناه حتى باتَ في وسعِ عقلهِ أن يراها بوضوحٍ أكبر وتحت ضوءٍ أقسى.

" وماذا يهمُّ بحقّ الجحيم إذا أطلقنا النارَ على أشخاصٍ أبرياء؟ ". خطرت له هذه الفكرة في اللحظة التي سَبَقَتْ اختيارَ الضحية الثامنة والعشرين، التي كان الفتى قد دلَّ عليها لتوِّه بالوقوفِ أمامها ليُردِّدَ للمرة السابعة والعشرين الكلمات: " هو أيضاً منهم ". وهمَّ الفتى بمغادرة الزنزانة، وأوشكَ السجّانُ أن يوصدَ البابَ، لكنَّ القائدَ استدارَ نحو بييرو وسألَ " هل نظرتَ جيداً؟ أأنتَ واثقٌ من أنه الوحيد بين هذه المجموعة؟ "

أقلقَت الفتى رِقّةٌ غير متوقَّعَة في صوتِ القائد، وظنَّ أنها زائفة. كان قد تكلَّمَ بنبرةٍ مسرحيّةٍ خُيِّلَ للفتى أنه استبانَ فيها سخريةً ضارية. واستحوذ عليه خوفٌ من أن يكتشفَ أمرَ خداعه. شحَبَ لونُه. وإذا، بعد هذه الخيانة، انقلبتْ الطاقةُ اللازمة لتنفيذها تحت التهديد بالموت، أو حتى سلّمته إلى حقد المساجين، سيكون عليه أن يبتلع دموعه ويحتمل ذُلاً أبدياً، وهو منكبٌّ إلى ما لا نهاية فوق الممسحة التي يُغسَل بها درجُ السلالم. وكانت خادمةٌ صغيرةٌ متواضعةٌ مسكينةٌ، معرَّضةٌ لكلّ أنواع النزوات، وترتجفُ ككلب، هي التي أجابت:

" لا، يا سيدي، لا... ". وظلَّ صوتُه مُعلّقاً، لا يجرؤ على قول "إنه الوحيد " لأنَّ تلك الجملة احتوَتْ التقريرَ بأنه " واحد "، وهذا ما لم يكن يجرؤ على التصريح به، خشيةَ أن يسمعَ فجأةً نوبة ضحكٍ مخيفة في

السمـاء، أي في الأشيـاء كلها، في الأبواب والجدران، في العيـون، في الأصوات، إذا ما سمعَتْ تقريراً رهيباً كهذا. وسرعـان ما هدأ، لأنه قـال لنفـسه إنَّ مـثل هذا العـمل الشنيع كـان ممكناً لأنَّ القَـدَرَ ارتكبَ خطأً واستعـانَ به لتنفيـذ ذلك الخطأ. قال في نفسه " وإذا ما لاحظَت السماءُ الخطأ سيشيعُ فرحٌ غـامرٌ في مقـام أبينا بحيث أن مصـالحتي مع نظامِ العالمِ ستحدُث من تلقاءِ ذاتها ". باختصار، هكذا أُعبِّرُ عمّا شعرَ به.

ثم هبطَ إلى الأرضِ. كـان خـائفاً ودَّ لو أنه لا يجـد وجـهاً مُـداناً واحـداً في أيٍ من الزنزانـات الأربع البـاقـيـة. تقـدَّمَ من فـتى في نحـو السادسة عشرة سقطتْ سترتُـه، وكانت مُلقاةً ببساطةٍ على كتفيـه، على الأرض، فـالتـقطهـا بيـيـرو بأدبٍ جمّ وساعـده على ارتدائهـا. ثمـة أرواحٌ أُنقِذَتْ لسببٍ أوهى من هذا. فمن أجل يرقةٍ وقَعَتْ عن شجرةٍ وأُعيدتْ إلى ورقةٍ خضراء، ومن أجل زهرةٍ زرقاءَ صغيرة ترفضُ قَدَمٌ أن تسحقها، ومن أجلِ معاملة عُلجومٍ برقَّةٍ، تصدحُ الطبيعةُ بترنيمةِ فرحٍ، وكل المباخر تتمـايلُ تمجيداً لَك. وثمة فتى كان واثقـاً من أنه لم يقع لـه مكروهٌ لأنه ذات ظهيـرة، في الكنيسـة الخاليـة حيث كان على وشك أن يكسرَ صندوقَ الصدقات، كان من الطيـبة بحيث أغلقَ باباً مفتـوحاً لإحدى الحجيرات، مُعيداً بذلك إقامة النظامِ المُدمَّر، مُصلحاً خطأً، لعله صغيرٌ جداً، ولكن لا يوجدُ هناك مـا لم يتمسَّك به المرء، وقد أدركَ بييـرو أنه سيُغـفَر له كل شيء بسبب هذه اللفتـة الخيِّرة. وليس ثمة ما يدعو إلى الدهشة في أنه يعانـي من صعوبةٍ فـائقة في ارتقـاء مراتب الشرّ وأنه ينشدُ العون. إنه لم يغشّ. عندمـا يشقُّ اليـوغي[22] طريقـة نحو المعرفـة يصحبه دائـماً مـعلِّمٌ يرشده ويساعده. والقاتل يرى أنَّ الأصحَّ له أن يساعد نفسَه طوال الوقتِ وقَدْرَ ما يستطيع.

بيـيرو، والـقـائد، وآمـر الـسـجن، ورئيس الحـرس، وثلاثة آخـرون من الحراس (لأنَّ أحدَ السجَّانين الثلاثة كان يقود كل ضحيةٍ إلى زنزانة في مكان آخر) شكّلوا مجموعة كانت في تلك اللحظةِ قد وصلَتْ إلى نهاية القطاع الخـامس. وقفَ بيـيـرو وروحـه في ذروة الاضطراب، لا يُحـرِّك سـاكناً، ينتظر إعـلان الحُكم الرهيب. صـعـد القـائد إليـه ومدَّ يده له، فصافحها الفتى. قال " يا بني، لقد قـمتَ بواجبك. لقد أنجزتَ عـملاً ينمُّ عن شجاعةٍ، وأنا أهنِّئك "

ثم طلَبَ، مُخاطباً آمر السجن، أن يعامل الحرَاس الخونة بكياسة. ومن ثم سألَ عن الإجراءات المتَّخذة لحمايته من انتقام السجناء واضطهادهم. وسرعان ما تقرَّر أنه سيصبح أمين مكتبة إلى أن يُعتَق لعُذرٍ مُبكِّر. صحبه حارسٌ إلى المكتبة. وبعد ذلك بساعتين، أبلغه حارسٌ آخر، استطاعَ أن يلاحظ أن صوتهُ كان مشحوناً بالكراهية والاشمئزاز، أن محكمةً طارئةً مكوَّنة من آمر السجن، والقائد، وموظَّفٍ رسمي انتدبه الوزير ليحافظَ على النظام قد اصدرتْ للتو حكماً عاماً يقضي بإعدامِ الفتيان الضحايا الثمانية والعشرين وكلهم من القاصرين، رمياً بالرصاص.

* * *

كان قسيسُ السجن يُعاني من النفخةِ، ولكي يُطلِق غازاتهِ في صمتٍ كان يضغطُ ردفيه معاً بيدٍ واحدة. وكان الضراط بدل أن ينفجر يئزّ بدون أن يُحدث صوتاً عالياً. ولما كان يُقاربُ الخمسين من العمر كادَ أن يكونَ أصلعَ وكان وجهُهُ المكوَّر والبدين مرِحَ التكوين، وليس بسبب لون البشرةِ وإنما لأنه كان خالياً من أي تعبير. وفي صباح يومِ تنفيذِ الإعدام، وحالما استيقظ هُرِعَ إلى بيت الخراء الكائن في الطرف البعيد

للحديقة بدون أن يُزرِّر رداء الغفارة. وتمَّ الأمر على ما يرام، وعندما أرادَ أن يمسح طيزه مدَّ يدَه آلياً إلى المنديل الورقي. لكن خادمته عمدتْ مرة أخرى إلى تعليقِ صفحاتِ الجريدة الدينية الأسبوعية على المسمار. وعادةً لا يهتمُ بهذا الأمر مطلقاً. وفي صباح ذلك اليوم لم يجرؤ على أن يُمرِّر اسم يسوع أو مريم على الخراء. فمرَّرَ سبّابته على الثقب الملوَّث بالخراء وحاولَ أن يمسحها، كما كان يفعلُ غالباً، على البابِ (السبَّاح يفعل ذلك على الصخور، كما يفعلها الرياضيون على ألواح الأسيجة). وعلى الأثر لاحظَ أن علامة الفاصلة التي رسمها إصبعه هناك شكَّلَت، في قمة القلب المحفور على الباب، باقة من اللهب حولّتْ القلبَ المفرَّغ إلى قلبٍ مقدسٍ ليسوع يمكن أن تُرى من خلاله على ضوء الفجر حديقة كاهن، وبدقّةٍ أكبر، أجمة من نباتِ القبس الأبيض. وفجأة تلظَّى القلب، الذي بلغَ الكمال فجأةً بالتميُّز السامي للهبِه، بالنار، وبذا تلقّى الأب معمودية النار. وعجز عن التفكيرِ في فعلِ أي شيءٍ في حضور تلك المعجزة البسيطة. وقام بما هو أفضل من التفكير، تصرَّفَ، ووسط رهبتهِ من مرأى الرب - وليسَ لأنَّ الربَّ ظهرَ في بيت الخراء متجلياً على صورةِ خواءٍ وخراء - وإنما بسبب فجأة النعمةِ الممنوحة ولأنَّ روحه، كما اعتقد، كانت مستعدةً تماماً لتلقِّي الرب، بسبب إثمٍ عظيمٍ - في حين أنَّ ذلك الإثم وحده وَضَعَه في حالةٍ من النعمة - حاولَ القسُّ أن يركع، لكنَّ ركبتيه ارتطمتا بالباب، الذي انفتحَ وعرَّضَ لضوءِ الفجرِ الواهي القلبَ المزيَّن بالخراء الذي كان يومضُ في ظلامِ بيت الخراء لكنه كان قذراً بشكلٍ مرعبٍ في ضوء النهار. عندما واجهَ هذه المعجزة الجديدة - وهي اختفاءُ الأولى - ازداد هياجَه. اندفعَ خارجاً وتسبَّبَ لمشاعره بهزَّةٍ عنيفةٍ

مزروعةٍ لكي لا يصفعَ البابَ المقدَّس. ركضَ عبرَ الحديقة الرطبة من ندى الليل. خطا فوقَ مساحةٍ ضيِّقةٍ مزروعةٍ بالتوت البري وولجَ المشيخيَّة، التي كانت تقعُ على الشارع. بعدها بثلاث دقائق كان قد وصلَ إلى ثُكنة الميليشيا. وببضع فشخاتٍ ليِّنةٍ بشكلٍ مذهل اندفعَ مُرتقياً الدرَجَ إلى مكتبِ الضابطِ وفتحَ البابَ دون أن يقرع. ثم توقفَ لاهثاً، وقال في نفسه " إنَّ الربَ يجعلني أولاً أقومُ بعملٍ صغيرٍ ذي مغزى اجتماعي".

إذا كنتُ أسردُ المغامرات الداخلية لقسٍ كاثوليكي، فلا أعتقدُ أني راضٍ لكوني أسبرُ أسرارَ آليةِ الوحي الديني. إنَّ هدفي هو الرب. إنني أسعى إليه، وبما أنه يستترُ خلفَ خليطٍ من معتقداتٍ متنوعةٍ أكثر مما يحدثُ في أي مكانٍ آخر، فإنه تبدو مهارةً مني أن أتظاهرَ بأني أحاولُ أن أقتفي أثره هنا. يعتقدُ الكهنَةُ أنهم مع الرب. فلنفرض أنهم معه، ولنرَ أنفسنا فيهم. وعلى الرغم من ورعِ القائدِ إلا أنه غضبَ لأنه قوطِعَ. ومع ذلك، نهضَ واقفاً. ورسمَ الكاهنُ إشارةَ السلامِ بيده اليمنى. قال:

" ابقَ جالساً، أيها القائد "

جعلَه انقطاعُ أنفاسهِ في الواقع يلفظُ " بق جالساً "

كان القائدُ واقفاً خلفَ مكتبِه، إلى يمينِ خزانةٍ زجاجيةٍ تحتوي العلَمَ الفرنسيَ الذي كان قماشُهُ الحريري سميكاً، ثقيلاً، وساكناً.

فكَّرَ " إذا حصلَتْ مشاكلُ سأتدثَّر بين تضاعيفه.

كانت اليدان الشاحبتان المتشابكتان تضغطان على المكتب الخشبي الذي كان جسمُهُ يميلُ عليه. كان هناك شعاعٌ من الشمسِ، متسللٌ من النافذة كنزولِ النعمةِ الإلهيةِ من السماء، يفصلُهُ عن الكاهن، الذي كان يكفي أن ينظرَ في وجهه ليفهمَ مغزى سلوك الكاهن، ويُسوِّغَ بذلك وصولَه المفاجئ. قال:

" سيدي القس... "

كان القسُ قد تناول لتوهّ صحيفةً من طرفِ كُمِّه، لكنه لم يستخدمها. وتساءلَ " هل القائدُ مُعمَّد؟ أين وثائق المعموديّة؟ ". ورأى جدول الخدمة على الجدار... " انضمّ... ".

" أيها القائد، إنَّ ما عليَّ أن أقومَ به سيكونُ مؤلماً إذا لم يكن بأمرٍ من الرب... ". سكتَ، وقد أربكتْهُ بدايةُ الجملة. لقد كان وقارُ الأمر الصادر وجلال الربِ الذي أصدره أعظم من أن يتحمّلها، ولم يكونا متلائمين مع المكان، ومع الملصقات، وأقلام الرصاص، وخرائط تحديد مواقع المدفعية ونظرَ إلى الضابط.

" كان موجوداً في بيت الخراء، على شكل خراء... "

حدّقتْ عينا الضابط الباردتان إلى جسر أنف الأب. وتسلّح الأب وهو تحتَ تأثير ذلك التحديق، الذي كان واضحاً أنه مستعد لمواجهةِ أي شيء، حتى أخطر الأسلحة، والسخرية، أقولُ تسلّح الأب بدفقةٍ من الشجاعة والأمل الجامح. وهتف " وهو ما يزال يتعرّض لرياحِ تأنيب الضمير العاتية، بصوتٍ متهدّج، ذي نبرةٍ عالية: "... إنه الله... "

كان يمكن لذاك الاسم الملتهب اليائس، الملفوظ بنبرةٍ خاصةٍ، وأصبح الآن خارجه، أن يكونَ تهديداً، مناشدةً، تضرُّعاً. خرجَ من فمِ الكاهنِ مع رذاذٍ من البُصاق عَبَرَ حقلَ النور الأشقر المتسرِّب من خلال الزجاج وأصبحَ هو الأشعة الذهبية لشمسٍ غايةٍ في الرقة ظهرَ فيها الاسم فجأةً مُمجَّداً، منفرداً، ومندمجاً بحميمية شديدة مع تلك الأشعة الرقيقة حتى إنه تناثرَ على شكل حُبيبات رَقَّشَتْ ثيابَ القائد بكوكبةٍ خفيّةٍ وربما خطِرةٍ. لمْ يُحرِّك القائدُ ساكناً وهو تحت الانقضاض. وبفضل ثباتِ عينيه، كان سيِّد

الموقف. رانتْ برهةٌ من الصمت. كان صباحَ يومٍ تموزيَ. وكان كل منهما يصونُ داخله كنزاً يُمثِّلُ قوته ويحتمي خلفَه. كان الكاهن يحملُ الربَّ معه بما أنه بَصَقَه شيئا فشيئاً كما يبصُقُ المسلول رئتيه. وكانت فرنسا، وأيضاً، ما هو أفضل من فرنسا، العَلَم الثلاثيّ الألوان ذو القماش الحريري المُزخرف والمهذّب بالذهب يُمثلان رداءً كهنوتياً رائعاً يليقان بالقائد.

قال القائد " حدِّثني عن الأمر "، ثم بعد ذلك مباشرةً قال في نفسه بجدّية " كان يمكنك أن تمسح ثقبك "

" إنه... أمرٌ بالغ الخطورة... إنه... أنا أعرفُ... اليوم، هذا الصباح بالذات... "

كان القائد قد استعاد سيطرته على نفسه. كان سيد الموقف وقد انغمسَ تماماً في تأمُّلٍ أرقى في الكارثة. ولَمْلَمَ شتات نفسِهِ، مما فَضَحَه، لأنه أجابَ بعجرفةٍ وتكبُّر:

" ماذا تقصد؟ "

تبدى الاعترافُ في نبرةِ صوتِه.

" أيها القائد، إنَّ ما أعرفه... إذا... "

" إذا ماذا؟... إذا ماذا؟ "

" أبقِ على حياةِ أولئكَ الفتية. لدي... "

" ماذا؟... "

" لديَّ برهان "

" لديكَ برهان؟ أي برهان؟ "

" سوف أُضْرِب. إنني كاهنٌ واللهُ هو مصدر قوّتي... "

ومع ذلك، بدأ الخوفُ ينتابُ القائدَ، لكنه خوفٌ من اللحظةِ وليس

من عواقب اجتماعية ورسميّة. إنَّ أي شيء يمكن توقُّع حدوثه مع رجلٍ يرتدي ملابس امرأة ورداءً أسودَ تختبئ تحته ليلاً ولا شك جيوشٌ من رجالِ الشرطةِ بأفخاذٍ عضليّةٍ، متشبّثين بشعرِ الخصيتين، بالخصيتين نفسيهما كتشبُّثهم بصخورِ جبل سييرا، ويمكن أن يخرجوا في أي لحظةٍ من تحت رداء الكهنوت ويُكبِّلوه بالأصفاد ويسلِّموه انطلاقاً من "الثُكنةِ العامة". وتغلَّبَ على هذا الخوف الأبله وقال:

" وصحيفتُكَ تلك... "

أطاحَ القسُّ بالصحيفةِ، التي كانَ قد أبرزها، إلى طاولةِ المكتبِ، ورأى القائدُ صورةً كاريكاتيريةٍ لجنديّ يضايقُ خادمة.

" إنها رؤيا... رؤيا... رؤيا... "

ما إنْ ظهرتْ الكلمةُ حتى راحتْ تتوالدُ في الرأسِ الكهنوتيّ بغزارةٍ، لم تتركْ حيّزاً لأي فكرة. ولما كان القسُّ يتعرَّضُ للتهديد من رجلٍ عسكري بدا شديد الهدوء، ولم يتوفَّر وقتٌ للقس ليُفكِّر، ولكن فجأةً وبسرعةِ البرقِ، خَطَرَ له ما يلي: " إنَّ الربَّ يكشفُ عن نفسه لي أنا مَنْ يكشِفُ عن آثامِ الآخرين ". لقد كانتْ كلمةُ كشف تعني معاً المجد ونقيضَه المباشر. وكان الربُّ يشدُّ رِحالَه ليغادر فرنسا لكنه كان بذلك ينتصرُ عليها.

" يا بُنيّ... "

مدَّ القسُّ يديه، وذراعيه، اللتين ظلّتا متوازيتين بضع لحظاتٍ، بلا حراك ومُتيبِّستين كذراعيَ دُمية. ثم رسمَ إشارةَ الصليب على صدرِه. دارَ القائدُ حولَ طاولةِ مكتبه وركعَ أمامَ القس، فباركَه هذا وغادَرَ الغرفةَ مُغمغماً:

" تماسَك. إنَّ الربَّ يحتاجُ إلى ذلك الإثم الرائع "

كانت مجموعةٌ من الميليشيا قد قمعَتْ حركةَ العصيان في السجن. لم يكُن ريتون عضواً فيها. كان من بين أولئك الذين وَقَعَ عليهم الاختيار - أو انتُقوا عشوائياً - ليُنفِّذوا حُكم الإعدام في الضحايا الثماني والعشرين. وحينَ عَلِمَ أن ثمة سفاحين سيُعدَمون، لم يتمرَّد شيءٌ داخله. على العكس، امتلأ بما يشبه الفرح. وومضتْ عيناه. ويمكننا أن نكونَ واثقين من أنه لمْ يخطُر بباله أيٌ من الأفكار التالية، لكني أحاولُ أن أشرحَ علّة فرَحِه. لقد تغذّى من بالوعةٍ، وسوفَ تبقى روحُ البالوعةِ برُمّتها فيه حتى مماته. كان يحبُ السفّاحين ويحترمُ القويّ ويحتقرُ الضعيفَ. إنَّ الجوعَ هو الذي جعلَ منه رجلَ ميليشيا، غير أنَّ الجوعَ ما كان ليكفي وحدَه لذلك. لقد عَلِمَ من رفاقٍ له كانوا قد التحقوا بالميليشيا قبله أنَّ الميليشيا يُجَنّدون من بين الرعاع. أشخاصٌ متشابهون لا يوجد بينهم أيٌّ من أولئك المربوعين الأقوياء الذين يضعون نظارات، ولا ضباط صفٍ من الجيش المُباد، ولا بيروقراطيون غائرو الصدور، وإنما فقط سفّاحون سابقون من مارسيليا وليون. كانت غايتها أن تنشر الخوفَ، والفوضى، وكانت تجسيداً لِما يرغبُهُ كلٌّ لصٍ: تلك المنظّمة، ذلك المجتمع القويّ الحُرّ، الذي لا نجدُ تمثيلَه الأمثل إلا في السجن، حيثُ كل لص - وحتى كلّ قاتل - يُقرِّظ صراحةً بدون أي سبب آخر غير قيمته كلصّ أو قاتل. إنَّ الشرطةَ تجعلُ العلاقات بين المجرمين مستحيلةً، والعصابات الكبيرةَ التي ليستْ نتاج أخيلةِ الصحفيين ورجالِ الشرطةِ سرعان ما ينفرطُ عقدها. إنَّ اللصَّ والقاتلَ لا يعرفان الصداقةَ الحميمةَ إلا في الزنزانة، حيثُ تُقَدَّر قيمتها وتُقبَل، وتُكافأ وتُشرَّف. لا يعودُ هناكَ " عالم سفليّ " ، ما عدا عالم القوّادين، الذين هم جواسيس.

اللصُ والقاتلُ وحيدان، لكن أحياناً يكونُ لديهما أصدقاءُ، ومع أنَّ الأصدقاءَ قد يدعمُ بعضهم بعضاً، فالحَذَرُ واجبٌ، وعليكَ دائماً أن تُعطي أجوبةً غامضةً: " أه، ماشي الحال "، ويجب ألاّ تُعلِن عن أعمالك، التي هي دُرَرٌ حقيقيةٌ، إلا إذا أُلقيَ القبضُ عليكَ. لكن السعادة العُظمى التي تشعرُ بها لدى معرفتك أنَّ اسمكَ مكتوبٌ تحتَ إحدى الصور، لدى اعتقادكَ أنَّ رفاقكَ يحسدونكَ على ذلكَ المجد، تدفعُ ثمنها من حرّيتك وغالباً من حياتِك، وتستنتجُ أنَّ كلّ عملٍ، كل عمليةِ سرقةٍ أو قتلٍ، سوف تكونُ تحفةً فنّيةً، لأنه من آخر هذه الأعمال جميعاً يأتي موتُكَ ومجدُكَ. المجرمُ مخلوقٌ صينيٌ، بورميٌ، يُعِدُّ جنازته طوال حياته. يعملُ لإعداد تابوته، للقيام بالصقلِ الرائع، والرسومات البارعة، وصُنعِ المصابيح والصُنج الذهبية والحمراء الدمويّة. إنه يخترعُ مواكب من الكُهّان اللاويين مُتلفّعين بأربطتهم البيضاء، ويدفع أجرَ المُحنّطين، ويُنظِّم مجدَه. وكل تحرُّكٍ هو تعبيرٌ عن جنازتنا المفرطة الطول. ومع أنَّ الشرطة تخدمُ النظامَ والميليشيا تخدمُ الفوضى، لا يمكن المقارنة بينهما اجتماعياً. وتبقى حقيقةُ أنَّ الثانية تقومُ أيضاً بعملِ الأولى. يحدثُ هذا في اللحظةِ المثالية حين يلتقي اللصُ والشرطي ويندمجان. إنهما يُحقّقان المأثَرَة التالية: يحاربان الشرطي واللص. وكذا يفعلُ الغستابو. وفي الثالث والعشرين من حزيران استُدعيَ ريتون وأحدُ أقرانه إلى مكتب الضابط. كان القائدُ جالساً على حافةِ طاولةِ الآلة الكاتبة يُدخِّنُ سيجارة. حين دخلَ الفَتَيان أدارَ صدرَه قليلاً. وصرَّ الجلدُ الجديدُ للزيّ المُعقَّد (الأحزمة، قُرابات المسدسات، والأحزمة المتصالبة، الخ)

"لقد انتقيتكما أنتما الاثنين. أتشعران أنكما أهلٌ للقيام بحملة؟"

" نعم، يا ريِّس "

" أوكيه، اشحنا مسدسيكما "

شعرَ الفَتَيَان بوجود امرأةٍ جالسة. كانت شقراء، مبتذلة، لكنَّ تبرُّجها كان نضراً ويليقُ بها تماماً. ولو لمْ تكن موجودةً هناك لعاملَ القائدُ المبتدئين بشكلٍ أفضل. من عينيها العميقتين، الصافيتين، من ابتسامتها، من كل إيماءاتها، كان يفيضُ، أو بالأحرى، يخرجُ، كانطلاقِ عبيرٍ من زهرةٍ، ذلك التويج من الحرير الأسود الذي كانت ساقاها القرمزيتان المتصالبتان داخله ميْسَمَين مُزيَّنَين بالعُقَد، وكانت أنوثة تلك الدمية القرمزية الرشيقة تنتشرُ في كافة أرجاء غرفة المكتب وأربكتْ الذُكور. ولم يكن أيٌ من الثلاثة متمالكاً نفسه. وخلَقَ ارتعاشُهم حولَ كلٍ منهم هالةً من الشهوةِ، والكبرياء، والتفاهة تشابكتْ مع هالتيّ الاثنين الآخَرَين. وتملَّكتْهم رهبةُ خشبةِ المسرح من تحديقِ الضاربةِ على الآلة الكاتبة التي لا تأتي بحركة إليهم. وأخرجَ الفَتَيان بوقارٍ مسدسيهما من جرابيهما الجلديين، وقال ريتون:

" مسدسي جاهز يا ريِّس "

" مسدسي أيضاً يا ريِّس "

" حسن، أوكيه إذن؟ "

" تمام يا ريِّس "

أجابا في وقتٍ واحد، وعلى الأثَر رفعَ بيدٍ واحدةٍ زوجاً من الأصفاد كانا موضوعَين على الطاولة وبالحركةِ السريعةِ نفسها رمى بواحدٍ إلى ريتون والآخر إلى رفيقه.

" ضعوهما في جيبيكما، وستستخدمانهما لاحقاً. حسن، كونا مستعدَّين، سأُرسلُ في طلبكما "

لما غادرا المكانَ أحدثَتْ الأصفادُ التي يحملها ريتون في يده صوتاً معدنياً كان طوال سنين يُمثِّلُ بالنسبة إليه صوتَ سوءِ الحظ، وعلى الفور تلبَّدَتْ في قلبهِ غمامةُ حزنٍ هائلة. الأصفادُ هي مُلحقاتٍ لابد منها لعمليّةِ إلقاءِ القبض. إنها رمزٌ قويٌ لها حتى إنَّ منظرهما في الأيدي المسالمةِ لبعضِ رجالِ الشرطةِ كافياً لجعلي أشعرُ، ليس بالخوفِ، وإنما، إذا جازَ التعبير، بانعكاسِ حزنٍ عميق. شعرَ ريتون برغبةٍ في الهروب. وبما أنَّ الأصفادَ مفتوحةٌ في يديه الحُرَّتَين فذلك لأنه، كما بدا، برهةً من الزمن، كان مُنعَتقاً منها. وللمرةِ الأولى يقبضُ على الضحيةِ وتُروِّع بسكّينِ المُضحّي. هذا الغموض لم يدُم. ثمة قوةٌ عظيمةٌ قَسَّتهُ. ملمسُ تلك الأداة التي في يده في حضورِ امرأة، جعلَ منه رجلاً صغيراً. وضَعَ الأصفادَ في جيبه، وقدَّمَ التحيّة، ثم غادرَ دون أن ينمَّ عن حركته ما يفضحه. كان الفتَيَان من الشجاعة بحيث لم يتوقفا بعد أن أصبحا في الخارج، لكنَّ مشية ريتون أضحَتْ أثقَلَ وقْعاً، وخُطاهُ أبطأ وأطول. وعلى الرغم من أنه كان قد تلقّى لتوهِّ رتبته، إلا أن الشارة، فوق ذلك كله، مَسَخَتْه وحولّته إلى عدو نفسه.

لقد أصبحَ ريتون الرجلَ الذي يستطيعُ أن يقومَ باعتقالاتٍ وأيضاً الرجلَ الذي لا يمكن القبضُ عليه، بما أنه هو الذي يقومُ بعمليةِ إلقاء القبض. كان ذاك الشيء الفولاذي بمثابةِ غنيمةٍ أخذتْ من العدو، تذكار انتصار. كانت يداه تقبضان على الأصفاد المستقرةٌ في جيب بنطاله القصير، وكان يمشي بخُطى ثقيلة حتى يُخفي أمرَ فرحه. وقد مَنحَته القوةُ التي بثّتها الأصفادُ فيه سلطةُ الرجالِ المسلّحين أو الأغنياء، سلطةً تنمُّ عنها دائماً تقريباً المِشية الثقيلة. والسفاحون أنفسهم يقولون " إنه شابٌ

ذو نفـوذ " أو " شـابٌ له ثِقَل ". وعند إحـدى منعطفـاتِ الرواقِ أخـرجَ رفيقُهُ أداتَه.

" دُميةٌ جميلة! فلنرَ إنْ كان ضوءُ القمر ينبعثُ منها! "

أخرجَ ريتون أصفادَه.

" أنظُر إليها، لا أكادُ أصدِّق "

تأمَّلها برهة، بدون أن يُنصِت إلى الآخر يقول:

" على مَنْ سنُطَبِّقُها ؟ ألديك فكرة؟ أرى أن ذهنك مشغول... "

نظرَ ريتون إلى أصفادِه. وكان قد أغلقَ أحدهما على أحد رسغَيه.

قـال " كم من مـرةٍ أطبِـقـوها عـلى رسـغي! الآن جـا ء دوري. أودُّ لو أطبِقها على رسغِ رجل شرطة "

" ربما يكون يهودياً. ألا تظن؟ "

الحقيـقـة هي أنَّ القضيـة كانت تـتـعلَّقُ بإلقا ءِ القبـضِ على اثنين من الوطنيين خرجـا من تحتِ الأرض فـتـرةً وجيـزةً ليـذهبـا إلى باريس لتـلقِّي التعليمات، لكنَّ ريتون لم يعلم بذلك إلا في صباحِ اليوم التالي، بعد أن تمَّ القبضُ على الرجلَين، وكان أحدهمـا شاباً في الثالثة والعشرين والآخر في الرابعة والعشرين. لقد حرماه المتعةَ العنيفةَ المُثيـرةَ التي توقَّعـها من المغامرة، وكلّ ما حصلَ عليه كان رضاً حانقاً. تمَّ القبضُ عليهما ببساطةٍ شديدةٍ في غرفـةِ فندق. وحين أُودِعَ الفَتـيَـان، عـلى الرغم من أنهـمـا كـانا فـخـورَين إذ وجدا أنَّ ضـحـيـتـيـهـمـا كـانتـا أكـبـر سناً منهـمـا، وبأسلوبِ مـخـادعـةٍ مـسـروقٍ من رجـالِ شـرطةٍ أصـيلين، أودعـا الرسـوغ الأربعـة الضخمـة، السـمرا ء، الكثـيـفـةَ الشعـر، المأوى الفولاذي الشـاحبَ اللون، ألقى الأسيران، المسلَّحـان بقوةِ الغـابات الحيّـةِ، بنسغِ نيـسـانٍ سـرمديّ،

بعنفٍ مخضوضر حُرٍ، ألقيا نظرةَ احتقارٍ سريعةً على الأصفاد حتى إنَّ الصيادين الثلاثة أحسُّوا بخجلٍ تبدّى فوراً في تنمُّرهِم. أعادَ الضابطُ مسدسه إلى جرابه ليتسنّى له مواجهتهم بثباتٍ أشدّ بإنسانيته العدائية، ليقاتلهم بلحمِهِ الحانقِ، الذي أصبحَ أكثر ارتياحاً. نظرَ إليهما بغضبٍ، وقالَ ببرود:

"يا أولاد الحرام، لا أظنكما تأملان في أن تنجوا؟ كنتُ في انتظاركما. كنا نعلمُ أنكما قادمان. أحدهم وشى بكما. ثمة جواسيسُ بينكم"

وبينما ابتسمَ الأكبرُ سناً بينهما، تجرّأ الآخرُ على القول:

"سيدي تُخطئ إذ تُهيننا وتُهين المواطنين المُخلصين. وزيادةً على ذلك، لا يحقُّ لك أن تُصدِر أحكاماً. عملك ببساطة هو عملُ رجل شرطة"

تردَّدَ الضابطُ. للوهلة الأولى رأى السجناءَ وفتية الميليشيا كرباً ليس مرسوماً وإنما منحوتاً على وجهه: كان يُفتِّشُ بعقلِه، بسرعةٍ كبيرةٍ، في عنقِ حُنجرتِه، وانتابه الرعبُ لأنه لا يعثُر على نبرةِ صوتِ قوةٍ وعنفٍ لا مثيلَ لهما، نبرةٍ لم يستخدمها أحد من قبل، صوتٍ يستنفرُ كل حيويته وكل جزءٍ من جسده، حتى يستنفره، ولا يتبقّى غيره، ويظلُّ يتقيَّأه حتى يجر معه العظامَ والعضلات، ويشحن الجسمَ كله بالحقد المُرافِق للقيء لكي يُزوِّده بالقوةِ اللازمة لمحو الوقحين. وغاصَ الضابطُ المحتارُ، الهائجُ من الغضب، داخل نفسه. استكشفَ أعماقه، لكنَّ الصوتَ لم يَغُصْ إلى عمقٍ كاف. مدَّ يدَه إلى حنجرته. كان كربُهُ مرئياً. كانت عيناه تدوران بضراوة. شعر، وهو يقدِّم تحيّة إجلالٍ سرِّيةٍ إلى الشِعر، إلى كلمة الربّ، شعوراً غامضاً بأنه ينبغي السيطرة على الرجالِ بالصوتِ وحده، لكنه راح يبحثُ، غير مدركٍ للأساليبِ العجائبية للُّغة،

عن النبرة الداحضة. بعد عشر ثوانٍ قال بهدوءٍ، بعد أن أعياه البحثُ في الأعماق واستنفده. قال بفمٍ جاف:

" سأريكما "

ابتسمَ الوطنيُّ بحزنٍ، ومن ثم جمدَتْ تعابيرُ وجهه. ولما كان عاجزاً عن أن يرمي أعداءه خارجاً ويُغلِق البابَ دونهم، اكتفى بإغلاقِ وجهه دونهم. شعر فتيا الميليشيا بالخزي والغضب نفسيهما، مما ربطهما معاً للتو والساعة بصداقةٍ وثيقة. الحقدُ المبتذل وحده يستطيعُ أن يمنحَ الصداقةَ مثل تلك القوة. وتهرَّبَ الفَتَيَان من تحديق الوطنيَين. رفعَ ريتون مسدسه، فارتجفَتْ ساقا الفتى الآخر، الأشدّ قلقاً. ولو أنَّ الوطنيَّ قامَ بحركةٍ واحدةٍ ضد أحد فتيي الميليشيا، لغامَرَ الآخرُ، المُدلَّه بالحب، بحياته لأجل صديقه. وحين أومأ القائدُ إليهما ضغطَ ريتون فوهةَ مسدسه على ظهر الوطني الأكبر سناً وقال وهو يدفعه:

" تَحرَّكْ "

ورُغماً عنه استخدمَ الصيغةَ الرسميةَ في مخاطبته. وهبطَ الرجلان المُكبَّلان درجَ الفندق وولجا سيارة. كان ريتون مصعوقاً بجمالهما. لقد كان لرجال تحت الأرض جاذبيةٌ أروعُ من تلك التي لأفراد الميليشيا من السنّ نفسها. لاشك في أنهم من معدنٍ أكثر نبلاً. إنَّ قولي هذا لا ينطوي على إطراءٍ، فأنا أعني بالنبالة مزيجاً تقليدياً معيَّناً من الخطوط الفائقة الجمالِ، وسماتٍ أخلاقية وجسدية معيَّنة. والمعدنُ الأكثرُ نبلاً هو ذاك الذي غالباً ما يُختَبَر بالنار ويحتملُها: الفولاذ. ولا يمكن للمرءِ أن يأسفَ لأنهم ليسوا مع الجانب الألماني، لأنَّ الألمانَ يصبحون أكثر جمالاً حين يكون لهم أعداءُ جميلون. لقد كنتُ أودُّ بدافعٍ من دماثةٍ ساديّةٍ لو

أنَّ رجالَ تحتِ الأرضِ يحاربون لصالح الشر. أولئك الذين رأيْتُهم كانوا جميلي الشكل وفائقي الشجاعة. في حضورهم لم يكن ريتون ولا صاحبه يفقدان شيئاً من حسنهما الشرير، لكنهما كانا يفكِّران في رجالِ الميليشيا الآخرين الذين يضعون نظاراتٍ، الضعفاء، المربوعي الأكتاف، القذرين، البدينين أو السقيمين. لقد شعرا بالحزنِ ذاته الذي شعرتُ به وأنا في سجنِ " سانته " حين رأيتُ سفَّاحين لم يكونوا جميلين ولا قُساةً، على الرغم من أني كنتُ أتحلّى بالقوةِ والشجاعةِ لأتخيَّلَ نواديَ كَنَسيَّة ورِعةٍ ملآى بالشبان الرائعين حيثُ يتمثَّلُ الإجرامُ في أجملِ الفتيان. كان فتيانُ الميليشيا نسخةً عن شباب الرايخ ؛ والوطنيون يتميَّزون بالأصالةِ ونضارتها. وعلى الرغم من أنَّ الناسَ كانوا يخشون أن يكونَ كل شيءٍ مصطنعاً ومجرَّد ادِّعاءِ خدمةِ قضيةٍ سامية، إلا أنَّ الشبانَ الرائعين، الثملين بالحرية، كانوا يعيشون في الغابات.

كانت هِبَةُ الله تلك وليدةَ اليأس. وانتفضتْ حركةُ المقاومةِ، بارزةً من بين الأجمة كبروزِ أيرٍ متوتِّر وسطَ ما يُحيطُ به من شَعْر. فرنسا كلُّها انتفضَتْ هكذا مثل ذلك الأير. فلو أنَّ البورجوازيَّ الفرنسيَّ كان جالساً على كرسيه أو مضطجعاً على أريكة، لنهضَ واقفاً لدى سماعه نشيد المارسيليز، لكنَّ ريتون كان واقفاً بالقربِ من إحدى النوافذ، ولو أنَّه كان يعتمرُ قبعةً لخَلَعَها، إلا أنه كان مكشوفَ الرأس. واحتراماً لفرنسا رفعَ عن أنفهِ، بحركةٍ رائعةٍ من ذراعهِ اليُمنى مثلما يستلُّ سيفاً من غمدهِ، نظَّارته الصَدَفيَّة ذات الصدغين العريضين، وحملها إلى صدرهِ حتى نهايةِ النشيدِ الوطنيِّ، الذي كان يُعْزَفُ على التلالِ عند الغسق. كان نشيدُ المارسيليز يتصاعدُ من الغابات:

" لن تفلت مني! "

هكذا أجابَ الوطنيّ الشاب على ركلةٍ من ريتون، الذي شَعَرَ بالذُلّ من كل ذلك الضياء.

" سوف أردُّها إليك في قصبةِ ساقك. وهذا سيضعُ صاحبك في مكانه المناسب! "

لما كانت عمليةُ إلقاء القبض قد تمّتْ في الصباح، شعرَ ريتون وكأنّ نهارَه كله قد تضرَّرَ بفعل ذلك الإحساس بالعار، وهذا لا يعني أنه فكّرَ فيه، أو أنه كان في إمكانه أن يُحلِّلَ بعنايةٍ أسباب حزنه، لكنه شَعَرَ بتشوُّش ذهنه. لم يهدأ اضطرابه إلا في وقتٍ لاحقٍ من ذلك المساء، حين قابلَ إريك في البوليفار. وعلى الرغم من أنّ مجموعةَ الميليشيا كانت تشكِّلُ اتحاداً مُذهلاً من السفّاحين، الذين كانوا دائماً تقريباً جبناء ومنغمسين في عملياتِ النهب (لأنّ معاشهم الشهري البالغ ثمانية آلاف فرنك لم يكن يُعتَبَر إلّا جزءاً من الغنيمة)، إلا أنها كانت تُعتَبَر من رجال الشرطة، بما أنها كانت تقومُ بالاعتقالات، وكانت دائماً على وِفاقٍ مع نظامٍ اجتماعي معيّن، ولكن ليس دون مقابل. ولم يكن في وسعها أن تُنفِّذ المَهام البوليسية إلا بإفراطٍ، بكلّ الإفراطات التي تُضخِّمُ من كيانها. وعندما ثَملَتْ أخيراً بإثارةِ كونها قوة شرطة، راحتْ تعملُ كالسكرى. وحاولتْ، تحت ستارِ الشرعيةِ والاستقامة، أن تُخفي في أول الأمر عمليات نهبها وقتلها، لكنّ متعةَ كونها قادرةً على أن تسرقَ دون تعرُّضها للخطر جعلَ الأمرَ مُثيراً للسخرية. إلا أن أفرادَ الميليشيا ظلوا مبتعدين عن السفّاحين الذين ظلوا أنقياء وفوضويين حتى نقيّ عظامهم. والميليشيا كلها حسِبَتْ أنها مستعدة لخيانةِ مَنْ خَدَمتهم. وسوف نرى أنها، وإلى حدٍ معيَّن، لم تكن قادرةً على ذلك.

عُيِّنَتْ مجموعةُ إطلاق النار لتنفيذ حُكم إعدام الضحايا الثمانية والعشرين. خمسة وثلاثون رجلاً. وكنتُ قد ألمحتُ إلى الفرحِ الذي شَعَرَ به ريتون عندما عَلِمَ أنه اختيرَ للتنفيذ. كان في غرفته بالثُكنة عندما أبلغه الرقيبُ وبقية المجموعة بهذه الكلمات:

" سوفَ تكونُ بين مجموعة إطلاق النار "

شَحَبَ قليلاً لونُ ريتون. لكنَّه أحسَّ على الفور أنَّ العيونَ كلها تراقبه. استنهضَهُ كبرياؤه، جعله ينتَصِب في وِقفَته. اهتزَّ جسمُهُ في الحال، حتى خُصلة شعره المموَّجَة التي تغطي عينيه. أَجابَ باقتضابٍ فظٍ أكثرَ مما هو حازم " حاضر يا ريِّس "، وظلَّ واقفاً جامداً، مع نظرةٍ ثابتة.

" نظِّفْ بندقيتك. سيوقظك العريف عند الثالثة صباحاً "

هذا التفصيل أفزَعَه، لكنه لم يُظْهِر أي انفعال. وكرَّرَ القول:

" حاضر يا ريِّس "

انطلَقَ الرقيبُ ليُبلِّغ الآخرين. واقتربَ رفيقا منامة ريتون منه وكانا أيضاً قد اختيرا بدورهما. لم يكونا صديقين له، ولكن في تلك اللحظة تولَّدَ بينهم ما يشبه اشتراكهم في القتل. وقامَ الفتيانُ الثلاثة بالإيماءات العَرَضيّة نفسها، لكنَّ عيونهم كانت تومضُ. وأدلى أحدهم بالتعليق الأول:

" الثالثة صباحاً. يا له من فجرٍ قذر! غداً يومُ أحد "

هزَّتْ ارتعاشةُ كتفيّ ريتون وكانتْ تعني: " حظٌ سيئ ؛ إنه القَدَر "

واحدٌ فقط في الغرفة غمغمَ:

" يا لها من مهمَّة... "

لكنَّ صوتَه سرعانَ ما انخفض:

" وماذا في هذا. إنه عملُنا "

" هذا هو سببُ وجودنا هنا "

" ولأجل هذا يدفعونَ لنا "

وقال صوتٌ:

" ليسَ هذا هو المهمّ. فقبل أي شيء إنهم سفّاحون "

" وماذا في ذلك؟ مَنْ يهتم! "

لم يجرؤ على القول " هذا أفضل " لكنَّهم جميعاً كانوا يرغبون في أن يروا في هذا العمل النشاطَ الأخير الذي يجتمعون لتنفيذه. لقد كان يُمثِّلُ ذروةَ حياتهم كرجالِ ميليشيا، العملَ الذي يوصلهم إلى الكمال، بما أنه جعلَهُم في التو واللحظة، ودون أن يتعرَّضوا للخطر، قَتَلَةً، خَوَنَةً، ورجالَ شرطة. لا شك في أن قتل بورجوازي كان سيفتنهم، لأنه كان سيعني بلا شك القتلَ ليُصبحَ المرءُ صلباً. كانوا سيتعرَّفون إلى متعةِ الانتقامِ، ولكن ربما مع قدْرٍ من الشعورِ بالرعبِ من ذلك الكمِّ الهائلِ من المساعدة. وبعد أن أنهوا تنظيفَ بنادقهم، سرعان ما أدركوا أنه يمكنُ للقسوةِ المروِّعة أن تُلغي أقلَّ ندمٍ، وأفدحَ النقائص.

وثمة فكرةٌ: " هل سيُصوِّبون إلى البطن أم إلى الطيز "

الضحكُ المكبوتُ الذي تبعَ ذلك جعلَ جوَّ القسوةِ يُخيِّمُ على الغرفة. نابٌ، وعينٌ، وضحكٌ مكبوتٌ، وعلى الفور أدركوا مغزى الأمر.

أجابَ أحدهُم وهو يضحك:

" إنَّ المرءَ ليفضِّل أن يخرقَ بها طيزهم، هه، يا ابن الحرام؟ "

" سوف أُصوِّبُ إلى القلب "

" وأنا سأُصوِّب بين العينين. سوف تَضرِبُ الرصاصةُ العظام وترتدُّ "

ضحكوا. كانوا يتنافسون في الوحشيّة، يتمرَّغونَ في القتل؛ وسيقانهم، وأفخاذهم، وأيديهم مُلطَّخة بالدم.

أعلنَ ريتون، وهو ينظرُ إلى سلاحه الفولاذي اللمّاع:

" الحقيقة هي أنه عندما يتعلّقُ الأمرُ بالعنفِ، فنحنُ لا نعرف الشيء الكثير "

وتابعَ وقد استدارَ نحو رِفاقه، مبتسماً، ولكن بعينين رصينتين:

" ألستُ على حقّ، أيها العنيفون الضِخام؟ "

كان يملؤه فرحٌ شديدٌ لكونِه مفوّض القسوة العنيدة لكلٍّ مَنْ في غرفةِ الثُكنة. وقال أحدُ فتيان الميليشيا، وكان يهمُّ بمغادرةِ المكانِ مع صديق:

" هذا التصرُّف ليس ثورياً "

* * *

عند انبلاجِ الفجرِ، يوم الأحد، في السابع عشر من تموز، استيقظ نزلاء السجن جميعاً على صوتِ انفجارٍ مفاجئ اختُتِمَ بسبعِ طلقات نارية، ثم سُمِعَتْ ثلاثُ طلقاتٍ أُخَر. تمَّ الترحيبُ بالفجر. وانهارَ ثمانيةٌ وعشرون فتى يتخبَّطون في دمهم عند أسفل الجدار الخارجي. وفي الزنزانة حيثُ كانَ وحيداً، تلقّى بيبيرو برهاناً على بهائه. لقد اتّخذَ غريزياً أشدَّ المواقفِ الأخلاقيةِ ليونةً، مما مكّنَهُ من امتصاص الضربات القوية.

" لا تتوتّر "

" يجب ألاّ تتوتّر "

ورغماً عنه اتّخذَ قناعُهُ شخصية مأساوية: حملقتْ عيناه في الفجر، وانفرجَ فمهُ، وانقضبتْ شفتاه حولَ وضع O، لكنه سرعانَ ما أرخى عضلات وجهه قليلاً بهزّةٍ من رأسه، ومرَّرَ لسانَه على شفتيه، وتثاءبَ، وتمطّى.

" ينبغي أن تكونَ طبيعياً. الوضعُ طبيعي جداً. ثم إنَّ هذا يعني أنهم لم يكونوا ينوونَ أن يعيشوا بعد سن العشرين. مثل هذا الحماس

يتطلَّبُ إرادةً لا يمكنُ أن تنبع إلا من الحب، من الشَغَف. ولكن إذا كنتُ أُفشي أمرَ هذا الشغف بنبذِ الخير، فلأني أرتبطُ به بولَهٍ. وإذا كان الشيطان هو الذي يُثيرُ هذا الشغَف، فذلكَ لأنه هو ذاته خير، بما أنَّ الإنسانَ لا يمكنه أن يُحبَّ إلا ما هو خيِّر، أي، حي.

" ثم إنَّ هذا يعني أنك خُلِقتَ لتعيشَ فقط حتى سن العشرين. إنني أخاطبُكَ أنتَ يا جان لأنكَ تفهمني. علينا، نحن الاثنين، ألاَّ نغضب، فلن يُجدينا ذلك نفعاً. فلنبقَ هادئين. ويجب أن تستغلّ ذلك أفضل استغلال... "

لقد كانَ التفكيرُ فيهم غير كاف. هذه الكلمات، لو ظلَّتْ ذهنيّةً، لبقيَتْ مفرطةً في نبلها. كان لابدَّ لي أن أتفوَّه بها. كنتُ أميلُ على وجهه، ومرفقاي على التابوت وقدماي وساقاي تضغطُ على الأزهار. في حضور الأزهار حصل لديَّ انتصابٌ، وخجلتُ، لكني شعرتُ أني لا أستطيعُ أن أقاومُ تصلُّبَ الجثة إلا بتصلُّب أيري. كان لديَّ انتصابٌ ولم أشتهِ أحداً. وأجبتُ نفسي " أيري مُتعَب ".

إنَّ موتَ جان يكشفُ لي عن مغزى الجنازات العظيمة التي تُقيمها الدُوَلُ لأبطالها. إنَّ أسى شعب فَقَدَ الرجلَ الذي أسرَ انتباهه يجعلُه ينغمسُ في أغربِ الأخيلة: أعلامٌ تُرفَع حتى منتصف السواري، وخُطَبٌ، وبرامجُ إذاعية، وشوارع تُسمَّى باسمه. بتلك الجنازة تعرَّفتْ عائلةُ جان على التباهي، والأُبَّهةِ الفخمة، وأُغدِقَ على الأمِ شعارُ النبالةِ طُرِّزَ عليه حرف " د " كبير باللون الفضي. سمعتُ وسطَ الظلام، وعينايَ مغمضتان، صدى - أو بالأحرى، استطالة - عويلٍ أو نداء بعيد جداً، كان صادراً من داخلي إلا أنَّ له نبرةَ صوتٍ عاليةٍ تُذكِّرُ بالنداءات

المطوطة لزوجـات المزارعين وهنَّ في البـريَّة، نداءات تُسـمَعُ في وقتٍ متـأخِّر من بعـد الظَهيرة فـي الخريف من خلف أكـمةِ شوكٍ، بالقربِ من مسـتنقع، صـادرةٍ عن فتـاةٍ صغـيرةٍ تلكَّأتْ مع قطيـعـهـا من الإوز وهي ذاهبةٌ لتُحضِرَ طعامَ إفطارها. ما سمعته كان نداءً مشابهاً، وبدا لي في لا واقـعيَّته الماديّة وواقـعيـتـه الإنسانيـة أشبه بالصور التي تُفلتُ من بؤبؤ العين حين يكون الإنسانُ شديدَ الإرهاق فتـولِّدُ مـشـهـداً رائعاً حقاً. كان حقـاً يتعـفَّنُ بين الورد، لـكنه بدا أنه يفـهمُ الوضعَ فـهماً جـيداً. وصَمْتُ وجهه الشـاحب والضيِّق بحدٍّ ذاته كان صمتـاً ذكياً. كان من الواضح أنه عرفَ أنَّ البكاءَ والدموعَ سوف تُغرقني في دوامات مأساويّة هائلة، في متـاهات عـقليـة لن أتمكَّنَ من التـخلُّص منها. سوف أغرق. كـان موقـفه ينصحني بالحذر، بألاَّ أثق كثيراً في الدراما. ولحسن الحظ أنَّ ثمة أفكاراً معـيَّنة لا تُقالُ جهاراً، وحين لا تُصاغُ في أعمـاقك بكلمات شديدةِ الدقَّة، فإنَّ قسـاوة هذه الأفكار تغدو مخيفةً: كمْ مِنْ ميتةٍ اشتهيتُ! إنني أحملُ في داخلي مـدفـنـاً لعلَّ الـشـعـرَ مـسـؤول عنه. وكـمْ من قلوبٍ منهـوشـة، ورقـابٍ مطعـونةٍ ومذبوحة، وصدورٍ مشـقوقةٍ، كمْ من أكـاذيـب، وأسلحةٍ مسمومة، وقُبَلٍ! إنني مندهشٌ من نورِ النهار، مندهشٌ من لعبتي القاسية والسخـيفة. قـيل لي إنَّ الضـابطَ الألماني الذي كـان مـسؤولاً عن مذبحة أورادور له وجهٌ لطيف، بل ومحبَّب. لقد بذل أقصى ما في وسعه - وكان كـثيـراً - لأجل الشـعـر. وقـد اسـتـحقَّ أن ينالَ الأفـضل في المقـابل. إن مـيتـاتي لا تجـرؤ على التـعبـير عـن وحشـتي. إنني أُحبُّ ذلك الضـابط وأحترمه. كان جان ينصتُ إليَّ:

"... أنتَ في العشرين، وهذا أمرٌ لا بأسَ به. صدِّقني، ما كـانَ في اسـتطاعـتك (ورقَّـقْتُ من صـوتي لأتجنَّبَ النبـرةَ الخطابيّـة للتكرار) أن

تتجاوز سن العشرين . أما أنا، فسوفَ أُتابعُ طريقي. سوفَ يُعِدون كل شيء لأجلك، وسيغلقون التابوت عليك، وستحظى بقبرٍ جميل... "

على الرغم من جهودي، ظلَّ وجهي جامداً. وددتُ لو أبتسم قليلاً، لكني لم أستطع. ومع ذلك، كان لتلك المحادثة، التي تمَّتْ بنبرةِ صوتٍ مألوفةٍ، وسخيفةٍ قليلاً، الأثرُ العظيمُ في تهدئة غُلُواء معاناتي. عندما أُفكِّرُ في المعاناة التي أمرُّ بها، أجدُ أنه إذا كان سببها هو تلاشي صداقة جان، فهل يجب أن يُقالَ إن سببَ نشوء صداقتي، التي أكادُ أقولُ إنها فسَدَتْ، قد كشَفَتْ عنه ومجَّدته هذه الميتة؟ كدتُ قد بدأتُ أتعوَّدُ بالتدريج على القوة والدفء الداخلي المواسي لتلك الصداقة، فهل أنا أشعرُ بذلك الألم ربما لأني لم أعُد أتلقَّى إشعاعها؟ هل كانت حساسيتي المفرطة قادرة على أن تُدرك أن جسداً أثيرياً قد مات؟ كيف لي أن أعرفَ إنْ كان هو الولادةُ داخلَ ضياء صداقتي أم هو الموتُ داخلَ ضياء صداقته لي؟ أودُّ لو أنغمسُ في أقلِّ عددٍ من الكلمات، لكني أتركُ نفسي أظنُّ أنه لعلَّ تلكَ الصداقة تتغذى على الحب المجنون، العنيف، المُهلِك (صداقةٌ مُشبِعة... حبٌّ مُهلِك) الذي كنزته لجان قبل سنوات. وشعوري الحالي لا يمكن قياسه إلا بعنفِ ألمي وأنا أُدوِّن صداقتي (وقوتها) في الوقت نفسه الذي يفرُّ مني (وهي الكلمةُ الدقيقة) الشخصُ الذي أحسُّها تجاهه، وأظنُّ صادقاً أنَّ حبي سبَّبَ لي في الماضي الآلام ذاتها عندما شعرتُ أنَّ جان قد غابَ عن الأبصار أو باتَ بعيداً جداً لأنَّ قلبَه كان لا مبالياً. وأصبحتْ مغامرةُ موتُ جان أمراً طبيعياً.

اقتربَ مني بوأبُ المدرج، ووضعَ يده على كتفي وقال " يجب ألاّ تبقى هنا، يا سيدي. أنت هنا منذ ربع ساعة. كُنْ عاقلاً "

قلت حسناً، دون أن أنظر إليه. حرَّرَ كتفي وأضافَ " الجثةُ دافئةٌ. سينزلونه إلى البرَّاد "

ملتُ فوقَ الجبين الذي كان قد بدأ يتحوَّلُ إلى الاخضرار، وقبَّلتُهُ، وهمستُ وما أزالُ أميلُ عليه.

" نعم، سترتاحُ أكثر في البراد. كفى تذمُّراً، واصبرْ قليلاً. الوداع يا عزيزي "

قلتُ في نفسي، لا شك في أنَّ البراد ابتكارٌ شديدُ النظافة وتتوفَّرُ فيه الشروط الصحّية، وبما أنَّ جسدَ جان لم يعد الآن أكثرَ من جثة، فمن الأفضل أن تُحفَظ هناك. ومع ذلك فسوف يُنجَز مصيره كإنسانٍ ميتٍ بعدَ أن يُردَم قبره. لذا يجب أن يُدفَنَ في أسرع وقت.

بعد أن غادرتُ المدرَّجَ حاولتُ جاهداً أن أُحافظَ في داخلي على نبرةِ محادثتي مع جان، ولكن على الرغم من نجاحي في استحضار بضع ذكريات معقولة شعرتُ أنَّ القدرةَ الخارجية الهشّة تتهدَّدها موجةٌ رهيبةٌ من الأسى. لا أحد. لا شيء كان يمكن أن يمنعَ إقامةَ حفلِ التكريم في تلك الأمسية. الوليمةُ الرقيقةُ والسرِّيةُ التي كنتُ سأجلسُ فيها وحدي حولَ الجثة. الغرفةُ الخلفية كانت تصلحُ لذلك. لم تعُد المرايا، والزخارف الذهبية والجسديّة، ضرورية. الأضاحي المفضَّلة لدى الله تُقدَّم على مذبحٍ بديلٍ مؤقَّت. سوف أفكُّ، بدون احترام، القماشَ الأبيضَ الملطَّخ بالدمِ عن الجسدِ المُسجَّى على طاولةِ خشبِ الصنوبر. أولاً ملاءة، ثم قميصٌ طويلٌ أبيض من الفانيلا. الجسدُ والقماشُ متجمِّدان، فقد خرجا لتوِّهما من البراد. كان هناك ثلاثة ثقوبٍ في الصدر. لم أتعرَّف إلى الجسد. أخرجتُ الذراعَين المتيبِّسَين من الكُمَّين. نزعتُ الدبابيس الموجودة في أسفل

القميصِ مما جعله أشبه بالحقيبة. بدت قدماه وساقاه وفخذاه وبطنُ جان العارية، متجمِّدة. أي خبز قدَّمتْهُ إليٌّ الوليمة؟ في ذاكرتي أيرُ جان، يُفرِغُ بهدوءٍ شديد. يتَّخذُ أبعادَ وأحياناً المظهرَ الجليلَ لشجرةِ تفاح مُزهرةٍ في نيسان. حتى عندما يأكلُ المرءُ أصدقاءه يكونُ عليه أن يطبخهم، أن يضرمَ النار، ويُعِدُّ القدور. مرَّ وقتٌ طويلٌ قبل أن أجلسَ على المائدة وبيدي شوكةٌ. مثلما فعلَ ريتون وهو يأكلُ القط. والآن ها أنتَ مجرَّد غصنٍ ذي أشواك يمزِّقُ تحديقي. ماذا كان في وسعي أن أفعل بالغصن الشائك الذي أصبحتُهُ طوال يومٍ كامل؟ في الماضي كنتُ أُداعبُ وجنتيكَ الرقيقتين به حتى تدميا. كانت نتوءاته تشتبكُ ببشرتكَ وشعركَ، وتُمزِّقُ أنفاسَك وربما كان الغصنُ الشائكُ يَعلَقُ بها. اليوم لا أجرؤ على لمسك. جمودك يخدشُ الفراغَ. تلك الأوراق اليابسة المصقولة لونُها بلون الضغينة. يجب أن أرتدي قفازي لكي أضعكَ في برميل القمامة. لأنكَ أنتَ ذاتكَ كنتَ، بضع دقائق، برميلَ قمامة موضوعاً على حافة الطريقِ، مملوءاً بأكوام الزبالة، من زجاجاتٍ مكسورةٍ وقشورِ بيض، وكِسَرٍ من الخبز الرطب، ونبيذٍ، ومُشاطة الشعر، وعظامٍ تدلُّ على الوليمةِ المُقامةِ في الطابق العُلوي، فوقَ قِمم الكرّاث. وعلى حافة برميلِ القمامة، وحتى أسفله وسطَ الرماد المنثور، تدفَّقَت فوضى عنيفةٌ من أزهارِ الأقحوان الذابلةِ، إحداها بَقَّعَ، مزَّقَ، وجَرَحَ جانبَ برميلِ القمامةِ المميَّز، زيَّنَهُ بأسلوبٍ فخيم. بيديَّ الورعتين نثَرتُ رِقَّتي، ومهابتي. تركتهما ترتاحان بدلَ أن أُحُطَّهما حطّاً، كنقابِ شقراءٍ أو سمراءٍ، ومخافةَ أن تذروهما الريحُ حفظتُهما، بإيماءاتٍ مرهَفَةٍ رشيقةٍ لخادمِ غرفةِ ملابسِ نجمٍ سينمائي، في مكانٍ قِوامُهُ أكاليلُ الأزاهير والغار. وضعتُ قدمي وبعض الكتلِ

الضخمة من الحجارة، التي أتتْ ركضاً عندما ناديتها، على الحوافِ الممزقة لهذه النُقُب. بعد أن زُيِّنَ وعاءُ الرماد اكتسبَ سحرَ شمعداناتِ غرفةِ جلوسٍ محميّةٍ ضد الذباب بقماشةٍ من الموسلين عُقِدَتْ عن أسفلها، أو سحر وجهٍ من خلفِ نقابٍ، أو سحر أيرٍ مريض متلفِّع بأربطةِ ضمادٍ، أو كِسرةِ خبزٍ يُغطّيها نسيجُ عنكبوتٍ وغبارٌ. لكنَّ الأمرَ لم يكن يخلو من خطرِ أن أُدخِلَ مثلَ هذه الشُحنةِ العاطفيةِ إلى ذلك الوعاءِ المعدني الذي حولّتْهُ حماستي إلى آلةٍ جهنّميةٍ. وانفجرَ. إنَّ الشمسَ النارية الأجملَ، التي غذَّتها روحُ جان، رشَّتْ رذاذاً من الزجاجِ، والشَعر، والجُدُع، والقشور، والريش، وقطع اللحم المنخور، والأزهارِ الشاحبة، وقشورِ بيضٍ رقيقةٍ. ومع ذلك ففي لمح البصر أصبح كل شيء يسودُهُ نظامٌ أرضيٌّ، ما عدا أني تُرِكتُ وسط ذاك النوع من الانقباض الذي يتبَع فِعْل الحب، حزن فادح، وشعرتُ كأني غريبٌ وأنا في وطني. إنني خارجٌ من حُلم لا أستطيع أن أحكيه. حلمٌ لا يمكن أن يُسجَّل. هو يتدفّق، وكل صورةٍ من صُوَرِه تتحوَّل باستمرار بما أنها موجودةٌ في الزمان وليسَ في الفضاء. ومن ثم، النسيان، والفوضى... وعندما استيقظتُ أدركتُ أني أخرجُ من حُلمٍ قُمتُ فيه بعملٍ شريرٍ (لا أدري بأي فعل: أهو جريمةُ قتلٍ، أم سرقة؟) لكنني قمتُ بعملٍ شريرٍ وانتابني شعورٌ بأني أعرفُ أعماقَ الحياة، وكأنَّ للحياة سطحاً عليه ننزلقُ (نحن الطيّبين) وسماكةً لا يمكن اختراقها إلا نادراً، أندرُ مما يُظَنُّ (وأذكرُ على الفور أنَّ الحُلمَ كان على وشك أن يبقى حبيساً). أظنُّ أن رفضَ العالم هذا للعالم يمكن أن يُنتِج حنواً إنسانياً أو كبرياءً، يمكنُ أن يُلزِمَ المرءَ بالبحثِ عن مبادئ جديدة للسلوكِ، وأظنُّ أن هذا الكونَ الجديدَ يمنحني القُدرةَ على أن أرى العالمَ

الآخرَ . ومن الصعب أن أفسِّر لماذا يسيرُ موكبُ جنازة كل ملوك الأرض عبرَ باحةِ ذلك السجن. ولكن ليس هذا هو وقت الغموض. في الواقع، إنَّ كل مَلِكْ، كل مَلَكَة، كل أميـر ملكيّ، كل منهم كـان يرتدي رداءً ملكياً بذيلٍ طويلٍ من المخمل الأسود مع تيجانٍ ذهبيةٍ مُغلقةٍ وأغلبهم يضعُ قِماشةَ الكريب، وهم في حالةِ حِدادٍ على كل المُلوك الآخرين. إنَّ كل ملوكِ العالمِ تقريباً - والمقصودُ بهم ملوك أوروبا - كانوا قد مرُّوا بالخادمةِ عندما رأتْ عربةً مذهَّبةً تجُرُّها أحصنةٌ بيضاءُ مُجلَّلةٌ بالسوادِ تقتربُ منها. كانت تستقلُّها ملكةٌ، وصولجانٌ في يدِها ويدُها في حجرها. كانت ميِّتة. وثمة ملكة أخرى، وجهها مُحجَّبٌ، تتبعُها مباشرةً، لم يكن في الإمكانِ تمييزهم. كان يمكن التكهُّن بأنهم ملوكٌ، وملكاتٌ، وأمراءُ من تيجانهم ومن التَخَشُّب الخَجِل لمشيتهم. وعلى الرغم من الفخامة والانعزالِ القسري اللذين تتطلَّبهما الحياةُ منهم فإنَّ أولئك الملوك بدوا وثيقي الصِلَة بالخادمة التي راحتْ تراقبهم يمرُّون بها أرتالاً. كانت مذهولةً لكنَّ الخوفَ وصدمةَ التعجُّب غادراها حتى كأنها كانتْ تراقبُ سرباً من الإوز يقودهُ ذكَره. لقد كان الموكبُ يوحي بحقّ بالثراء. كان هناك فيضٌ من مجوهرات الحِداد، مع أنه لم تكن هناك أي أزهار أو أوراقٍ خضراء، فيما عدا ما استُخدِمَ كزينةٍ فضيّةٍ أو سوداء. ملكَةُ إسبانيا، التي كان يمكنُ تمييزها من مروحتها، بَكَتْ بدموعٍ حَرَّة. وملكُ رومانيا كان هزيلاً، حتى كادَ يخلو من أي لحم، وشاحباً. وكان أمراءُ ألمانيا كلهم يتبعونه. وكان كلُّ فردٍ من الموكب وحيداً، مأسوراً داخلَ معْقلٍ من العُزلةِ لا يَرى منه إلا نفسَه والبهاءَ الفريدَ، ليسَ لمسيرٍ ما، وإنما لذيلِ المصيرِ الذي كان ما يزالُ يعيشُه. وقد سَمَحتْ عزلتُهم ولا

مبالاتهم للخادمةِ أن تكونَ سيّدةَ نفسها في حضورِ تلك الشخصيات البارزة المتعالية. راقَبَتْهم بالطريقة التي كان يراقبُ بها مُستخدمُها مِنْ على الشُرفة مواكب الزواج التي تمرُّ به في أيام السبت.

ها أنا ذا وحيدٌ فجأةً لأنَّ السماءَ زرقاءُ، والأشجارَ خضراءُ، والشارعَ هادئُ، ولأنَّ ثمةَ كلباً، وحيداً مثلي، يسيرُ أمامي. إنني أتنقَّلُ ببطءٍ ولكن بخُطى ثابتة. أظنُّ أنَّ الوقتَ ليل. المناظرُ التي أكتشِفُها، المنازل التي عُلِّقَتْ عليها الإعلانات، والمُلصَقات، وواجهاتُ المحلات التي أمرُّ بها كمَلِكٍ، هي من المادةِ نفسها لشخصياتِ كتابِ الرؤى هذا التي اكتشفتُها بينما فمي ولساني منشغلان في الشَعرِ والعينِ البرونزية، رؤى أظُنني ميَّزتُ فيها عودةَ حب طفولتي للأنفاق. إنني ألوطُ العالم.

* * *

عند ارتكابِ جريمة القتل الثانية كان ريتون أكثر هدوءاً. ظنَّ أنه بدأ يتعوَّدُ على الأمرِ، في حينَ أنها كانت قد سبَّبَتْ لتوِّها أعظمَ الأذى. وكان لتوِّه قد تبلَّدَ اتجاه الألم وتبلَّدَ هكذا ببساطةٍ تامةٍ، بما أنه كان عندها قد قتَلَ صورتَه هو.

* * *

قبلَ أن يُعَيَّنَ إريك في باريس أمضى بضعة أسابيعَ في قصرٍ في اللواريه كان يشغلُهُ مع خمسةِ رجالٍ من سرِّيته. كانوا خمسةً من الشبان الألمان. وكان المكان وما حواه مُغلَقاً دائماً. ولم يكن أحدٌ يرعى شؤونهم. كان الجنودُ يتناولون وجبات غدائهم وعشائهم في مطعمٍ في البلدة، التي تبعُد مسافةَ نصف ميل. كانوا يأكلون ثم يعودون إلى القصر حيثُ أُقيمَ مخفرٌ للمراقبة. وفوضى تلك الحياة كلها، التي كان يمكن أن تكونَ

هادئةً، في قلبِ ضيعةٍ في فرنسا، أحدَثَهَا إريك، أجملُ الخمسةِ وأشجعهم، وكان أشبه بمندوبِ الشيطان بيننا. كان القصرُ يغفو أثناء النهار ويعودُ إلى الحياة ليلاً. وأصبحتْ العلاقةُ القائمةُ بين الشُبان غريبة. كانوا يدخلون ويخرجون من غُرَفِ الجلوس، والمكتبة، والعلّية، وصعوداً ونزولاً على الدَرَج في نظامٍ متناغمٍ مع آليّة الحب، والرسميات، والأحقادِ التي كانتْ حتى أشدُّ تعقيداً من تلك التي تتحكّمُ، وتربطُ، وتُباعدُ ما بينَ القصور. وكان شبابهم، وجمالهم، وعزلتُهم، وحياتهم الليلية، وصرامةُ أنظمتهم، وحيويتهم، تشحنُ القصرَ بعنفٍ نجحَ في جعلِ الناسِ يعتقدون أنه مكانٌ ملعون. وعلى إحدى النوافذ، على أفخمها، رفرَفَ العلمُ الأحمرُ ذو الصليب المعقوف. كانت صورةُ هتلر مُلصَقةً على مرآةٍ في غرفةِ الجلوسِ الرئيسية. وكانت صورةُ غورينغ، المُلصَقَة على الجدارِ المقابلِ، تُحدِّقُ إليها. وذلكَ الحضورُ المزدوَج تداخلَ مع علاقات الحب وأغضبَهَا. وعندما كان الجنودُ يخرجونَ في المساء لملاقاةِ أصدقائهم في البلدةِ كانوا يسكرون، ولدى عودتهم إلى القصر كانت المرايا الموجودة في البهو تعكسُ صوراً رائعةً لمحاربين متورِّدين بتأثير الخمر. في الأمسيةِ الأولى نظرَ إريك، الثمِلُ من الخمر، الثملُ بحضورِ ذاته، نظرَ إلى نفسِه وهو في البهو باستغراب. كانت المَصابيحُ السبعة للشمعدان وأنوارُ الجدران الأربعة مُضاءةً. وكان إريك الأسود من تحتِ شعرِه وبذلته الرسميةِ كسائقِ دبابة، واقفاً، وحيداً، جامداً، وسطَ نارِ فحمٍ حيٍّ كانت هي مركزَ الليل. خطا قليلاً إلى الخلف. ابتعدتْ صورتُهُ المُنعكسةُ في المرآة عنه قليلاً. مدَّ يده ليُقرِّبها منه، لكنَّ يدَه لمْ تجد شيئاً. شَعَرَ، على الرغم من سُكرِهِ، أنَّ كل ما عليه أن يفعله هو أن يخطو إلى الأمام

ليجعلَ صورتَه المعكوسة تتقدّمُ منه، لكنه شعَرَ أيضاً أنَّ عليها، بما أنها ليستْ غير صورةٍ، أن ترضخَ لرغباتِه. ونفدَ صبرُه. أصبحَ وجهه الأحمرُ المنعكس في المرآة مأساوياً وشديدَ الوسامةِ حتى شكَّ إريك في أنه وجهه هو. في الوقت نفسه كان في حاجةٍ إلى أن يُهيمِن على ذاكَ الذكَرِ، ذكَرٌ في مثل قوّتِه وصلابتِه. وعملَ جاهداً كي يفعل ذلك وخطا إلى الخلف. وخَطَتْ الصورةُ عائدة. وتكوَّنَتْ في حنجرتِه صرخةُ غضبٍ أجشّة خرساء تردَّدَ صداها في الأروقة وفي غرفة الجلوسِ الخاليةِ. وشمخَ الوحشُ الظاهرُ في المرآةِ برأسِه، ومالتْ معه القُبَّعةُ المنهوبةُ، وانتثرتْ الخُصلُ الشقراءُ عبْرَ الوجه، الذي تراخى فكُّهُ الأسفل. ارتعشَ إريك. وبشمالةٍ تساعده على الانهيار كان قيْدَ شعرةٍ من أن يفقدَ عقلَه من فرط جماله. وآلياً، أي، بطريقةٍ أشدّ ثقة ومهارة مما لو أنها كانتْ حركةً مُدبَّرةً بوضوحٍ، اتَّخذَ وقفَةً ثابتةً، وذلك بشدٍّ إحدى ساقيه التي شَدتْ بدورها القماشَ الأسودَ للبنطالِ، ودفعَتْ يدُهُ اليسرى إلى الخلف خُصلات الشَعر فوقَ الصدغِ الأيسر، وأخذتْ يدُهُ اليمنى، تميلُ، ترتاحُ، على جِرابِ المسدس الجلدي الأصفر. والحركةُ التي بدأها إريك تابعتها الصورةُ بعينين دارستين، فتَحَتْ يدها اليسرى الجراب وأخرجَتْ المسدسَ، وصوبَتْه إلى إريك، وأطلَقَتْ. انفجرتْ مع الطلقةِ نوبةٌ من الضحك. أتت من الخمسةِ الآخرين الذين كانوا عائدين. ودوى طَلقٌ ناريٌ. لقد أطلقَ الخمسةُ جميعاً النارَ على صوَرِهم. كان هذا القصفُ يتكرَّرُ في كل أمسيةٍ، ولكن حين كانوا يُصوِّبون إلى القلب، كان إريك يُطلِقُ على ذُكورته، وأحياناً على ذُكُورةِ الآخرين. وبعد فترةٍ قصيرةٍ أضحتْ جميعُ المرايا التي في البهو، وفي غُرف الجلوس، وغرف النوم تخترقها نجومُ ثلج الصقيع. إنَّ قتلَ رجلٍ هو

رمزٌ للشر. والقتلُ بدون وجود ما يُعوِّضُ عن فقدانِ الحياة هو شرٌ، شرٌ مطلَق. إنني نادراً ما أستخدمُ كلمةَ مُطلَق لأنها تُخيفُني، لكنّها هنا تبدو ضرورةً مُلحَّة. والآن، المُطلقات، كما قد يقولُ لك الميتافيزيقيون، لا يمكنُ إضافة أحدها إلى الآخر. وحالما يتمُّ بلوغ المُطلَق نتيجةً لارتكابِ جريمةِ قتلٍ - التي هي رمزٌ له - يجعلُ الشرُّ كلَّ الأفعالِ السيئة الأخرى عديمةَ الجدوى أخلاقياً. ولا يهمُّ إنْ كانت ألفَ جثةٍ أم جثةً واحدةً. فحالة الإثم الأخلاقي هي التي لا خلاصَ منها. يمكنُ للمرء أن يصفَ الجثثَ إذا كانت أعصابه قويةً بما يكفي، لكنَّ التكرارَ سوف يُهدِّئُ من توتُّرها. ويمكنُ أن يُقالَ عندئذٍ إنَّ الحساسية قد تبلَّدتْ، كما يحدثُ كلما تكرَّرَ وقوعُ فعلٍ ما، ماعدا فعل الخلق. وللمرة الأخيرة أخفضَ رجال الميليشيا الخمسة والثلاثون بنادقهم ووقفوا وأذرعهم في حالةِ راحة. كانوا يقفون ضمن مجموعات من خمسةِ أفراد، وكلّ مجموعة تبعُد عن جارتها مقدار عشرة أقدام، يواجهون الجدارَ ذا الثلاثة والعشرين قَدَماً طولاً. سبعُ مجموعاتٍ تتلقَّى أوامرها من ملازم أول فقط. وأطلقَ رقيبٌ رصاصةَ الرحمة. ونقلَ مساعدو السجن دفعةً أولى من سبع جثث. وعلى البقعة ذاتها، فوق دماء المجموعة الأولى وضعتْ السبعُ التالية وانتظرتْ دورها، مذهولةً من اللعبةِ التي تتمُّ عند الجدار في وقتٍ مبكِّرٍ جداً من الصباح. وذُهِلَتْ من الرقعةِ البيضاء الموضوعة عند مستوى القلب. ظلّتْ الدهشةُ مرسومةً على وجوههم. ونُقِلوا جميعاً. ثم جاءَ سبعةٌ آخرون، وقفوا، يرتجفون من شدَّة البرد، قلقون حول النتيجة. نـار!... وماتوا. أخيراً، جاءَ آخرُ سبعة. كان الشحوبُ يعلو وجوهَ رجال فرقة تنفيذ حُكم الإعدام الخمسة والثلاثين. وحاولوا أن يمشوا مبتعدين، ولم تكنْ سيقانهم المترنِّحة تقوى

على حملهم. كثيرٌ منهم كان مُنهكاً، ولن ينسى أيٌ منهم أبداً العيونَ أو الوجوهَ الزرقاء المُحتقِنة للقتلى الثمانية والعشرين. وإذا كانوا قد ظلُّوا واقفين على أقدامهم فذلك بسبب تكتُّلهم معاً. حين وصلوا إلى الممشى الدائريّ أعطوا كلَّ واحدٍ منهم كأساً من الخمر ازدردوها في صمت. لم يكن الخمرُ مخصَّصاً لهم وإنما للرجالِ المحكومين، وشعروا أن أهميةَ المغامرةِ كلها قد حُرِموا منها لصالحِ الأبرياء الثمانية والعشرين. وفُتِحَ البابُ الرئيسي للسجن. وأمرَ القائدُ:

" انتبـــاه! "

ضمَّ رجالُ الميليشيا كعوبهم معاً وشدُّوا هاماتهم، وشوَّشَ لا حراكهُم عيونَهُم وأذهانَهُم أكثر فأكثر. وأُرغِموا، وما يزالون على متنِ قاربٍ يسقطُ مندفِعاً إلى اللُّج، على القيامِ بعملٍ غايةٍ في السُّخفِ كتلميعِ أحذيتهم أو تقديم التحيَّةِ لعريِّف.

" إلى الأمام، سِرْ! "

هذَّبَ شعاعٌ من الشمسِ أعلى الجدارِ بالذهَب. عَبَرَ رجالُ الميليشيا، وهم يلِجونَ يومَ الأحدِ ذاك الذي تقودُ عتَبَتُهُ إلى الموتِ، البابَ. كانوا قد مُنِحوا يوم إجازة. نزلوا إلى البلدةِ، صارمي الأجساد والنظراتِ، مثلي أنا الآن.

إنَّ القوّادين يُمثِّلونَ بالنسبةِ إليَّ قدوةً مثاليّةً في الصرامة. أريدُ أن أحتفظَ بذلكَ المظهرِ الحيويّ الجليّ، ولا يعني هذا أني خائفٌ، مثلهم، من كوني استُدْرِجتُ إلى اللامبالاة، من الاستسلام لها، بل لأنَّ ذلكَ يعجبني جماليّاً، يبدو لي جميلاً، حتى وإنْ كان يحتوي على لحظةِ مُراوغَةٍ، وأكثر لدانةٍ، وتملُّصاً، أو صُهارةً رخوةً تُعطيه شكلاً. ورحتُ أُثيرُ، عبثاً، مدفوعاً بدافعٍ وحيدٍ - جمالي - انتصابَ كائنٍ متينٍ، وسيمٍ، مع أنَّ

الكتابةَ غالباً ما تُحرجَني. والكتابةُ وأيضاً، قبل الكتابة، امتلاكُ حالةِ الحُسنِ تلك التي هي نوعُ من الخِفَّةِ، من الانفصالِ عن الأَرض، عمًّا هو راسخٌ، عمًّا يُدعى عموماً بالواقع - الكتابةُ تورِّطني في نوعٍ من غرابةٍ في الموقفِ، والإيماء، وحتى في اللغةِ. إنَّ اللصوصيَّةَ - وحتى العيش بين اللصوص - تتطلَّبُ حضوراً باللحمِ والدمِ، حضوراً عقلياً إيجابياً يتجلَّى في إيماءاتٍ مُقتَضَبَةٍ، متأنِّيةٍ، مُتَّزنةٍ، ضروريَّةٍ، وعمليَّة. ولو أني تباهيتُ بذاكَ الطيشِ بين اللصوصِ، بذاكَ الانتظارِ للملاكِ والإيماءاتِ التي تستدعيه وتحاولُ أن تنتصرَ عليه، لما اعتبرني الآخرون جدِّياً. لو أني أستسلمُ لإيماءاتهم، لحديثهم الدقيق، فسأكفُّ عن الكتابة، سأخسرُ النعمةَ التي أتاحتْ لي أن أتلقَّى الأخبارَ من السماء. يجب أَن أختارَ أو أتناوبَ أو أصمُت.

* * *

خرجَ ريتون وحدَه. أخذَ يتنقَّلُ من مقهى إلى آخر، يحتسي بضعَ كؤوسٍ من البيرةِ القاتمة، كما يفعلون في ألمانيا. وكانَ قد أزهَرَ في داخله قلقٌ مرهفٌ هشٌّ مثل أَزهار أُذُن الفأر - لكنه واضحٌ وجليّ. كانَ يحملُ حزنَ مَهَمةِ الصباح الغضّ. وأخيراً حلَّت عليه السكينةُ بحلولِ المساءِ، وهو في النَفَقِ، يميلُ على بطن إريك الدافئة. عندما نزلا إلى الشارع جَذَبَ سائقُ الدبابة الفتى إليه بذراعٍ واحدةٍ وقبَّلَه على إحدى عينيه (وبذا حكَّ فَمَه على حافَّةِ قبَّعة البيريه) ثم اختفى داخل الليل. غمرَ ريتون شعورٌ بفراغٍ رهيب، فعادَ إلى الثُكنة، وحده وعُزلَتُهُ تحتلُّه.

قال في نفسه " لعلَّ مهمَّةَ الصباحِ هي التي جعلتني هكذا "

سَمِعَ غمغمةً في أذُنه، وسطَ الظُلمَةِ التي تلُفُّه:

" أنتَ ميِّتٌ لا محالة "

ذاك الأسى نفسه أوشكَ أن يحُطَّ عليَّ، أن يدفعني إلى الاستسلام، عندما صادفتُ، ليلاً، خيولاً شاردةً ترعى على العشب المتجمِّد للخندق. أيُّ جنودٍ تركوها هناك، أيُ عشّاق؟ لكي تتجوَّلُ، بلا ريب، بالقُربِ من ديرٍ عتيقٍ على ضفةِ سيلٍ مائيِّ، وتلبَّستُ شكلَ إريك، ووجهه المتجهِّم، وتموَّهتُ بالضبابِ الذي لا ينبعثُ من بطلٍ كئيب. شعرتُ أني محميٌّ بالقوةِ الهائلةِ للرايخ. ومع ذلك كنتُ أعي الحضورَ الحادَّ المُضيءَ لجان جينيه، الذي يكادُ يُجنُّ من شدَّةِ الخوف. ولكن لعلّي لم أعِ قط ذاتي هكذا كما كنتُ أعيها في مثلِ تلك اللحظات. وعندما أبقيتُ جان متشبِّثاً بأسنانه بفوهةِ مسدسي، قلَّصَ الخوفُ أيضاً مركزَ وعيي بجعْلِه أكثرَ حِدَّة. كان الخوفُ من إطلاقِ النارِ يتصارعُ مع الخوفِ من عَدَمِ إطلاقِ النار. كان جان يعيشُ لحظاتِهِ الأخيرةَ أكثرَ مني. مهما يكن، استعادَ ريتون سلامَهُ تماماً ذاتَ صباحٍ، بعدها بعشرةِ أيامٍ، عندما استُدعيَ إلى غرفةِ الحرسِ، كان هناك مَنْ يريدُ مقابلته على الفور. كان مدنيّاً.

" أه، باولو! "

تعانقا كأخوين، كطفلين. وابتعدا فوراً عن الرجالِ الذين في الخدمةِ وراحا يتحدثان بصوتٍ خفيض.

" أخرجتَ؟ "

" نعم، كيف الحال؟ ألا يوجدُ شيءٌ في الأفق؟ "

" أنا؟ لا شيء "

ظنَّ ريتون أنَّ باولو لا يدري بأمر إريك. وفجأةً سأله:

" أتتحدَّثُ الألمانيّة؟ "

" لا، لماذا؟ "

" لا شيء "

هزَّ باولو كتفيه استخفافاً.

" يبدو أنَّ الأمورَ تُحبِطُكَ، هه؟ "

أنا أعرفُ الجواب. إنني لم أشتَقْ إلى " ميتريه " الذي كان في حينِهِ مخيفاً بالنسبةِ إليَّ مثلما كان المعسكرُ بالنسبة إلى باولو. ولا إلى سجن المقاطعة. إنَّ سنوات التعاسة تلكَ تُجلِّلُ أعماق ذاكرتنا بما يُشبه الطحلب والظلّ وأحياناً أتركُ نفسي لأغوصَ فيها، حيثُ أشعرُ أنه يمكنني أن أجدَ ملاذاً عندما تقسو الحياةُ عليَّ، لكنَّ أعداداً لا تُحصى من الرغباتِ المشوَّشةِ أيضاً تنهضُ من تلك الأعماقِ المزَّقةِ، رغباتٌ يمكن صياغتها، إذا عَرفَ المرءُ كيفَ يُعاملها، بحيث تشكّلُ مجموعةً من الحركات تجعلُ حياةَ المرءِ جميلةً وعنيفة. وأغامرُ بتخيُّلِ صورة. إنَّ تلك السنين المستقرَّة داخلنا طينٌ تتكوَّنُ فيه فقاعات. كل فُقاعةٍ، وهي مسكونة بإرادةٍ واحدةٍ للوجودِ، تتطوَّرُ وتتغيَّرُ، وحيدةٌ ومتوافقةٌ مع بقية الفُقاعاتِ، وتصبِحُ جزءاً من كُلٍ متنوعٍ وعنيفٍ، يكشفُ عن إرادةٍ تنبثقُ من ذلك الطين. ووسطَ تعبي وأنا بين اليقظةِ والنومِ، بين الألمِ وما يُصارعه (وهو نوعٌ من إرادةِ السلام، كما أعتقد)، زارتني كلُ الشخصياتِ التي تكلَّمتُ عنها وآخرون أيضاً ليسوا واضحين لي. وكأنهم يبرزونَ من عالم النسيان، أي من المنطقةِ التي تُكونُ فيها الأجسادُ غير مُكتملةٍ، لم تتشكّلُ بعدُ، مطّاطةً نوعاً ما، كأشكالٍ غُضاريّةٍ في أيدي الأطفال... " يبرزونَ من عالمِ النسيان ". بل أسوأ من ذلك، لقد برزوا لتوّهم من إحدى تلك الكنائس الصغيرة التي تُشرِفُ على المدافن التحت أرضية في المقابر. أنا

لستُ نائماً. أعلمُ أنهم أبلِغوا بأفعالِ جان هناك، في موته. إنهم يعيشونَ في الضريحِ الذي يعودون إليه.

* * *

لنتابع سردَ الأحداثِ الدائرةِ فوقَ الأسطح. فقد منعَ القلقُ الرقيبَ من النوم. نهضَ خلالَ الليلِ وقامَ بجولاتٍ في الشقّة. في غرفة النومِ كان الجنودُ الثلاثةُ نائمين على السريرِ متداخلين حتى كان جديراً بأكثرِ الرجالِ تساهُلاً أن يَعتبرَ هذا المشهدَ شائناً، لكنَّ التعبَ وحدَه كان السبب في تشابُكِ الجنودِ عند حافةِ القبر. دخلَ غرفةَ الطعام، وهو يوجّه بحذرٍ ضوءَ مصباحه. وعند قدميه رأى المشهدَ الذي كنتُ وصَفتُهُ. كان ريتون نائماً وذراعُهُ ممدودةً ورأسهُ مدفوناً كله تقريباً في بنطال إريك النائم.

في الصباح، حين أفاقَ الجنودُ اضطرَّهم الحذرُ إلى البقاءِ جلوساً مخافةَ أن يُحدثَ مشيَهُم صوتاً يُثيرُ قلقَ سُكانِ الطابقِ السفلي. ومع ذلك، كانوا يودُّونَ أنْ يكتشفوا الغُرَفَ المُقتحَمةَ التي كانت ما تزالُ دافئةً بحياةِ شاغليها الهاربين. إنَّ الشُقَقَ تمنحُ نفسَها للصِ بوقاحةٍ مؤلمةٍ. ونحنُ نعثُرُ على العاداتِ الحميمةِ جداً للبورجوازيّة بدون أن نتعمَّدَ البحث عنها، وأستطيعُ أن أقولَ للحقيقة إنني فتحتُ أدراجاً كان فيها ملابسُ داخليةٌ عليها بقعُ خراء، وجواربُ قاسيةٌ، جافةٌ أطلَقَتْ عَبَقَها الحزين عندما نُشِرَتْ. بل إني عثرتُ على قطعٍ من الخراءِ تُرِكَتْ في أدراجٍ تحتوي قبّعاتٍ نسَويّة أنيقة. وطالما حسبتُ أنَّ النساءَ هُنَّ الأقذر، ولكنَّ الرجالَ في الحقيقة يفوقونهنَّ قذارة. أما مَلَكَة التخيُّل عند كليهما فأشبهُ بمَلكة التخيُّل عند رجال الشرطة. فإذا خبَّأوا قطعةً من فئة مائة فرنك في تضاعيفِ ستارةِ نافذةٍ، أو تحت كومةٍ من الملاءات، أو خلفَ إطارِ صورةٍ،

فـإنَّ بالهم سيـرتاحُ، سيـرتاحُ، إلا من القلقِ المُهلك الذي يشكِّلُ قِـوامَ حياتهم عندما يبتعدونَ أكثر من خمسينَ قدماً عن مُدَّخراتهم. ولكن مَنْ أنا حتى يحُق لي أن أتكلَّم، بما أني أتبولُ في المغسلة، وأنسى غائطاً أتركُهُ في صُحُفٍ قديمةٍ داخل خزاناتِ غُرَفِ الفندق، ولا أتحلَّى بالشجاعةِ لأتركَ نقودي في غُرفتي ولو ساعة. إنني أتنقَّلُ مع هذا، أسرقُ معه، وأنامُ معه.

لم يغتسلْ الجنود. لم يخرجْ شيءٌ من الصنابير. نقصانُ الماء بثَّ فيهم الذُعر. ولم يبقَ منه أي شيء في المزادات. سمحَ لهم الرقيبُ أن يتكلَّموا بصوتٍ خفيضٍ، لأنَّ ضجيجَ النهارِ كان يُغطي على همهمتهم. كان شعرُهم الأشقر في عيونهم، وفي زوايا جفونهم كانت قطعٌ من مخاطٍ أبيض. كان استيقاظاً بائساً. وشَعَرَ الجنودُ بأنَّ الشقَّةَ هي ميدانٌ لموتهم. كان يُقلقهم بقاؤهم هناك وكأنهم يقفون في حقولٍ ملغومةٍ، حيث تسدُّ الأفاعي حناجرهم الرقيقةَ، وتنمو أزهارُ الغار. كنا خائفين. ليس من الخطرِ وإنما من تراكُمِ الإشاراتِ المُهدِّدة. عند كلِ نافذةٍ وَضَعَ الرقيبُ رجلاً يمكنه أن يُطلِقَ النارَ على العُصاة. ثم قسَّمَ طعامَ يومٍ إلى ثمانية أجزاءٍ متساويةٍ. وعلى الرغم من أنه كان يريدُ أن يتحدَّثَ عن الأمرِ، إلا أنه أطلقَ مرتين ملاحظاتٍ باسمة عن ريتون وإريك، دلَّتْ على أنه كان يعرفُ بمغامرة الليل. لم تحدُث فضيحة. ضحكوا قليلاً وتسلُّوا بصمتٍ وهُم ينظرونَ إلى الفتى الذي تكشَّفَ لهم جمالُهُ فجأة. كان يُقرفصُ على السرير ويأكلُ خبزاً مع الشوكولاة. نظرَتْ عينا الفتى المندهشتان في عينيه. غمغمَ إريك مع ضحكةٍ رقيقةٍ وهو يُعيدُ إليه المزادة دون أن يشربَ منها:

" أنا ألمانيّ "

ردَّ له ريتون الابتسامة وصوَّبَ إريك إصبعه إليه:

" وأنت فرنسي "، وضحك بصوت أعلى قليلاً.

وأنا أفهمُ تعدُّد الزوجات عندما أُدركُ مدى السُرعةَ التي استُهلِكَتْ بها مفاتنُ الفتى-الفتاة ومدى البطء الشديد الذي اختفى به الفتى-الذكر. حاولَ إريك أن يتصرَّفَ وكأنه يمزحُ حولَ ذلك التظاهُر، ولكن بما أنَّ ذلك قد أُقِرَّ الآن، وإنْ بنبرةٍ ساخرةٍ، دلَّ بشكلٍ كافٍ على أنه تمَّ على أساسِ علاقته مع ريتون. هذا الشعورُ بالكبرياء بدل أن يُحزِنَ ريتون، منحه نوعاً من الارتياح. كان في الغرفة خمسة من الألمان. وكان إريك يقفُ خلفَ السرير. ملاحظته شتَّتتْ انتباهَ الجنود، وانخرطوا في حديثٍ في أمرٍ آخر، لكنَّ أحد الجنود داعبَ، مبتسماً، شعرَ ريتون الشعث أثناء مروره بالقرب من السرير. غَمَرَتْ الفتى الدهشةُ ومن ثم القلقُ. هزَّ رأسه بقوةٍ ليُبعِدَ اليدَ، لكنه لم يجرؤ على الإتيان بحركةٍ أو أن يعبُسَ أو حتى أن يُقطِّبَ جبينه متجهِّماً. وأدركَ على الفور، من نظراتِ الجنود وضحكهم، أنهم يعلمون. ظنَّ أنهم يهزأون به امتعاضاً. احمرَّ وجهه. ولما لمْ يكُنْ يستطيع أن يغتسل أخذَ وجهه يلمعُ وبدا احمراره براقاً، ومن ثم دافئاً. رآه أحدُ الجنود من المرآة، ودون أن يُظهِرَ الفتى أنه لاحظَ تخضُّبَه، كشَفَ أمرَه لإريك وهو يبتسم، فاقتربَ هذا برفقٍ من خلف ريتون، أمسكه من عنقه وجرَّه إلى الخلف قليلاً، وقبَّله برقَّةٍ على شعره، في حضورِ رفاقه والرقيب. لم يُعلِّق أحدٌ ولا أتوا بحركةٍ، وكان ذلك طبيعياً وفاتناً. ابتسمَ ريتون، لأنه على الرغمِ من تظاهره بعدمِ الاكتراث كانَ متيَّماً بحب إريك، الذي كان شخصُه المهيمن قد انتزعَ احترامَ الجميع بتلكَ القُبلةِ البادئةِ، حتى إنه رغِبَ في أن يُعلِنَ زواجه.

فجأة شَعَرَ ريتون أنه يسقطُ من أعلى جرف. أحقاً يحبّه إريك؟ ودَّ لو يُخبِرُهُ أنه ساعةَ كانَ يموتُ أحدهما بين أحضان الآخر، كان أشدُّ الأشياءِ إنسانيّةً هو أن يمنَحَ أحدهما الآخر أقصى سعادة. ولكن من الصعبِ البوحُ بهذا. إنه لا يُحسِنُ الألمانية. وثمة رغبةٌ في البكاء تتملّكه. تبادلوا النظرات برهةً بوقارٍ، وصمت. الجنودُ الذين عُيِّنوا عند النوافذ نصف المفتوحة مع تعليماتٍ بإطلاقِ النار كانوا منبطحين على بطونهم على السجادة لكي لا يراهم أحدٌ في المنازل المقابلة. عندما اتَّخذوا ذاك الوضعَ كانت الشمسُ بالكاد بزغَتْ. كان الضوءُ باهتاً، مع أنهم كانوا موعودين بطقسٍ حسن. لم يروا شيئاً في الشارع العام، الذي كان مُجلّلاً بغلالةٍ من الضبابِ الخفيف. كانوا يراقبون بتكاسُل. راحَ إريك يُنظِّفُ مسدَّسه وأخذَ ريتون يُنظِّفُ مدفعه الرشاش. والباقون غالبهم النعاس. بعدها بساعة بدَّدت الشمسُ الضبابَ. اقتربَ ريتون من النافذة، ووقفَ خلفَ ستارةِ التولِ المزيّنةِ بزخارفَ من المخرمات، وبعد برهةٍ من الذهول استحوذ على عقله وجسده أغربُ انفعالٍ، دوّخه، شتّته. لم يبكِ. كان الشارعُ العام كله مزيّناً بصفَّين من الأعلام الفرنسية وبوقارٍ حيّا فرنسا تحيَّةَ الوداع. لقد أفلتتْ الأعلامُ من خيانته، وها هو قد طُرِدَ من بلده، وإبَّان الاستيقاظ أخذَ كلُّ فرنسيٍ يُلوِّحُ من نافذته بعلم الحرية المُستعادَة، والنقاء المُستَرَد. في ذلك اليوم كان راحلاً إلى عالم الموتى، وكان العيدُ على الأرض، وفي الشمس، وفي الهواء الأزرق. كان في عالمِ الموتى. لم يبكِ. لكنه أدركَ أنه أحبَّ وطَنَه. تماماً كما حدث يومَ ماتَ جان وعلِمتُ أني أحببتُه، وكذا عندما خَسِرَ فرنسا علِمَ أنه أحبَّها. كانت الأعلامُ الإنكليزيةُ والأميركيةُ ترفرفُ على النوافذ جنباً إلى جنب

مع الأعلام الفرنسية، والخراءُ والقيء الثلاثي الألوان يقطران من كل مكان. وأدركَ ريتون معنى النشاطِ الأخرسِ الذي كان يجري في المنزل. لقد كانت المدينةُ برمّتها تغزلُ طوالَ الليل ياردات من النسيجِ القطني الأحمر، والأبيض، والأزرق. وفي ذاك الصباح كان نشيد المارسيليز قد تعِبَ من التحليق فوق باريس فسقط إلى الشوارع، ممزّقاً ومُرهقاً. تلك المعجزة حدثتْ يومَ موته. وظنَّ ريتون برهةً أنه ما زالَ يستطيعُ أن يهبطَ الدَرَجَ بدون عِلْمِ البوخ (البوخ - هذه الكلمة تُبيِّنُ بوضوحٍ أنَّ الحزنَ يبتكرُ منظومةً كاملةً من الرموزِ يأملُ الإنسانُ في أن يتصرّفَ بواسطتها بصوفيّة: لقد تردّدتُ في وضعِ كلمةِ بوخ مفخَّمةً، بدافعٍ من الاحتقار، لكي أجعلها اسم عَلَمْ - البوخ والميليشيا قتلوا جان، الذي أُجِلُّهُ، وفي رأيي هذه أروعُ قصةٍ للبوخ والميليشيا، أُقدِّمها لذكراه. والفضلُ لإريك) أو أن يقفز من الشرفةِ إلى الشارع. لن يُصيبه أذى، لأنه في مثل هذا اليوم يكفي أن تتمنّى حدوثَ معجزةٍ حتى تحدث. لا شك في أن الفريتز سيُطلقون النار، ومن ثم فكّرَ بجدّيةٍ تامةٍ في تعريضِ نفسه للموت من طلقةٍ ألمانية. كانت الفكرةُ تتضمّنُ شعوراً بالتطهُّر، بالخَلاص، ولَّدتْ دمعةً بين جفونه لم تنهمر. لقد خانَ فرنسا، لكنه سيموتُ من أجلها. ويكونُ بذلك قد اقتربَ كثيراً من إنجازِ عملٍ بطوليّ، سقوطٍ مباشرٍ بين الألوان الثلاثة.

" ماذا يهمُّني أنا من فرنسا ؟ كلهم أغبياء. أيري فيهم جميعاً، راجلين وراكبين "

كان جديراً به أن يفكّرَ هكذا. لكنه كان أصغرَ سناً بكثير من أن يُحافظَ على صفاءِ وجههِ، وتدلّتْ زاويتا فمه الصغير المكتنز تألُّماً لدى

تفكيره في ما كانتْ تفعله فرنسا به، لدى تفكيره في الفرح الذي يخسره، وأيضاً لأنَّ مرارةَ فقدانِ أشياءِ العالم، على الرغم من عُنفها، دائماً تصحبُ أخطرَ مُتَعِ القيامِ بحملاتٍ رائعةٍ في أراضٍ مُحرَّمة. ورسمَ تعبيراً ساخراً على وجهه. لم يتبدَّ له أنه قامرَ وخَسِرَ وأنه إنما كان يُسدِّدُ دَينَه. وما كان يشعرُ به لم يكن يُقارَن بالألم الذي سبَّبه القرارُ الذي اتَّخذته فرنسا، وأصدقاؤه، وعائلته: أن ينفوه من الفرح، واللهو، والمسرات، وأن ينشروا الأعلامَ على شرفِ ذلك النفي. كان ما يزال مذاقُ العجين في فمهِ بعد أن أكلَ الخبزَ والشوكولاة. كان الشَعرُ المتخلِّف عن الأمشاط والفراشي متناثراً في أرجاء غرفة النوم كلها. أحد الجنود المُهمِلين الذي كان حزامُه محلولاً وقميصُه قد خرجَ نصفُه من بنطاله، وكان يقوم بدور فتاةٍ مكشوفةِ الرأس تخرجُ من سريرها، خرجَ من غرفة النوم إلى غرفة الجلوس. نَشَقَ ريتون. كانت قطرةٌ من المخاط قد بدأتْ للتو تتدلّى من أنفه. سوفَ لن يغسل وجهه أبداً. حاولَ أن يُنظِّف زاويتيّ عينيه المزكومتين قليلاً بظِفرِ إصبعه. وهبَّتْ نسمةُ هواءٍ حركتْ الأعلامَ كلها.

الدنيا مُشرقةٌ ومرِحةٌ!

صباحُ الخير، يا سنونو، الدنيا مُشرقةٌ ومرِحة!

أخذَ يُصفِّرُ قطعةً من لحنٍ من بين أسنانه. السيارة الأولى التي مرَّتْ في الشارع كانت بيضاءَ وعلى سقفها صليبٌ أحمر. هناك المزيدُ من الجرحى الفرنسيين. كان قد أطلَقَ النار. لدى تفكيره في هذا أنعشَه شعورٌ ضئيلٌ بالفخر. لقد قَتَلَ شباناً صغاراً عن المتاريس، وجَرَحَ آخرين بالمدفع الرشاش. بالمادموازيل: الفتياتُ يعتنينَ بالجرحى، ويُقبِّلنهُم. فرنسا تُلقي خُطباً. فرنسا، فرنسا، فرنسا، إلى الأبد. هو لديه إريك.

عندئذٍ وهناك ذلك الحب لم يُشبعه كفاية. كان في داخله حيِّز للندم. وفجأة بدا له الألمان - لأنَّ الحزنَ العظيمَ يمنحُكَ صفاءً خارقاً، والأشياءَ التي لا تنسجم معاً، وتلك التي كانت قد ظهَرَتْ مُتأنِّقةً بثيابٍ رائعةٍ تبدو مهزولةً في عُريها النحيل - بدا له الألمان كما كانوا: غيلان. ليس لأنهم أطلقوا النارَ على الفرنسيين. إنَّ ريتون لم يحزن على الذين قتلوهم، بل لأنه لم يستطع أن يكونَ بالقُربِ من أولئك الذين تباكوا عليهم. لقد قامَ الألمانُ بعملهم. كان كل شيءٍ فيهم فظيعاً، أي، مناقضاً لابتهاج الفرنسيين. كان الألمانُ كئيبين، وسوداويين، أما الآخرون فكانوا خُرقاً. في تلك الغرفةِ كانوا يتمتَّعون بجاذبيّةِ أُناسٍ قَدَرُهم الأوحد هو الألم. وريتون لم يكن يُحسِنُ التفكير، ومع ذلك غامرَ بتقديمِ هذه التأملاتِ إلى نفسه:

" مَنْ هم أصحابي الآن، أو رفاقي؟ إنهم هؤلاء، وليسَ أصحابي أولئك الموجودين في باريس. لقد قُضيَ عليَّ، ولا ريب. قُضيَ عليَّ، ريتون يا ولدي "

كان الجنودُ يغطّون في النوم. كانت تسكنُ ذلك الضريح الفريد الذي ارتفعَ حتى بلغَ علوَّ بنايةٍ عملاقةٍ روحٌ تحت أرضيّة استطاعَ ريتون، المُترَعُ قلبُه بالسلام، أن يراقبَ منه الابتهاجَ الساذجَ لسُكان الأرض. وقفَ جامداً ساكناً، وما يزالُ وجهُهُ مُخربّاً. استمرَّ حزنُهُ خمسَ دقائق إلى ست، مدةً كافيةً لإعداده لِما يلي. جلسَ القُرفصاء وظهرُهُ إلى النافذة وراحَ ينظُرُ إلى الروزنامة ذات الأوراق المنفلتة معلَّقة على الجدار، الروزنامة الضخمة التي تبيِّنُ تاريخ ١٥ آب، يوم ارتفاع مريم العذراء إلى السماء بعد موتها، وأرخى قليلاً حزامه. كان الرقيبُ يُعيدُ قراءةَ رسائله. وكان

إريك يحملِقُ حزيناً في آلته الهارمونيكا، ينتظرُ زعيقَ صفّارات الإنذار ليُعينه على العزفِ قليلاً، ولو حتى بصوتٍ مكتوم. وهزّتْ الشقّةَ ثلاثُ طلقات. كان الجندي الموجود في غرفةِ النوم يُطلقُ الرصاصَ على بعضِ الأشخاص الذين يعبرون الشارعَ العام. وكان أمرُ إطلاق النار قد نوقشَ وقرّروا ألاّ يُطلقوا النارَ إلا لسببٍ جوهريّ توفيراً في الذخيرة، وخاصّةً لكي لا يكشفوا عن مخبئهم. والمنزلُ حتماً لم يكن مهجوراً. كان عليهم أن يطلقوا النارَ بشكلٍ رئيسيّ لمساعدةِ الرفاقِ الألمان الذين يتقاتلون في الشارعِ مع المتمردين. ظهرَ الخوفُ على الرقيبِ بسببِ إطلاق النار من قنّاصِ الأعداءِ ذاك. ولا شكٌّ في أنه كانت لديهم خُطّةٌ للهروب من فوق الأسطح، ولكن ما كانَ في إمكانهم أن يبتعدوا كثيراً بما أنَّ مجموعةَ المنازلِ كانت أشبه بصخرةٍ شاهقةٍ معزولةٍ بين أربعة شوارع. فإذا عثروا عليهم، فالموتُ محتوم. بعد إطلاقِ الرصاصات أصبحَ الصمتُ أقسى. وشقّ القلقُ طريقهُ داخلَ الشقّةِ على شكل إشاراتٍ تكشفُ عنها الأغراض. كان من المستحيلِ أن يُعثَر على جهاز راديو هناك أو أن يكونَ إطارُ إحدى الصور مقلوباً أو أن تُرى أي بقعةٍ على الجدار إذا لم يكونوا سيموتون في ذلك اليوم، إذا لم يكونوا سيُنسَفون. لقد حُجزَ الذكورُ الأربعة والفتى، المُتعَبون جميعاً من طولِ القتالِ، الذي دامَ ربما ربعَ ساعةٍ، في وضعٍ جمّدَهم فيه انفجارُ طلقٍ ناريّ. كان هناك كربٌ يُحوِّمُ في الشقّة منذ الصباح، كربٌ هو من شدّة الإيلام بحيث أنه جعلَ جوٌّ الغُرَف ومرأى الوجوه يكاد يبدو أسود. كانت كلُّ زاوية، كلُّ طَرَفٍ مُدبَّبٍ لإيماءةٍ ساكنةٍ، وثَنْيَة ثوبٍ مجعَّدةٍ بشكلٍ سيئ، وكل ثُقبٍ، وإصبعٍ، تُصدِرُ في وقتٍ واحدٍ إشارات أسى. كانوا عصبيّين إلى أقصى درجة. والكربُ الذي

كان يلغمُ الغُرَفَ ازدادَ مائة ضِعفٍ خلال ثانيَتَين. وغمغمَ الرقيبُ بعباراتِ تأنيبٍ لقنَّاص الأعداء، فأجابه هذا بغمغمةٍ أُخرى ذات نبرةٍ لا تكادُ تعلو عن نبرته ثمَّتْ الشفتان فقط عن معناها. سيطرَ الرقيبُ على رغبتِه في أن يصرُخَ مُصدِراً أمراً، لكنَّ استحالةَ التعبير عن حنقِه أثارَ سخطَه، فقامَ بحركةٍ في غير محلِّها بدفعِ الجنديّ مُبعداً إياه عن سلاحِه وإعطائه للرفيقِ الذي عيَّنَه في مكانه. تقلّصَ فمُ قنَّاصِ الأعداءِ الصغير، الذي صَفَعَتْه خصلاتٌ من الشَعرِ، وقَسَّتْ النظرةَ المرتسمةَ على وجهه. وتعاظمَ الغضبُ تحتَ ضغط كبتِه. هذا المشهدُ السريعُ والصامتُ بالضرورةِ استطالَ بينما الرجالُ ينتظرون بقلقٍ. كان الجنديُّ قد قفزَ نصف قفزةٍ ليقفَ، بينما كانت إحدى ركبتيه لا تكادُ تلمس الأرض ويداه خاويتين، إحداهما مُدلاّة على جنبه، والأخرى تقبضُ على شعرِه، لكنها ترتعشُ بسببِ الحركةِ غير المُكتملة، تُشبه نوعاً ما حركةَ الراكضِ يستعدُّ للانطلاقِ وينتظرُ بصبرٍ نافد أَن يُتابعَ - وقد بدأ لتوِّه بالتتابُعِ بارتعاشِ جسمه - الركضَ أو القفزَ. حَرَفَ غضبُهُ فمَه، وحوَّلَ وجهُه شاحباً، ودفَعَه الحقدُ المُصاحبُ إلى أن يعقدَ ما بين حاجبَيه ليُصبحَ كتلةً من الظلامِ كان البرقُ يومضُ فيها على فتراتٍ منتظمةٍ ليضربَ الرقيبَ ويُدمِّرَ ألمانيا. بقيَ الجنديُ في ذلك الوضع، وقد روَّعَتْهُ ضرورةُ أن يكونَ مُذعناً حتى في مثلِ هذه اللحظة، مذهولاً وجامداً. لكنَّ القلقَ شقَّ طريقَه إلى الشقَّة. جلسَ إريك على طرفِ السرير، على الحافّة. أبقى شفتيه الجافتين، بحركةٍ شاردةٍ، على ثقب آلة الهارمونيكا. لم يكن يلوي على شيء. وانتظَروا. تردَّدَ الرقيبُ، الذي كانَ قد لَزِمَ السكون برهةً، بعد قيامه بحركةٍ دلَّتْ على سرعةِ غضبه، تردَّدَ قليلاً ثم توجَّه إلى غرفةِ الجلوس، وبينما هو

يغادر اكتشفَ جسمُه وجود ريتون، الذي كان رابضاً، يتثاءبُ، في حين كان قنَّاص الأعداء يُحدِّقُ إليه. كان الوقتُ ليلاً. إلا إذا كان نهاراً متواصلاً. بل إنني أظن أنه لم يكن ليلاً ولا نهاراً في أعلى البناية الشاهقة. ففي وضح النهار يكونون أحياناً في ظُلمةٍ حالكةٍ، أي أنَّ كل لحظةٍ كانت تكشفُ عن نشاطٍ ليليّ. كانوا ينتقلون في المدى برفقٍ شديدٍ، لأنَّ حركةَ الأرضِ كانتْ من البطء بحيثُ أنَّ إيماءات الجنود كانت رقَّةً صرفاً. فكنتَ ترى جسَداً نائماً ورأسه على كومةٍ من الحبال، أو فتى يهمسُ، وفتى يحلمُ. سكتتْ المناورةُ. نهضَ ريتون. فجأةً أصبحَ يهتمُّ بمعرفةِ تاريخ اليوم. ذهبَ إلى الجدار ليُمزِّقَ أوراقَ الروزنامة. هذه الحركةُ أخرجَته من نطاقِ الوضعِ المأساويّ قليلاً ومن ثم أعادته إليه وأدخلَتْهُ فيه أعمقَ فأعمق.

" أعلمُ أنها فكرةٌ حمقاءُ، لكنني يجب أن أعرفَ في أي يومٍ نحن "

حين نهضَ واقفاً انزلَقَ بنطاله بأكمله من تحت الحزام، الذي لم تكن له أنشوجة، وتجمَّعَ قميصُهُ عند الصدر والظهر. ولم يكد يلحظُ ذلك، ومع ذلك قامَ بحركةِ رفْعِ بنطاله بيده. ولكي يتوجَّه نحو الجدار كان عليه أن يزيحَ من طريقه أو يزعج قنَّاص الأعداء الذي لم يتحرَّك وراحتْ عيناه، اللتان أصبحتا عِدائيتين منذ أن غادرَ الرقيبُ الغرفةَ، تجثمان بثقلهما على ريتون. عندما اقتربَ منه الفتى وجدَ الجندي أخيراً، لدى رؤيته قذارةَ ملابسه، عُذراً لإطلاق غضَبه. فأمسكَ بالفتى بخشونةٍ من حزامه وجرَّه، وكانَ جذعُهُ رقيقاً على الرغم من متانته. كان أيضا مَرِناً، وانحنى إلى الخلف، كأنما ليستعيدَ توازنه، أو ليهربَ، لكنَّ الجندي منَعَه بوضعِ يده اليسرى بغضبٍ أشدّ حول الخصر. ظنَّ ريتون أنه يعبثُ فدعمَ

نفسه، على الرغم من أنه نادراً ما عبَثَ مع ذلك الجندي، بكلتا يديه على رأسهِ المجعَّد الشعْر الذي ارتطمَ به بعنفٍ بسبب سرعةِ الحركة الفظة كلها. والآنَ لم يعد الجندي، على الرغم من غضبه، قادراً، لدى إدراكه الوضعَ الساخرَ، على أن يتجنَّبَ (حتماً بطريقةٍ غامضةٍ جداً) الوقوع تحتَ سيطرةِ سِحر أنبلِ موقفٍ ينمُّ عن احترامٍ وإيمانٍ. كدَّرَ روحَه ما يشبه الفوضى وأصابه بدوارٍ خفيف. والفتى، الذي رأى في المرآة المُعلَّقة فوق الموقد أن إريك يُراقبه من الخلف، حاولَ أن يتخلَّص. شعرَ الجندي بذلك فأحكَمَ عناقَه، أما ريتون، الذي كان يتشبَّثُ بشعْر الفريتز، فأخذَ يضغطُ الرأسَ بعيداً عنه بقوةٍ أكبر. استقرَّ جبينه على بطنِه، في المسافةِ ما بين الحِزام والبنطالِ، بينما انسحَقَ الفمُ على القماشِ القاسي الأزرق عند فتحة البنطال. كانت دلالةُ الموقف تتغيَّرُ. بدا الألماني وكأنه مرتبطٌ بالفتى من حِزامِه، كما بطوقِ نجاة. وكان الذكَرُ الجريحُ، المتميِّز غيظاً، قد استقرَّ على ركبتيه أمامَ الفرنسي ذي الستة عشر ربيعاً الذي بدا كأنه حاميهِ وكأنما كان يتوِّجُ رأسه بتسامُحٍ بيدين قويتين قابضتين. وانتظرَ كلُّ مَنْ في الغرفة في صمت. رفضَ الجندي أن يُحرِّرَ الفتى، وهو يحضُنُه بقوةٍ بذراعيه العضليَّتين، ويشعرُ بالحنق والمذلّة لكونِ وجهِهِ غائصاً في غياهب البنطال، الذي كان يستنشقُ رائحته من فمه المفتوح. حاولَ أن يرفَعَ رأسَه لكنَّ إبزيمَ الحزام كان يكشُطُ جبينَه. أخيراً جعَلَه الألمُ ينتقلُ إلى الحركة التي يلتقي عند أدائها كل شيء، الحركة التي أُطلِقَ اسمها فيما بعد على ذلك النهار: وبغضبٍ عنيفٍ ضغطَ الألماني، الذي كانت ذراعاه مشدودتين وجذعُهُ قد عادَ إلى الحياة فجأةً على فخذَيه، اللذين كانت تدعمهما حركةُ النهوض، الفتى تحته. أصبحتْ عينا ريتون أشبه

بعـيني حيـوان أسيـر. أرادَ أن يفرَّ، لكنه كـان قـد وقعَ في الفخّ، وارتطمَ رأسَه بالسرير الخشبي. كان الجنودُ الثلاثة الآخرون يراقبون بصمتٍ هذا الـ corps a corps (التـصـارع بـالأجـسـاد) الخـالي من الحـركـة تقـريبـاً. كـان انتـبـاهـهم - حضورهم، فـي ثلاثِ نقاطٍ مـن الغرفـةِ - يُغلِّفُ الحَدَث. كـان هناك رجـلان وجندي يقـومـون بـالحراسة عند نـوافـذ الطابقِ السـادس لبنا ءٍ ملغـومٍ، تُهدِّده مائة بندقيـة، بحيث يمكنُ لقرصانٍ أسود أن يَلِغَ في خائنٍ فـتى في وضعٍ حـرج. الخـوفُ أشبـهُ بعنصـرٍ تؤدى فـيـه الحركـاتُ دون أن تلاحظ. ويمكن أن يلعبَ دورَ المُخـدِّر. بـل إنه يُرقِّق الحـركـات بحـيث لا تعودُ مشروطة بسببها. إنه يُسرِّع من معرفةِ المرءِ بها، ويُثقلُ من أخرى ويُغبِّشها. هذا الخوفُ من أن يُعرَف مكان الوكْر، من أن يُفجِّر المنزل، من أن يُخـرَقـوا، لم يبـدُ أنه يشـغلهم. بل بـالأحـرى ولَّدَ نـوعـاً مـن الخـواء داخلهم، لا حـيِّزَ فـيـه إلا لهـذه الحقيـقـة الخـارقـة، التي كـانت بحقّ غـيـر متـوقَّعـة عند سـاعـة المـوت. ولما كـانوا مـوجـودين على حـافـة العـالم، على قـمـة تلك الصـخـرة المتـوضِّعـة فـوق أنأى نقطةٍ من الـ Finis Terrae (آخر الأرض)، كـان فـي وسعـهم أن يراقبـوا بعقـولهم بكـل ارتيـاح، وأن يُكرِّسـوا أنفسـهم تمامـاً للتنفيـذ الكـامل للعـمل. وبما أنه كـان فـي وسعـهم أن يروه فقط بشكله المُغلَق، المفصول عن المستقبل، كان هو الأداءَ المُطلق. بعده، لا شيء. كـان عليـهم أن يجعلوه مُكثَّفـاً قدْرَ الإمكان، أي كـان على كلٍ منهم أن يعـيـه بحِدَّةٍ قدر مـا يسـتطيعُ لكي يحشـد فـيـه أكـبر زخم من الحياة. فلتكُن لحظاتهم قصيرة، لكنها مشحونةٌ بالوعي. وعَبَثَتْ ابتسامةٌ واهنةٌ على شفـاههم. كـانت يدُ إريك، التي كـانت مـا تزالُ مـسـتقـرَّةً على السرير، مـا تزالُ تُمسكُ بالهـارمونيكا. كـان مـا يزالُ يـبـتـسمُ الابتـسـامـةَ

ذاتها مع الآخرين. وحين ارتطمَ رأسُ ريتون بالسرير الخشبيّ سُمِعَ صوتٌ مكبوتٌ ولكنه ضعيفٌ، وندٌّ عنه أنينُ ألمٍ واهنٌ جداً. وقامَ الشهودُ الثلاثةُ على الصراع، الذين لم يشعروا بأي شفقةٍ بل زاد غضبُهم قليلاً من المُهدِّد ليُنهي الأمرَ بأي شكلٍ، قاموا بالحركاتِ نفسها بأذرعهم وتفوّهوا بوضوحٍ صامتٍ، فاتحينَ أفواههم واسعاً، بعباراتِ التهديد نفسها التي استشفَّ الفتى معناها من تقاسيمِ وجوههم وتعبيرها. وبدل أن يلعنوا المُعذِّب، انصبَّ حقدهم على الفتى الذي كان قادراً على حرمانهم من الاستمتاع بعذاباته. لاشك في أنه في آخر الأمر لن يكونَ الصوت المكتوم خَطِراً، ويخمدُ الحقدُ حين يُستعادُ الصمت. وعادتْ الابتسامة الماكرة تُزهرُ على أفواههم، لكنَّ الفتى الذي كانَ قد طُرِحَ أرضاً بضربةٍ على ذقنه، وتدفَّقَ الدمُ منها، كان قد باتَ مستلقياً على السرير، وثيابه إلى أسفل، ووجهه على الملاءات، وجسمه مسحوقٌ بالجسدِ الضخمِ، القويّ، للجنديّ، الذي كان يتحلّى بما يكفي من الهدوءِ ليُلقي بحملِهِ برهافةٍ بحيث لا يجعلُ رقّاص الفراش يئنُّ. ولم يُصدِرِ إلا أضعفَ صرير. بالنسبة إلى ريتون كان الأمرُ قد تمَّ... كان عاجزاً عن تخيُّل المدى الذي سيصلُ إليه ذلك الغضبُ، إلا أنه قامَ بالحركاتِ التي قد تساعدُ على تهدئة الجندي. فوضَعَ فتى الميليشيا المُستلقي في الفراش ساقيه، اللتين كانتا تتدليان نحو الأرضِ، بجوارِ إريك، الذي ظلَّ جالساً، يحملُ الهارمونيكا في قبضةِ يدهِ. وتابعَ بقيةُ الجنود تفرُّجهم.

" لقد أحسنتُ عملاً بتنظيفِ ثقبي "

الرقيبُ أيضاً، الواقفُ عند البابِ، كان يتفرَّجُ. ولما كانَ قد انزعَجَ لأنه تمادى في خشونتهِ مع جندي كان يُحاربُ وربما سيُقتَلُ في ذلك

اليوم، لم يجرؤ على التدخُّل. ثم إنه كان خاضعاً لضغط شعورٍ سأتحدَّث عنه حالاً. فوسطَ صمتِ المدينة التي كان يُعكِّره أحياناً صوتُ سيارةِ الصليب الأحمر تقومُ بأداءِ خدماتها العسكرية، تسرَّبتْ من خلال النافذةِ نصفِ المفتوحة، وبصوتٍ واهنٍ مبحوحٍ، وقد باتَ أكثرَ صفاءً بسببِ الانكسار - كدُميةٍ مكسورةٍ - الأغنيةُ التاليةُ، المؤلَّفةُ من عناد الضعفاء، تصاعدتْ من الرصيف، ولدى مرورها من خلالِ أوراقِ الأشجارِ، وصلتْ إلى سَمْع ريتون، الذي بدا له النغمُ مُشرقاً:

لقد كسروا كماني...

عضَّ ريتون، الذي بَطَحَه الفريتز بكل فظاظةٍ، على الوسادة، لكي لا يصرخ. توقَّفَ الوحشُ وراحَ يلهثُ قليلاً، تاركاً خدَّه يرتاحُ على قفا عُنُق ريتون. شَخَرَ. وأتاحت فترةُ راحةٍ قصيرةٍ، وخمودُ غضبِ الرجلِ، للفتى إتمامَ المقطعِ الشعري الذي كان الصوتُ الهشُّ يُردِّد

لأنَّ رنينه فرنسيّ.
إنه يُطلقُ بدونِ وجلٍ أصداءً
تصدحُ بلحنِ المارسيليز.

لم يجرؤ ريتون على الإتيانِ بحركة. في أول الأمر تساءلَ بقلقٍ إنْ كان عليه أن يُنَظِّفَ نفسَه أو أن يُبقي المني فيه هكذا ببساطة، ثم بماذا يمكنه أن يُنَظِّفَ نفسَه إذا لم يكن هناك ماءٌ؟ يمكنه فقط أن يتمسَّحَ بمنديله. قامَ الجنديُ، الذي كانت ذقنه المُلتحية يشعرُ بها ريتون على قفا عُنُقُه، بدفعةٍ عنيفة. وأنَّ الفتى.

... تصدحُ بلحنِ المارسيليز...

لم يُحرِّكْ إريك ساكناً. كان عليه أن يُراقب الفتى الذي أُخضِعَ بالقوةِ ونُشِرَ إلى قسمين.

أرادَ ريتون أن تنتهي عمليةُ الاغتصاب، وكان يخشى نهايتها.

لا شكَّ في أنهم جميعاً سيَلغونَ فيه. جعله حضورُ إريك، الذي كان ما يزالُ يشعرُ به عندَ حافةِ السرير، يُحجِمُ عن تحريكِ رَدْفِهِ لحثِّ الجندي على القذف بسرعة.

... *يُطلقُ الأصداءَ*...

أخيراً صارَ دفءُ السائلِ ينبعثُ بنبضٍ أبطأ فأبطأ، كتدفُّقِ الدماءِ من شريانٍ مقطوعٍ. كان الرجلُ القادمُ من الشمالِ يُفرِغُ شُحنتَه في عينه البرونزية... وحين نهضَ واقفاً، برفقٍ لكي لا يُثيرَ أي ضجَّة، كان الجنديُّ قد هدأ. كان يبتسمُ. وظلَّ واقفاً بجانبِ السريرِ برهةً. كان ينظُرُ بتحدٍ إلى أقرانه المبتسمين، ثم، وببطءٍ، وهو يبتسمُ ابتسامةً أعرضَ ويرمي بشَعرِهِ الأشقر إلى الخلف بهزَّةٍ سريعةٍ قصيرةٍ من رأسِه، عدَّلَ من حالةِ بنطاله وسترةِ قائد الدبابة السوداء الصغيرة وأعادَ تثبيت حزامه. قال للجنود:

" ماذا تنتظرون؟ "

نظرَ في عينيّ إريك. كان ريتون، بعد أن تحرَّرَ من مُعذِّبه وما يزالُ متمدِّداً، قد رفعَ بنطالَه وهندمَ قميصَه. أخذَ يتلفَّتُ، منتظراً وعلى شفتيه ترتسمُ ابتسامةٌ واهنةٌ. كادَ أحدُ الجنودِ الذي كان جالساً على الكُرسي أن يُباشر بدوره، لكنه غيَّرَ رأيه، والتفتَ نحو الباب ودعا الرقيبَ وهو يضحكُ إلى أن يُمتِّعَ نفسه أولاً. نظرَ الرقيبُ إلى إريك وأشارَ إليه. همسَ إريك بكلمة، وإذا بالجميع يغادرون المكان. لم يحدث شيء. كان عليهم أن يفرُّوا عن طريقِ أسطح البنايات.

* * *

غادرتْ الخادمةُ الصغيرةُ القبرَ قُرابةَ المساء وعادتْ سيراً على قدميها سالكةً درباً ضيِّقةً ظليلة. كانت وحدها، تحملُ بيدها زهرةَ

الربيع، وهي مذهولة لكونها حُرَّة. كان جوربها ذو لون البشرة يتراخى ويسقط، ولم تكدْ تلاحظُ ذلك ولم تلاحظ أنها كانت ما تزالُ تحتفظُ على رأسها بإكليل زهر اللؤلؤ الزجاجي مع ملاكٍ صغيرٍ من البورسلين القرمزي، كان يهتزُّ لدى كل خطوةٍ عند نهايةِ طرفٍ نحاسيّ مُستدقّ ملفوفٍ بخيطٍ حريري أخضر. أبقَتْ التاجَ في مكانه، مائلاً فوقَ أذنها كقُبَّعةِ هنود الأباتشي، طوال الطريق من المقبرة إلى غرفتها. انطلقَ ضراطٌ كان يدورُ في بطنها منذ بعض الوقت مُحدِثاً انفجاراً قوياً حتى أنها حَسِبَتْ أنها تحولّتْ إلى صَدَفةٍ بحرية.

قالت لنفسها " الصَدَفَة البحرية ليس لها أرجلٌ، فكيفَ سأصلُ إلى المنزل؟ "

لم تكن قد تلقَّتْ أخباراً عن جان منذ وقتٍ طويل. كان ينتقلُ من مجموعةٍ تحت الأرض إلى أخرى ولم يعُد يأتي إلى المنزل. وهي التي سبَّبَتْ حبي لإريك. وفي منزل أُم جان لم يكن قد مضى على وجودي هناك أكثر من بضع دقائق وأنا أتسامرُ مع الفريتز، عندما حاولتُ أن أُخفي تثاؤباً.

سألَ " ألستَ جائعاً؟ "

" قليلاً "

نهضَ واقفاً، وفتحَ البابَ، ومن خلالِ الفتحة لمحتُ جولييت. كانت تلجُ الغرفةَ الأخرى؛ ترتدي مئزراً رمادياً فوقَ رداءٍ قصيرٍ أسود، حتى أنَّ الصورةَ كلها التي أحملها لتلك الرؤية تُغلِّفُها الكآبةُ والحزنُ. كان شَعْرها غير مُسرَّحٍ، ويُخالطه بضعُ خُصَلٍ من الصوف أو نُتَفٍ من الزغب. فهل كانتْ ربما تُنظِّفُ غرفةَ النوم؟ وهكذا كان أوضحُ بقايا الجان، خطيبته، هي على صورةِ خادمةٍ قذرةٍ، مهملةِ المظهر. ما الذي جعلَ جان يحبُّ مثل تلك

المخلوقة المُنفّرة؟ أيكونُ قد اختارها بدافعٍ من إحساسٍ مفرطٍ بالذُل، لأنه هو نفسه كان مؤهَّلاً لانتحالِ جمالِ الاثنين؟ كان إريك قد فتحَ البابَ بقدمهِ ومن ثم أبقاهُ مفتوحاً بيدهِ الضخمةِ، بحيثُ أني رأيتُ من تحتِ ذلك القوسَ الخادمةَ تمرُّ ثم تختفي. والحَزنُ الذي اجتاحني لم يُقلِّل من حبي لجان، لكني شعرتُ بالحنق منه لأنه تركَ لي تلك الفتاة مع المهمّةِ الشنيعةِ كتذكارٍ منه. شعرتُ أني مخذولُ، ضجِرٌ، بائسٌ هتفَ إريك:

" كم الساعة؟ "

كان صوتُهُ ثقيلاً وأجوفَ. نظرتُ إلى وجههِ، رأيتُهُ من الجانب، لأنَّ رأسَه كان ملتفتاً، والتصقَ كربي بالعضلةِ القويةِ، الطويلةِ، المنتفخةِ في عُنُقه. وفتحَ مرأى الخادمة أبوابَ قلبي للسأم. عضلاتي ذاتها تخدَّرَتْ، وفمي وحنجرتي اختنقا بكتلةٍ من الشَعر الوسخ. أكنتُ أفرطُ في التدخين، أم أنَّ ذلكَ أحدَثَه حضورُ إريك، بتلك الوسيلةِ غير المباشرةِ، لكي أقعَ في حب فارٍ من الجنديّة؟

ما كانت لتتوفَّرَ لديَّ القوةُ لاحتمال حبي لجان لو أني اعتمدتُ على تلك الفتاة البائسة. من ناحيةٍ أخرى كان في إمكاني أن أُطلِقَ العنانَ لشهواتي لو أنَّ إريك دَعَمَني. كان الشعورُ بالاشمئزاز قد فتحَ قلبي، فتدفَّقَ الحبُ إليه. ودفعني مجرمُ منفيٌّ إلى البوخ. تعلَّقتُ به بالفكر، طَعَّمتُ جسدي بجسده، لكي يمُدَّني جمالُه وصلابتُه بالقوة لأتحمَّلَ إحساسي بالغثيان وأكبُتَه. لقد أحببتُ إريك. وأحبُّه. وبينما كنتُ متمدِّداً على سريرٍ من طراز لويس الخامس عشر كانت روحُ جان تكتنفُ غرفةَ النومِ التي كان فيها إريك العاري يقومُ بعمله بتصميمٍ صارمٍ. أشحتُ ببصري عن باولو. وراحتْ عيناي تبحثان، بينما رأسي مُقحَم بين ساقيه، عن السرطانات المقدَّسة، ثم قامَ لساني بفعل ذلك، حاول أن يلمُس ذلك

الطرف الصغير الدقيق: واحد منها فقط. أخذَ لساني يزدادُ حدَّة، ويُبعدُ جانباً الشَعر برهافةٍ شديدة، وأخيراً، ووسطَ كثَّة الشعر، حظَيْتُ بمتعةَ الإحساس تحت حُليمات لساني بالبروز الطفيفِ لسرطان صغير. في أول الأمر لم أجرؤ على أن أُبعِد لساني. بقيتُ هناك، حريصاً على أن أحتفظَ باستمتاعي باكتشافي على طرف لساني ونفسي. وأخيراً، بعد أن ارتويتُ من السعادةِ، تركتُ رأسي وعينيَّ المغمَضَتين تستقرُّ في تجويف الوادي. وامتلأ فمي برقَّةٍ هائلة، خلَّفتْها الحشرةُ هناك، وهبطَتْ الرقَّة إلى داخلي عن طريق الحنجرة وتدفَّقَتْ متغلغلةً في جسمي. كانت ذراعايَ الاثنتان ما تزالان تُطوِّقان إريك، ويدايَ تداعبان برفقٍ ظهرَه وداخل ردفيه، وتخيَّلتُني أداعبُ المنحدرات المُشعِرة لسرطان هائلِ الحجم. وكان يمكن أن أعبده. قلتُ في نفسي " كان يمكن لقملةٍ أن تنقل حبي وتُثبِّته بشكلٍ أفضل. إنها أكبرُ حجماً، وشكلها أجملُ، وإذا ضُخِّمَتْ مئات الآلاف من المرات فسوفَ تبدو قسماتُها أكثر تناغماً ". لسوء الحظ لم يترك لي جان أي قمل. ثم حاولتُ وأنا أضغطُ أسناني بقوةٍ على عضلةِ الفخذ من الداخل أن أطبَعَ علامةً على منطقةٍ مقدَّسةٍ، حديقةٍ هي أكثر تنسيقاً وأناقةً من بقيةِ أنحاء الغابة. غاصت يداي، وما تزالان على ظهر إريك، بين ردفيه وأخذتا تساعدان رأسي، المضغوط قليلاً ببطن إريك وأيره. شعرتُ في فمي بحضورِ الحشرةِ التي كانت حاملةً أسرار جان. شعرتُ بها تتضخَّمُ. سمعتُ ضجيجاً. التفتُّ. كان باولو يدخل، وبندقيته مُعلَّقة عبْرَ ظهرِه. كانت بيننا صداقةٌ كافية ليصافحني. وكان يفعل ذلك أحياناً.

" كيف الحال؟ "

" لا بأس، وأنت؟ "

" لا بأس "

لم يقُل شيئاً لإريك. توجَّه إلى النافذةِ وأطلَّ منها إلى الشارع دون أن يتخلَّى عن بندقيته، مما أثارَ فضولي. لا شك في أنه كان في إمكان باولو أن ينضمَّ إلى مُحرِّري باريس، لكنني لم أتمكَّن من الكَفِّ عن التفكير في أنه كان مرتبطاً بالألمان، وشَمَلتُهُ مع رجالِ الميليشيا الذين انضمّوا، في بداية العصيانِ المُسلَّح، إلى المقاومة الفرنسية. قاتلوا إلى جانب الفرنسيين المُخلصين، لكنهم ضمْن صفوف القوات النظاميّة تابعوا كفاحهم. وعلى الرغم من أنهم جميعاً تقريباً أدركوا أنَّ الورقة الألمانية قد خَسِرَتْ، ظلوا يلعبون بها سراً. كانوا يجوبون أنحاءَ باريس وفرنسا مُسرعينَ بسيارات تُطلِقُ وابلاً من الرصاص وكانت المُلصقاتُ الجدارية في كلِ مكان تنشر أوصافهم. ولا أزالُ أذهَلُ لدى التفكيرِ في أنَّ أولئك الرِعاع كانوا منخرطين في صراعٍ تحت أرضي لصالحِ قائدٍ مُنهارٍ لم يضمروا له أي حب. لكنَّ باولو بدا أنه، تحتَ مظهره القذر، يُقاتلُ من أجل الحرية. كان إريك قد عادَ فأغلقَ البابَ. جعلني مرأى باولو وهو يرزحُ تحتَ وطأةِ ذاك العبء وتلك الوقفة، اللذين يُحدِّدان نشاطَه الانتقامي، جعلني أشعرُ بشيءٍ من الخجلِ لأني أعشقُ أحدَ البوخ. قلت:

" يجدرُ بالألمان أن يُحسِّنوا سلوكهم في حضور باولو "

كنتُ أبتسمُ، لكنني شعرتُ أني أكنُّ ضغينةً. وشَعَرَ إريك بذلك، نظرَ إليَّ. كان شاحبَ اللون. لا شك في أنَّ ضغينتي كان المقصودُ بها أساساً أن تكونَ غطاءً لحبِّي. تعليقي آذى إريك. لم يقُلْ شيئاً. فأضفتُ:

" ألستَ خائفاً؟ "

سمِعَ باولو الجملةَ الأولى، كان قد دخَلَ. كان يَتَّكئ على الطاولةِ بكلتا يديه، وبندقيته على كتفه، يُراقبنا. أخرجتُ آلياً عُلبة سجائر من جيبي. أخذتُ واحدةً وقدَّمتُ العُلبةَ لإريك. هزَّ رأسَه وقال " لا، شكراً "

سألتُ ملتفتاً إلى باولو " أتريدُ واحدة؟ "

حوّلَ يدَه. حركتُهُ هذه، التي كانتْ متضمَّنَة في مُجملِ وضْعِ جسمِه، كانتْ على وشك أن تتكشّف، أن تنفرش، أن تبرُز من تينك العينين، من ذاك الجسد، من تلك الذراع، وأن تمتدَّ حتى تصل إليَّ...

" أنا؟ آه، لا! "

هزَّ رأسَه تماماً كما فعلَ إريك.

قالَ " لا، لا، لا أريدُ واحدة "

أعدتُ العُلبَةَ إلى جيبي وأشعلتُ السيجارةَ التي كانتْ في فمي. كنتُ أقلَّ انزعاجاً لرفضهما عَرْضي من اكتشافي إلى أي حدٍ كان باولو يعشقُ إريك سراً، بما أنه كان عازماً على أن يُشاركه عزلتَهُ، غير راغبٍ في أن يتركَهُ وحيداً. لم أكنْ أظنُّ أني أستطيعُ أن أبوحَ بحبي لإريك عندئذ، ولا حتى لباولو. إذ أنه لم يُلمِّح قط من قبل إلى علاقتي بجان. فتحَتْ الخادمةُ البابَ وقالتْ:

" إنها الثانية عشرة والربع "

* * *

كان الجنودُ الألمانُ وريتون قد عادوا إلى السطح. فقد شعروا أنَّ مَنْ يلاحقهم كان الخوفُ وليس سكّان العمارة. وكانوا يفرُّون منه. وصلوا إلى زاويةٍ تُشكِّلها ثلاثُ مداخن، ببطء، وفي وَضَحِ النهار، وهم يسلكونَ أقلَّ المنزلقاتِ انكشافاً على السطح. كان المخبأ ضيِّقاً، ولا يكادُ يحتويهم، مع أنهم جثموا معاً فيما يُشبه العنقود اختفى منه مفهوم الفرد. لم يولدْ هذا التجمُّع المُسلَّح أي تفكير، وإنما نعاسٌ، حلمٌ مواضيعه الرئيسية والمختلطة إحساسٌ بالدوار، وحركةُ سقوطٍ، وحنينٌ إلى أرضِ الوطن. ولما لمْ يعودوا يخشون أن يسمعهم أحد، بدءوا يتكلّمون بصوتٍ عالٍ.

وانحشرَ ريتون بين ساقيّ إريك. جَثَما أحدهما قِبالةَ الآخر، وأمضَيا سحابةَ النهار بهذا الوضع، يسحقهما ضغطُ الجنودِ الخمسة الذين كانوا أحياناً يفيضون نحو السماء. كان الطَلَقُ الناريّ ينهمر عليهم من كل مكان، لكنهم لم يكونوا يُبصِرون شيئاً، ولا أي بقعة من الشارع، أو نافذةٍ واحدةٍ من أي شقّة. وكان الحَرُّ قاهراً. وقُرابة المساء، تراخى تكتُّل الذُكُور قليلاً، وعادتْ الأعضاء المُخدَّرة إلى الحياة من جديد. واستيقظَ إريك وريتون. وتحتَ حمايةِ المداخنِ، وزَّعَ الرقيبُ ما تبقَّى من طعامٍ وتناولوا آخرَ وجبةٍ لهم. كانتْ الفكرةُ العامةُ لديهم أن ينزلوا تحت جُنحِ الظلام ويشقُّوا طريقهم إلى غابة فانسان. ثم خفَّت كثيراً كثافةُ إطلاق النار. كان المساءُ يفرضُ هدوءه. لم يكن يُرى شيءٌ من فوق الأسطح، ومع ذلك شعروا بأنَّ عتبة كل نافذة، وكل شُرفة، تُخفي وراءها خَطَراً، وأنَّ جانبَ كل مدخنة يمكنُ أن يكونَ درعاً لجنديٍ والجانبُ الآخر لعدو. وراحَ الرقيبُ والجنودُ ينتشرون زحفاً ليستكشفوا. وبقيَ اثنان من الألمان في المخبأ مع الأسلحةِ والماء. وكان عليهم ألاّ يُطلقوا النارَ إلا في حالة الضرورة القصوى. انعطفَ إريك ضَجِراً ومُتعَباً. لحيتُهُ الشقراءُ الخفيفةُ رقَّقَتْ من قَسَمات وجههِ الذي كان قد نحلَ بفعلِ الإرهاق. لمْ يتكلَّم أي منهما. كانا يستعيدان يقظتهما بعد نومهما متشابكين. كانت عيونهما عشواءَ، وفماهما رخوَين. كانت الرؤية من المرصد أفضل قليلاً وكانا يستطيعان أن يريا واجهاتِ بعضِ المنازلِ والنوافذ بنورٍ خفَّاقٍ واهن. برزَ ظلُّ جانبيٌّ لرجلٍ في المستطيل. صوَّبَ ريتون وأطلقَ مُحدثاً انفجاراً. ارتدَّتْ الصورةُ الجانبيّة إلى الخلف داخل الظل. وحطَّتْ يدُ إريكَ القويةُ، المستبدَّة على يد ريتون.

" لا تُطلِق "

نَفَرَ ريتون متضايقاً وتراخى إصبَعُه المتوتِّر عن إطلاقِ رصاصةٍ ثانية.

كرَّرَ إريك بخشونةٍ وبنبرةٍ مؤنِّبةٍ ولكن خفيضة: " لا تُطلق "

مرةً أخرى اجتاحته أنهرٌ من الغضب الأخضر. كانوا يُبحِرون ليلاً، تحت سماء تُقَطِّعُها بروقُ الحَرّ، في نهرٍ مملوءٍ بالتماسيح. وعلى شاطئٍ ينمو فيه السرخسُ كان المتوحشون عَبَدَةُ القمر يرقصون حولَ نارٍ في الغابة. والقبيلة التي دُعيتُ إلى الوليمة كانت تجدُ متعةً صاخبةً في الرقص وفي ترقُّب الجسد الغضّ الذي كان يُطْبَخ في مرجل. يُمتِعُني ويُريحني، وأنا بين رجالٍ من قارّةٍ سوداء ممزَّقةٍ قبائلها تأكلُ جثثَ مُلُوكِها، أن أجدني مرةً أخرى مع مواطني بلد إريك ذاكَ حتى أستطيع أن آكُل لحم أرقّ جسدٍ بدون أن أتعرَّض لخطرِ الندم، حتى أستطيع أن أُمثِّله في لحمي، وأستطيع أن آخُذ أفضلَ قطعِ الدُهن بأصابعي، وأبقيها في فمي، على لساني، بدون شعور بالتقزُّز، وأحسُّ بها في معدتي، وأعرفَ أنَّ مقوِّماتها الأساسية سوفَ تُشكِّلُ أفضلَ جزءٍ مني. لقد أُعفيتُ من الاستعدادات المملّة، على الرغم من أنَّ الرقصَ كان يساعدني في عملية الطبخ، والهضم، وفعالية فضائلِ الفتى المطبوخ. كنتُ أرقصُ، وأنا أشَدُّ سواداً من السود، على قرع الطبول، كنتُ أجعلُ جسمي لَدناً، كنتُ أشدُّه ليتلقّى الغذاء المقدَّس. كنتُ متأكّداً من أني الإله. الله. جلستُ على المائدة الخشبيّة أنتظرُ من جان، الذي كان ميتاً وعارياً، أن يجلب لي، على ذراعيه الممدودتين، جثّتَهُ هو. كنتُ أترأسُ، وأنا أحملُ شوكةً وسكيناً في يدي، وليمةً فَذَّةً أنوي فيها أن ألتهمَ اللحمَ المميَّز. لا شك في أنَّ هالةً قُدسيّةً كانت تتوِّجُ رأسي وهالةً نورانيّةً تُجَلِّلُ جسمي كُلَّه: شعرتُ أني أشعُّ. كان السودُ ما يزالون يعزفون على مزمار البامبو ويقرعون الطبولَ. وأخيراً، ظهرَ جان من حيثُ لا أدري، ميتاً وعارياً. كان يسيرُ

حافي القدمين، وقد أحضَرَ جُثَّتَه المطبوخة حتى تحوَّلَ لونُها. وضعَها على المائدة ثم اختفى. جلستُ وحدي على المائدة، قُدُّوسٌ لا يجرؤ السودُ على النظر إليه، وباشرتُ الأكل. أصبحتُ أنتمي إلى القبيلة. ليس مجرَّد انتماءٍ سطحي لأني وُلِدتُ بين أفرادها، وإنما بِنعمةِ التبنِّي التي خوّلتني أن أُشاركَ في الاحتفال الديني. وهكذا منحني موت جان. د جذوراً. أخيراً بتُّ أنتمي إلى فرنسا التي لعنتُها واشتهيتُها بقوة. إنَّ جمالَ التضحية من أجلِ أرضِ الوطن تهُزُّني. وقبلَ أن يَخِزَ الألمُ عيني وتفيض دموعي أعي بواسطةِ لحيتي أولَ ظواهرِ انفعالي: ما يشبه القشعريرة أضحتْ أشدَّ حساسيّة بسبب نموّ شعْر لحيتي القاسي على البشرة، مما يمنحني فجأةً شعوراً بأني حقلُ جودار محصودٌ - جُذامةٌ - تجري عليه قدمان صغيرتان حافيتان. لعلَّ ذقني ارتعَشَتْ كما يحدثُ للأطفالِ الحزَانى. إنَّ لديَّ فقيدي الذي ماتَ لأجلها. وها قد اصبحَ الطفلُ المنبوذُ الآن مُرشَّحاً لتحريرِ المدينة. كان القمرُ الجميل ساكناً في السماء الصافية.

" لا تُطلق "

نطَقَ إريك الكلمةَ بوضوحٍ أشدّ، ورقَّةٍ أكثر. بدا كأنه يزأرُ من جزءٍ أعمق، وأشدَّ غموضاً من الغابة. بقيتْ يدُهُ في مكانها، تمنعُ ريتون من مواصلةِ إطلاق النار.

" لَيسَ... (تردَّدَ إريك، مُحاولاً أن يعثُرَ على الكلمةِ المناسبة) ليسَ... الآن "

فَقَدَتْ يدُ ريتون قوةَ إرادتها وأصبحَ إريك أكثرَ وداً. وبرفقٍ، وباليد الأخرى، أخذَ الألماني المدفعَ الرشاشَ وحطَّه إلى جانبه. ولم يكن قد حرَّرَ ريتون. وفي الحقيقة لقد شَحَنَ عناقَهُ بفيضٍ من الحنان. وجَذَبَ رأسَ الفتى إليه. وقبَّلَه.

" انهـض... "

كـان لهذه الـكلمـة الواحدة نبـرةُ الأمرِ الجافَ المُقتَضَب، لـكنَّ ريتـون كان قد تعوَّدَ على أساَليب إريك. نهضَ واقفاً. وخَرَقَ إريك ريتون، وهو يميلُ بظهرِهِ مُستنداً إلى المَعْلَمْ الآجري ويواجه باريس تراقبُ وتنتظر. كان بنطالاهما مرخيَّين حتى أعقابهما حيثُ كان إبزيما الحزامَين يقرقعان لدى كلِ حركـة. قوَّى عزمَ المجموعة استنادها إلى الجدار، كـونها مدعـومةَ الظهـر، ومَحـميَّةً بـه. لو أنَّ الذكَرَين نظرَ أحدهمـا إلى الآخر، لاختـلفَتْ نوعيّةُ المتعـة. لو أنهـما كانا فـماً إلى فم، وصدراً إلى صدر، متشابكي الركَب، لانضفرا في نشوةٍ تحتجزهما داخلَ ما يشبه المبيض يُقصي كلَّ ضوء، لكنَّ الجسَدَين بالتكوين الذي شكَّلاه يُحدِّقُ إلى قلب الظلام، كما يُحـدِّقُ المرءُ إلى المستـقبل، الضـعيـفُ يحـميـه القويّ، والعـيونُ الأربعـةُ تُحدِّقُ أمامهـا. تُسلِّطُ الأشعَّـةَ المخيفةَ لحُبِّهمـا نحو الأبدية. ذلكَ البروزُ النافرُ للظُلمَةِ على سطحِ الآجُر كان بمثابةِ نقشِ حيوانِ الغريفين على شعارِ النبالة، الصـورةِ المقدَّسة على درعٍ خلْفهُ اثنان من الألمان يقومان بالمراقبة. لم يكن إريك وريتون يعشَقُ أحدهما الآخر؛ كانا يهربان من نفسَيهما من فوق العـالم، يُلقيان نظرةً شاملةً على العالم، في وضعيَّةِ الانتصار. هكذا كان هتلر، من غُـرفَتـهِ في برلين أو برختسغادن، وهو يُحكِمُ بيدٍ صارمةٍ، وبطنُهُ تضربُ مؤخراتهم وركبتاه في تجويف ركَبِهم، يُطلِقُ شُبَّانَه المراهقين الممـجَّدين فـوق العـالم المُهـان. لكنَّ إرهاقَ إريك كـان يدفـعُـه إلى الخلف، وبعنادٍ أكبر. كان يدخلُ إلى ذاته من جديد، يستـردُّ شبابهُ، وزواجه الأولَ من الجلاَّد بين الشجيرات عندما حلَّتْ كلتا يديه، اللتين كانتا ماهرتين معاً في التـعامُل مع الفـأس، أزرارَ فـتحـةَ بنطالٍ، وأزاحتْ قـميـصاً، وأخرجَتْ أيراً، ورفعَ إريك عينيه الخائفتين إلى عينيِّ الوحش وقال له بعذوبة:

" لا تغضب مني إذا لم أُحسنْ الأداء، لكنَّها المرةُ الأولى "

أجبَرَ الجلاّدُ، المُستندُ إلى شجرةٍ، إريك على أن يواجهه، ووضعَ عُضوَه بين فخذيّ الفتى، وقَبَضَتْ ذراعا ريتون على رأس إريك الشَعث وضغَطَ العنقَ القويَّ الرائعَ، الذي انحنى إلى الأمام. وأخيراً لَمسَ رأسُ إريك الوجهَ الشاحبَ، الذي كان استغاثةً محضاً، تناغُماً يحتضرُ. أحاطَتْ ذراعا ريتون المرتعشتان بالعُنُق المأسور وأغلَقَتْ عليه داخلَ سلَّةٍ من الرِّقَة والورد، من أهدابِ الأطفالِ، ومن المُخرَّمات، وغمغمَ صوتُ الفتى قُرْبَ أذُنِ المُحارب نصفَ العاري:

" حسن الآن، ادخُلْ، حانَ الوقت "

أثناء مروره بلحمه كلّه، أجبَرَتْ ذكرى الجلاّد إريك بتسبيب مَهانةٍ أعظم للفتى. وتراجَعَتْ إثارتُه كلها. الجلاّدُ شنيعٌ ولكن لابدَّ أنَّ وجهَهُ القاسي وبُنيتُهُ الفخمتَين، التي استطاعَ أن يراها بعينِ عقله، تشعرُ بتحررٍ أكبر، فإمّا أنَّ التفكيرَ فيها أثارَ فيه فخراً أعظمَ وهو يخرُقُ ريتون وجَعَلَهُ يضربُهُ ويُعذّبه لكي يُعززّ شعورَه بحريته وبقوته وبالتالي ينتقمُ لضعفه، أو ظلَّ مُهاناً بالعارِ السابقِ وأنهى عمَلَه بحركاتٍ أرقّ ووصلَ إلى الهدَفَ وهو في حالةٍ من الكرْبِ الأخويّ. دُهِشَ ريتون لتأجيلِ الحب، أرادَ أن يهمسَ ببضعِ كلمات تأنيبٍ لطيفةٍ جداً، لكنَّ حيويّة الحركاتِ أمَدَّتْه بالوعي التام بأنَّ الشهوانيين العِظام دائماً يقعونَ في شِباكِ الحب. قال، وهو يكادُ ينشج:

" لن تنالني! لا، لن تنالني! "، وفي الوقت نفسه خَوزَقَ نفسَه بقفزةٍ.

" ... Einmal" (مرة أخرى).

لاحظتُ، ورأسي مائلٌ إلى الخلف، عُزلةَ المدخنة، وحدها في وجه السماءِ المُرصَّعَةِ بالنجومِ، كلسانٍ من اليابسةِ يُكتنفه البحر. بَدَيَا لي -

المدخنةُ ولسانُ اليابسة - كأنهما يَعيان جمالهما وقد دفعهما هذا الوعي إلى حافةِ اليأسِ. العضو كلّه اصبحَ في الداخلِ، ولَمَسَتْ مؤخّرةُ ريتون بطنَ إريكَ الدافئة. كان استمتاعُ كلٍّ منهما عظيماً، واضطرابهما أيضاً، بما أنه تمّ تحقيقُ تلكَ المتعة. وبحركةٍ أشبه بتأرجُحِ قفصٍ مُقفلٍ، كالذي نراهُ في الأسواقِ القَرَوية، أسْهَمَ الفَتَيَان بجهدٍ مشترك. القفصُ يرتفعُ. كل ذبذبةٍ تتطلّبُ سعةً أعظم، وحين يصلُ القفصُ إلى الذروة بعد أن يرسمَ نصفَ دائرةٍ، يتلكّأ قبل أن يهبطَ لكي يُكملَ انعطافه التام. يظل ثانيتين بدون حركة. أثناء هذه البرهة ينقلبُ الفَتَيَان رأساً على عقب. عندئذٍ فقط يقتربُ وجهاهما من بعضهما ويتبادل فماهما قبلةً وتتشابكُ رُكَبَهما. وتحتهما، يواصلُ الحشدُ، برؤوسهِ المقلوبة، النَظَر. أصبحَ ريتون أكثر رِقّة. وغمغمَ كمَنْ يُصلّي:

" والآن، اسمع، انظرْ إنْ كانَ في استطاعتك أن تُدْخِلَهُ كله! "

هذه الجملة كانت بالنسبةِ إلى إريك تُعادلُ شدواً جميلاً. فأجابَ بجملةٍ لا تقلُّ عنها جمالاً وصوتٍ لا يقُلُّ عن صوتِهِ في بحّتِهِ. قال ريتون:

" معكَ حقّ، حاول "

وفجأةً تقوّسَ جسمُ إريك قليلاً.

* * *

بعدَ أن رُدِمَ قبرُ طفلةِ الخادمةِ، غادرتْ عربةُ الموتى المقبرة. وتراكضَ صِبيَةُ الجوقة متناثرين بين القبور. راحوا يتسلّقون ضاحكين حديدَ الدرابزينات وأحدثوا بضعَ مُزَقٍ في تخريمات أرديتهم الكهنوتيّة. وفجأةً توقّفوا يواجه بعضهم بعضاً، ونظرَ كلٌّ منهم في عيني الآخر. للوهلة الأولى لم يأتِ أيٌ منهم بأيِ حركةٍ، وفجأةً انفجروا في نوبة ضحكٍ وسقطَ بعضهم فوقَ بعضٍ على العُشب، ووجناتهم متوهّجةٍ، تحتَ أشجارِ السرو،

حيثُ تتعانقُ هناك ورودٌ تُعرَفُ باسم " ورود الشيفون ". وتخلَّصَ الأصغرُ سناً من عناقِ رفيقهِ وقد تشعَّثَ شعرُهُ، واندفعَ إلى سورِ المقبرةِ وارتقاه. وعلى البُعدِ كانت عربةُ الموتى تشقُّ طريقها عائدةً إلى مرآبها. التفتَ الفتى وظلَّلَ عينيه بيده، وما رآه جعلَه يندفعُ بقوة بعيداً عن الجدار. لقد كان صديقه عارياً من تحت رداء الغفارة، وقد كشَفَ عن جسدٍ عضليٍّ. فحصلَ لديه انتصابٌ. اقتربتُ واستلقيتُ بالقرب من إريك. انهمرتْ على رؤوسنا عاصفةٌ من التويجاتِ هبطتْ من الورود المتعانقةِ حولَ السرو. لم تنجُ من الانهمارِ غير ذراعَيْن ضخمتين تتصارعان في وضعٍ يُسمِّيه البحَّارةُ " الذراع الحديدية ". جعلَ هو إريك يبقى في مكانه دون حراك وكأنما ليعي وعياً تاماً أنه مملوكٌ وسطَ صمتِ اللا حراك. فقط ورودٌ بيضاءُ استطاعتْ أن تخرُجُ من قضيب إريك لتدخُلَ العينَ البرونزية. تدفَّقَتْ ببطءٍ مع كل نبضٍ سريعٍ ولكن منتَظَم من الأير، المستدير والثقيل كحلقات دخانِ سيجارٍ تنبعثُ من شفتين مزمومتين. أُحسُّ بها ريتون تتصاعدُ داخلَه في ممرٍ أسرع من ممرِّ الأمعاء حتى وَصَلَتْ إلى صدره، حيثُ انتشرَ عبقُها في طبقاتٍ، مع أنه ويا للدهشة لم يُعطِّر فمَه. والآن بعد أن ماتَ ريتون، مقتولاً بيدِ فرنسيٍّ، فهل سنعثُر، إذا ما شققنا صدرَه، على بضعِ ورودٍ جافَّةٍ قليلاً، عالقةٍ في تعريشةِ الصدر.

غَمَرَ إريك الوجهَ المتعرِّقَ بالقُبلات. لقد سبَّبَتْ الآلةُ الثاقبةُ من الألمِ للفتى ما جعلَه يشتاقُ إلى مزيدٍ منه لكي يضيعَ فيه.

"Ich ..." (أنا...)

كان فمُ إريك يتكلَّم، يتنفَّسُ على كتفِ الفتى. وظلَّ ظهرُهُ يقومُ بالدفع. وانفتحتْ عيناهُ، اللتان كانتا قد بقيتا مُغمضتين، على مرأى عينيِّ ريتون. من المبتذل القول " هاتان العينان شهِدتا الموت "، ومع ذلك

فمثلُ هاتين العينين موجودتان، وبعد انتهاء اللقاء الرهيب، تحتفظُ نظرةُ الرجالِ الذين يحملونها بصلابةٍ وتألُّقٍ نادرين. وأَودُّ أن أَقولَ، ولا أريدُ أن أُطيلَ الكلامَ بهذه النبرةِ عن عينِ قابس وأخلُقَ فوضى أشبه بالتورية، إنَّ عين جان أضحَتْ جنائزيةً بالنسبة إليَّ. عندما تمدَّدتُ على ظهرِه، عندما غُصتُ عميقاً، شحذتُ لساني حتى صارَ مُدَبَّباً شديدَ الرهافةِ لكي أحفرُ بدقَّةٍ داخلَ ذاكَ الشقِ الذي كان ضيِّقاً كثُقبِ إبرة. أحسَستُ بوجودي (لقد نلتُه من ثُقبه!)... أحسستُ بوجودي هناك. ثم حاولتُ جاهداً أن أُتقنَ عملي كمثقاب. وكما يَميلُ عاملٌ في مقلعٍ للأحجارِ على آلته التي تهُزُّه بعُنفٍ وسطَ شظايا الميكا والشرار المنبعث من مثقابه، والشَمسُ القاسيةُ تلسَعُ قفا عُنُقِه، ويغشى دوارٌ مفاجئٌ كلَ شيءٍ مُبْرِزاً مشهدَ أشجارِ النخيلِ العادي ويخرجُ من قلبِ سرابٍ، كذلك صَعَقَ دوارٌ، بالطريقة نفسها، أيري حتى باتَ أقسى، وأصبحَ لساني أرقَّ، ونسيَ أن يحفرَ بقوةٍ، وغاصَ رأسي أعمقَ في الشَعرِ الرطبِ، ورأيتُ عينَ قابس وقد زُيِّنَتْ بالأزهار، والأوراقِ الخضراء، وأصبحَتْ تعريشةً مُنعشةً زَحَفتُ إليها وولجتُها بجَسَدي كله، لأنَامَ على الطُحلُبِ هناك، في الظلِّ، لأموتَ هناك.

في ذاكرتي، كانتْ أنقى العيون مُرصَّعتين بالمجوهرات، بماسٍ ولؤلؤٍ، نُسِّقَتْ على شكلِ تاجٍ. كانتا شفَّافتَين. عينا إريك: لقد تعرَّفَ إريك على ثلوجِ روسيا، على وحشيَّةِ قتالِ التحامِ الأيدي، على حيرةِ كونه الناجي الوحيدَ من بين المجموعة، لقد كانَ الموتُ أليفاً لعينيه. عندما فتَحهُما، رأى ريتون بريقهما على الرغم من الظلام. حين تذكَّرَ حملاتِ إريك كلَّها هو أيضاً راحَ يُفكِّرُ بسرعةٍ كبيرة: " لقد قابلَ الموتَ وجهاً لوجه ". كان إريك قد كفَّ عن العمل. ظلَّتْ عيناه تُحدِّقان، كان فَمُهُ ما يزالُ يضغطُ على فمِ ريتون: " الآن أصبحتُ أُدركُ أني أُحبكَ أكثر من ذي قبل ". هذه

العبارةُ قيلَتْ لي على لسانِ جان قبل ثلاثةِ أشهرٍ، وأنا وَضَعتُها على لسانِ رجلِ ميليشيا خَرَقَهُ لتوِّه جنديٌّ ألماني. وغمغمَ ريتون:

"الآن أصبحتُ أدركُ أني أُحبُكَ أكثر من ذي قبل ". ولم يفهمْ إريك.

لم تكُن هناك رِقَّةٌ يمكنُ التعبير عنها ؛ إذ بما أنَّ حبَّهما لم يلاحظه العالمُ، ما كانَ في وسعهما أن يشعرا بآثاره الطبيعية. اللغةُ وحدها كانتْ تستطيعُ أن تُنبئهما بأنَّ كلاً منهما في الحقيقة يُحبُّ الآخر. إننا نعرِفُ كيفَ تبادلا الحديثَ في البداية. ولما وجدا أنه لا أحدَ منهما فَهِمَ الآخَرَ، وأنَّ كلَّ عباراتهما كانت بلا معنى، اكتفيا أخيراً بتبادُلِ النخير. هذا المساء، وللمرةِ الأولى منذ عشرةِ أيام، سيتكلَّمان وسيُغلِّفان لُغَتهما بأشدِّ أنواعِ الهوى خزياً. السعادةُ التي كانتْ غامرةً جعلَتْ الجنديَّ يئنُّ. وبكلتا يديه المُتشبِّثتين، واحدةٌ بالأذُن، والأخرى بالشَعْرِ، لوى رأسَ الفتى من محورِهِ الفولاذيِّ الذي كان يغدو أشدَّ صلابةً.

" كفى "

ثمَّ قدَّمَ له فماً ضَغَطَ بشوقٍ على فمِه في الظلام. كانت شفتا ريتون ما تزالان متباعدتين، تحتفظانِ بشكلِ وعيارِ أير إريك. انسَحَقَ الفمان فوقَ بعضهما، ارتبطا وكأنما بواصلَةٍ، بقضيبِ الخواء، بعضوٍ بلا جذور يعيشُ وحدَه ويتنقَّلُ من مشربٍ إلى آخر. كانت الأمسيةُ رائعةً، النجومُ ساكنةً، ويكادُ يُخيِّلُ للمرء أنَّ الأشجارَ حيَّةٌ، وأنَّ فرنسا مستيقظةٌ، وأبعدَ أكثر في المسافة، فوقَ، أنَّ الرايخَ يُراقب. استيقظَ ريتون. كان إريك حزيناً. كان يُفكِّرُ في ألمانيا البعيدة جداً، في أنَّ حياتَه في خطرٍ، في كيفَ ينجو بجلده. زرَّرَ ريتون بنطاله في الزاويةِ، ثم التقطَ بهدوءٍ المدفعَ الرشاش. أطلَقَ رصاصةً. انهارَ إريك، تدحرَجَ على منحدَرِ السطح، وسقطَ منبطحاً. لم يرَ الجنودُ في المخبأ السقوطَ ولا لاحظوا غرابةَ الطلقة. خلال بضع ثوانٍ

سيطرَ على ريتون جنونُ فَرِح. وظلَّ برهةً يطأُ جُثَّة صديقه. وتراءى له، وهو يستندُ، لا يُحرِّكُ ساكناً، على المدخنةِ وعيناه تُحدِّقان، أنَه يرقصُ، يصرخُ، يقفزُ حولَ الجسَد وعليه ويسحقُهُ تحت مسمارِ نعلِ عقبيه. ثم عادَ إلى صوابه بهدوءٍ وشقَّ طريقَه ببطءٍ إلى الأسطح الأخرى. طوال الليل، وطوال صباح يوم العشرين من شهر آب، ظلَّ يُطلِقُ النارَ حتى سقطَ من فرط الإرهاق، هو المخذولُ من أصدقائه، من أبويه، من حُبِّه، من فرنسا، من ألمانيا، من العالم كلِّه، ليس بسبب جراحِه وإنما من شدَّة الإعياء، وألصَقَ العرقُ خُصلاتٍ يائسة من الشَعر بسالفيه. انتابه برهةً خوفٌ شديدٌ من أن يُقتَلَ حتى إنه فكَّرَ في الانتحار. إنَّ اليابانيين، كما تقولُ الصحف، ينصحونَ جنودهم بأن يُقاتلوا حتى بعد الموت لكي تتمكَّن أرواحهم من أن تشدَّ أزرَ الأحياءِ وتوجِّههم... إنَّ جمالَ ذلك التعنيف الشديد (الذي يُريني سماءً تتفجَّرُ بحيويةٍ كامنةٍ وملآى برجالٍ موتى تواَّقين إلى إطلاقِ النار) يدفعُني إلى أن أجعلَ ريتون يناشدني:

"ساعدني لأموت"

* * *

عادَتْ الخادمةُ الصغيرةُ إلى غُرفتها. كان المساءُ قد حلَّ. لمْ تَدَعْ أحداً يعرف.

جَلَسَتْ على سريرها الخفيفِ النقَّال، وما تزالُ تضعُ إكليلها بزاويةٍ تنمُّ عن أناقةٍ متهتِّكة. غالَبَها النومُ وهي جالسةٌ هناك تحملُ زهرتها الذابلةَ وتهزُّ ساقها. حين استيقظَتْ، في قلبِ الليل، كان شُعاعٌ من القمر يتسرَّبُ من خلالِ النافذةِ ويُضيءُ بقعةَ الممسحةِ البالية. نَهَضَتْ واقفةً ووضَعَتْ، بهدوءٍ، وورعٍ، الزهرةَ على ذلك القبر. ثم خَلَعَتْ ملابسها ونامَتْ حتى الصباح.

الهوامش

١ – البوخ : نعتٌ آخر للألمان .

٢ – هنا تلاعبٌ في الألفاظ في " قضبانٌ وبساتين " : ففي علم الحيوان ، كلمة verge تعني قضيب الرجل .

٣ – عين قابس : عبارة عاميّة ، وتعني فتحة الشرج .

٤ – قابس ، في الأصل ، مدينة في تونس .

٥ – القدميّة : ما يشبه العتبة توجد على كلا جانبيَ السيارة القديمة أو العربة .

٦ – تجويف بندقية : هنا تلاعُب في معنى كلمة ame ، والتي تعني معاً " روح " و " تجويف شكل إسطواني طويل" .

٧ – الصافرة : آلة نفخ موسيقية بست فتحات .

٨ – هنا تلاعب في كلمتيَ scie (منشار) و ici (هنا) في اللغة الفرنسية .

٩ – أنبوب كروكس : في مجال الكهرباء ، هو أنبوبٌ لتوليد الإلكترونات بواسطة تفريغ توهُجي في غازٍ منخفض الضغط .

١٠ – مراحل الصلب : عادة هي سلسلةٌ من ١٤ صورة تمثّلُ مراحلَ صلب المسيح .

١١ – النِصال : جمع نصل : شفرة السكين أو الخنجر .

١٢ – الكمير : كائنٌ خُرافي له رأس أسد وجسم شاة وذَنَب حيّة .

١٣ – هنا تلاعبٌ في كلمتيَ corbillard (عربة الموتى) و corbeill (سلّة) .

١٤ – بانام . اللقب العامّي الفرنسي لمدينة باريس .

١٥ – فريسكو : اختصار سان فرانسيسكو .

١٦ – v-1 : قذيفةٌ موجَّهةٌ ، اخترعها الألمانُ في الحرب العالميةُ الثانية وضربوا بها لندن . – المترجم .

١٧ – الجُذى : جمعُ جُذوة : الجمرةُ الملتهبة .

١٨ – الفضائل اللاهوتيّة : خاصةً بين أتباعِ اللاهوت السكولاستي ، الذين يتمسّكونَ بشدّةٍ بالنِعَم الإلهيّة ، أو الفضائل اللاهوتيّة : الإيمان ، والأملُ ، والإحسان .– المترجم .

١٩ – الحوّاد : جمع حادّ : مَنْ يلبسُ ثيابَ الحِداد على ميّت . – المترجم .

٢٠ – الحرابي : جمع حرباء : حيوانٌ زاحف يغيُر لون جلده حسب البيئة المحيطة به .

٢١ – التول : نوعٌ من قماش الحرير تصنع النساءُ منه الحُجُب .

٢٢ – اليوغي : أحد أتباع فلسفة اليوغا ويمارس طقوسها .



شعائر الجنازة

جان جينيه

ذات مرة كتب سارتر عن جان جينيه مجلداً بعنوان " القديس المتشرد" عن حياته وأعماله، ومن أعمال جينيه هذه الرواية.

عشية هروب القوات النازية من باريس خرج الناس إلى الشوارع يرددون - باريس ما زالت حية - ولكن وراء فرحة الحرية كانت هناك حكايات وأسرار حب وحرب يجدلها جان جينيه في رواية بفكر حر، وأسلوب خاص.

تصميم الغلاف: باسم صباغ

ISBN:2-84305-994-X

9 782843 059940